الأبيض لا يليق بكم

بسم الله الرحمن الرحيم

د طارق البكري

الأبيض لا يليق بكم

رواية

دار المكتبي

الطبعة الأولى

2018-1439

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه
بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير
أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان
بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن
مكتوب من دار المكتبي.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة

دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426

الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309

Email:almaktabi@gmail.com

www.almaktabi.com

الإهداء

إلى كلِّ طَبِيبٍ يَليقُ به الأبيضُ..

إلى كلِّ أبٍ وكلِّ أمٍّ وكلِّ حبيبٍ فَقَدَ حَبيبَهُ بِخَطأٍ طِبِّيٍّ..

إلى حَبيبِ قَلبي (منير)..

طارق

1

نِهَايَةُ عَامٍ حَزِينٍ

ـ انتهتْ حياتُه نهاية حزينةً، لكنَّها لمْ تمضِ هَكذا.. فقدْ صنعتْ منِّي هذه المَأساةُ شَخصاً آخرَ، بل إِنساناً جَديداً مُختلفاً.

ـ عَلَّمَني هذا الصَّبيُّ الصَّامدُ في وجهِ المِحَنِ معنى الصَّبرِ على المصائبِ الكُبرَى، وعزَّزتِ المِحنةُ في نَفسي قيماً كَثيرةً، منها قيمَتا التَّحدِّي ورفْض الانْهزامِ.

ـ فَتحتِ التَّجربةُ القاسيةُ عَيني على كَثيرٍ منَ الأشياءِ المتوهّمةِ.

لا أملكُ للآلامِ مُسَكِّناً وَلا للجراحِ بَلسَماً..

هي الحَياةُ تقولُ لعابِريْها بملءِ فيها: «حَذارِ حَذارِ».. غيرَ أنَّهم يغضُّونَ الطَّرفَ عنْ كلِّ

التَّجارب.. يَضعونَ أَصابعَهمْ في آذانِهم، يَطْعنُونَ في أعْمارهم مُتَحدِّينَ مَوتاً آتِياً طَمَعاً بخلودٍ موهومٍ..

يَسيرونَ في طُرقاتِهم مُتَجاهِلِين حَتميَّة النِّهايةِ.. لكنَّ الواحدَ منهم يُصرُّ على عَصْرِ تفاصيلِ دُنياه حتى الثّمالةِ، وكأنَّه فيها خالدٌ لم يَأتِ ليغادرَ.. بل لِيبقَى!!!!

أحداثٌ كثيرةٌ لم تفارقْ مَدامِعي.. حِوارَاتٌ عديدةٌ لَم تغادرْ مَسامعي.. رغمَ مضيِّ سنينَ طويلةٍ..

«أَلم أركُم هنا قبلَ أيامٍ قليلةٍ، هل يجدُر بي أن أُبلغكم أنَّ المُسْتَشفَى ليس مَكاناً لتَمضيةِ الوقتِ؟».

«هل تقصدُ أنَّنا نأتي لكي نهدرَ وقتَك ووقتَنا.. أو أنَّنا جئنا لكي نَتسلَّى؟».

ينظرُ إليها الدكتورُ يَترقَّبُ ماذا سَتقولُ..

«آسِفة يا دكتور لأنَّنا لسْنا كذلكَ، ربما اختَلطتِ الأمورُ عليكَ بينَنا وبينَ غيرنا».

«كثيراً ما يأتي النَّاسُ إلى المُسْتَشفَى وهم لا يَحْتاجونَ إلى طَبِيبٍ».

«يا أخي.. الولدُ لا يَستَطيع الوقوفَ على قدمَيهِ بسهولةٍ، ولا يُمكنهُ المشْي جيداً».

كانَ هذا جزءاً من حِوارٍ طويلٍ موجِعٍ مؤلمٍ في نهايةِ عامٍ حزينٍ..

كانَ العامُ يلفظُ أنفاسَه الأخيرةَ، يَطوي أوراقَه ويجمعُ أمتعتَه استعداداً للرَّحيلِ، مترقِّباً وصولَ عامٍ آخرَ جديدٍ..

كانَ يَمضي مُتثاقلاً مُتسارعاً في آن معاً، كمَن يُريدُ أنْ يتخلَّصَ من عبءٍ ثقيلٍ يحملُه رغماً عنه، يُريدُ تسليمَ العالمِ إلى خلفهِ بأسرع وقت ممكنٍ فراراً من هذهِ الدنيا ومَن فيها، راضياً بكلِّ الخسائرِ الماضيةِ، أو التي ستأتي خلالَ السُّويعاتِ القليلةِ المقبلةِ، قبلَ أنْ يقلبَ العالمُ صفحتَه..

كان العامُ المنتهية ولايته يسرعُ في دقائقِه الأخيرةِ مُتَنصِّلاً.. مُتَخلِّياً عن عرشهِ، مُصافِحاً يدَ مَن يأتي بعدَه بفرحٍ غامرٍ، فهو يُدركُ أنه يُصافحُ طفلاً وليداً نقيّاً غِرّاً لا يُدركُ معشارَ ما سَيصادفُ في عهدِه الجديدِ من مِحَنٍ وابتلاءاتٍ..

كان مرحِّباً به بشدَّةٍ وحرارةٍ، وموّدِّعاً له بسعادةٍ غامرةٍ في آنٍ معاً، قبل الفراقِ النهائيِّ، مُعلِناً وبكلِّ سعادةٍ عن رحلةٍ لا عودةَ منها..

ولعلَّه ـ وبِلا شكٍّ ـ كان ينتظرُ هذه اللَّحظات بكلِّ شوقٍ، حتى يتخلَّص من هذه الدنيا.. وكأنَّه في الترحيبِ المُغالَى فيه، والوداعِ المطلقِ، يُنبِّئُنا بأنه كان مُنتظراً هذه اللَّحظة بشغفٍ كبيرٍ، ليُسلمَ أمانةَ الزمنِ ـ بحلَّةٍ مختلفةٍ وليس كما تستلمها ـ إلى عامٍ غِرٍّ لا يدري أخطارَ ما هو قادم، ليُعلنَ بكلِّ وضوحٍ وإدراكٍ براءتَه من ذنوبِ البشريةِ والعالمِ بأسرِه،

وليؤكِّد كما أكَّدَ سابقوه على مدى آلافِ السنين أن البقاءَ على هذه الأرضِ مستحيلٌ، وأن النِّهايةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأن العامَ الوليدَ الآتي ليس هو العام نفسه الذي شاخَ ومضَى.. مُخبراً بالفعلِ لا بالقولِ إنَّ الزمانَ يموتُ وينتهي، كما تموتُ وتنتهي الأشياءُ الجميلةُ والقبيحةُ كلّها في هذا الكونِ.

مرَّت فترةٌ طويلةٌ وأنا أتنقَّلُ في الجوارِ، على مقربةٍ من سريرهِ الأبيضِ في غرفةِ الطوارئِ المزدحمةِ بالمرضَى وذويهم والممرِّضينَ المنهَكينَ، في الساعاتِ الأخيرةِ من ليلٍ باردٍ طويلٍ، وقُبيلَ سويعاتٍ مما يعرفُه الناسُ بأنه مُنتصف ليلةِ رأسِ السنةِ الميلاديةِ، إذ يحتفلُ العالمُ بهذه المناسبةِ، يضحكون ويمرَحون.. فيما نسمعُ هنا أنينَ المرضَى وتضرُّعاتهم..

وكان الأَوْلى لهؤلاءِ الفرِحين بانتهاءِ عامٍ وقدومِ آخرَ أنْ يحزنوا لمضيِّ العامِ وذهابِه من أعمارِهم،

ونقصان حياتِهم سنةً كاملةً مع بدءِ أُخرى جديدةٍ ستنتهي حَتماً معهم أو مِن دونِهم . .

ولعلَّ في أنينِ المرضى وتضرُّعاتهم ما يُشعلُ في أعماقِ القلبِ وأوصالِ الجوارحِ شموعَ الهدى وقناديلَ الحقِّ، ويفرغُ القلوبَ القاسيةَ من الشَّحناءِ والبغضاءِ والصراعِ على كلِّ ما هو فانٍ، ويملؤها حُبّاً وجمالاً وبهاءً.

وعِوضاً عن أن يمضي الوقتُ سريعاً، ويخرجُ هذا الصَّبيُّ من غرفةِ الطوارئِ عائداً إلى بيتِه؛ طالَ الوقتُ كثيراً، أكثر مما كان يتوقَّع . .

وأبتِ الأحداثُ إلَّا أن تسجِّلَ قصةَ مأساةٍ تحكيها الجوارحُ . . وانتهتْ حياتُه نهايةً حزينةً، لكنَّها لم تمضِ هكذا . . فقدْ صنعتْ منِّي هذهِ المأساةُ شخصاً آخرَ، بل إنساناً جديداً مختلفاً . .

تِلكَ الأحداث التي عشتُها في المُسْتَشفَى غيَّرتْ

في نفسي ملامحَ الزمنِ، وأظهرتْ حقائقَ كثيرٍ من الأشياءِ التي كنتُ مخدوعاً بجمالها.. فبدَّلتْ مسيرةَ حياتي.

تعلَّمتُ أنْ أرى الدُّنيا بحَجمها الحقيقيِّ، اختبرت كثيراً من الفروقِ ما بين الأحلامِ والواقعِ، ما بين الحقيقةِ والخيالِ، فرأيتُ الدنيا على حالِها؛ صغيرةً جداً.. بل أصغر من سَمِّ الخِياطِ، وكانتِ الإرادةُ أن لا أستسلمَ.. فقد علَّمني هذا الصبيُّ الصامدُ في وجهِ المحنِ معنى الصبرِ على المصائبِ الكبرى، وعزَّزتِ المِحنة في نفسي قيماً كثيرةً، منها قيمتا التَّحدي ورفض الانهزام، على الرّغْمِ من شدةِ الألمِ وقسوةِ الحياةِ، وفتحتِ التجربةُ القاسيةُ عيني على كثيرٍ من الأشياءِ المُتَوهمةِ.

سبعة أشهرٍ مُتَواصلة قضاها هذا الغلامُ الصالح على سريرِه الأبيضِ، مُتَنقلاً من مكان إلى مكان داخل

المُسْتَشفَى الواحدةِ، وغيرها من المستشفياتِ، لإجراءِ فحوصات ومناظيرَ وأشعةٍ مختلفة.. وكانتِ الحصيلةُ نحو خمسة تشخيصاتٍ - وربما أكثر - كلها كانتْ خاطئةً، وكأنَّ التَّشْخيصَ واجبٌ كتجربةٍ مائلةٍ إلى أن تكون خاطئةً قبل أنْ تكونَ صحيحةً، بِشكلٍ يبدو فيه الإنسانُ المريضُ: «لا شيء»، مجرد رقمٍ في دفترِ طَبيبٍ..

تماماً مثل سجينٍ في معتقلِ حاكمٍ ظالمٍ، لا يُنادَى إلا برقمٍ معينٍ، ولا يُسمحُ له بلفظِ حروفِ اسمِه، أو أنْ يُنادِيه أحد باسمِه أو كنيتِه ولقبِه، هو مجردُ مجموعة أرقام، تُمحى من المعتقلِ عندما يتمُّ التخلُّص منه، أو تُمنح لمعتقل جديد آخرَ، وخاصَّة عندما تنتهي حياة المعتقلِ القديمِ بِشكلٍ «طبيعي».. أو «تُنهى» على يدِ حراسِ المعتقلِ..

وربما يكون السجينُ الأسيرُ لدى العدوّ أوفر حظاً

ـ إذا كان العدوّ يحترمُ الأسرى ويعاملهم كبشرٍ لهم حقوقٌ تُحترَم ليبدوَ أمامَ العالمِ إنساناً ـ من مريضٍ أسير على سريرٍ أبيضَ بين يديّ طَبِيبٍ لا يحترمُ مشاعرَ المريضِ، ولا ينحني أمام هولِ المرض . .

ولا أقصدُ بالطبعِ العدوَّ الذي «لا يحترم نفسه»، وقد يكون «العدوّ» أحياناً «شريكاً» في وطنٍ، يَحمل الهويةَ نفسَها، ويتحدَّثُ اللغةَ نفسَها، لكنَّه في النهاية يبقى عدوّاً . . وربما يكونُ مؤمِناً بنفسِ المعتقدِ؛ لكنَّه قد يصبحُ أشرس قباحةً من عدوٍّ تاريخيٍّ للاثنينِ معاً، الأخير قد يُعاملُ الأسير برفقٍ مزيَّفٍ، أقلّه أمامَ عدساتِ المصوِّرين، ليباهيَ بنفسِه، ويستعرضَ فنونَه الكاذبةَ إزاءَ العالمِ الإنسانيّ.

وأنا في هذا الواقعِ المؤلمِ لا أدري تماماً كم عدد المراتِ التي شخَّصوا فيها مرَضهُ خطأً، لم أحصِ بِشكلٍ دقيقٍ العددَ النِّهائيَّ لكلِّ التَّشْخيصات أو

الاحتمالاتِ التي توصَّلوا إليها نتيجةَ بحثٍ وتفكيرٍ!!! أو ـ ربما ـ نتيجة تسرُّعٍ وتهاونٍ..

وكلُّ تشخيصٍ اتَّفقوا عليه ـ أمْ لم يتفقوا ـ كان محلَّ تجارب غذائيةٍ أو دوائيةٍ مخيفةٍ، بدءاً من حرمانِه للطعامِ أربعة أيامٍ مُتَواصلةٍ بسببِ إهمالٍ بيِّن وتكرارِ الإهمالِ دون بحثٍ أو تفكيرٍ بخطورةِ ذلكَ، ثمَّ تجربة أنواعٍ من الطعامِ المسلوقِ الذي لا يستسيغُه الإنسانُ صحيح البدنِ، فكيفَ إذا كان مريضاً لا يقوَى على تناولِ الطعامِ الشهيِّ اللَّذيذِ.. وانتهاءً بأدويةٍ لا حصرَ لها ولا عدد، حتى تشبَّعَ جِسمُه منها وتيبَّستْ أطرافُه، وأُعيقتْ حركتُه، وتحوَّلَ من بطلٍ رياضيٍّ مُتَميزٍ يحملُ الحزامَ الأسودَ في الكاراتيه إلى ما يُشبهُ الإنسان، بل أصبحَ هيكلاً عَظمياً نظيفاً من الشحمِ واللحمِ، صلب المفاصلِ، ثقيل الحركةِ.

وعندما تأتي محنةُ الأدويةِ الكثيرةِ، مُتَنوعة الألوانِ

والأحجامِ والأشكالِ، يُصبحُ تناولُها داءً فوقَ الداءِ نفسِه..

ومَا أدراكَ ما تِلكَ الأدوية ذات الطَّعمِ المرِّ والحادِّ، ولاسيما عندما أرغَموه على شربِ مادَّةٍ ذاتِ مذاقٍ لاذعٍ بدلاً من الأدويةِ الوريديةِ، سعياً منهم لإخراجِه من المُسْتَشفَى تخلُّصاً منه ومن همِّه، عِوضاً عنِ المسارعةِ إلى تغذيتِه بطريقةٍ صحيةٍ سليمةٍ، والبحث عن العلاجِ الشافي، خاصَّة أن طَبيبةَ التغذيةِ كانت تشتكي إلى الأبِ والأمِّ بسببِ عدمِ اكتراثِ الأطباءِ بالتعاونِ معها لكي تستطيعَ تنظيمَ غذاءٍ مناسبٍ له، وكانت تؤكِّدُ أن الأطباءَ لم يُبلغوها بطبيعةِ مرضِه، ولم يُنسِّقوا معها لتتمكَّن من وضعِ خطَّةٍ غذائيةٍ سليمةٍ، كما تستوجبُ حالة منير الصحِّية، لا في البدايةِ ولا في النهايةِ.

وواظبَ منير على شربِ تِلكَ المادةِ الكريهةِ لعدةِ أسابيعَ، على الرّغْمِ من عدمِ فائدتِها، إذ لم يكنْ

جسمه يمتصُّ كاملَ محتوياتِها كما كانتْ تظهِرُ التَّحاليل، فضلاً عن أنَّها كانت تزيدُ من شعوره بالغَثيان الشديدِ، وتزيدُ من عمليةِ الإرجاع التي كان يُعانيها . .

لتأتي بعد ذلكَ احتمالاتُ وجودِ سرطان، أو مرضٍ مناعيٍّ، أو نوعٍ من الالتهاباتِ المعويةِ، وصولاً إلى تشخيصٍ محتملٍ لورمٍ في البنكرياس . .

ثم داء الكرونز، وهو مرضٌ يُصيبُ الأمعاءَ . . ثُم ما يُعرفُ بحساسيَّة القمح، وَمَا رافقَ تِلكَ التَّشْخيصات من تشخيصاتٍ سابقةٍ ولاحقةٍ؛ من حقنٍ خطيرةٍ مثل التي تُستخدمُ في التصوير الإشعاعيِّ المُتَنوع، وخاصَّة الإشعاع النّووي الذي تكرَّر مِن دونِ سببٍ وجيهٍ، مما أدَّى إلى مضاعفاتٍ كثيرة، وذلكَ بعدَ مرورِ طَبِيبٍ زارَه مرةً واحدةً فقط ولم يكررِ الزيارةَ وهو الدكتور آميرال، حيثُ اقترحَ نوعاً من التصويرِ الإشعاعي يسمَّى

غاليوم، ويتطلّب عزلَ المريض فترة من الوقت بسببِ خطورة الإشعاع النووي.

علماً أن هذا الطَّبيب لم يعدْ للسؤالِ عنه مرةً ثانيةً، ألقَى اقتراحَه دونَ تدقيقٍ تفصيليٍّ في ملفٍّ منير، ثمَّ انطلقَ حتى دون أن يُلقي عليه تحيةَ الوداع، وربما لم يفتحِ الملفَّ على الإطلاقِ، ومِن دونِ أن يُلاحظَ لا هو ولا غيره من الأطباءِ المُتَابعين أن هذا المريضَ الصغيرَ أجرى الفحصَ نفسَه قبل فترةٍ وجيزةٍ، ونتائج الفحصِ السلبيةِ التي تبيِّن عدمَ وجود أورامٍ أو خلايا سرطانيةٍ يمكن أن تُظهرَها الصورةُ الموجودةُ في الملفِّ، ولأنه في الأساسِ ليس مريضه؛ فما فائدةُ أن يُرهقَ نفسَه بالبحثِ والتَّنقيبِ؟!

وإذا كان الأطباءُ الذين من المفترض أنه مريضُهم لم يلاحظوا ذلكَ، كما أنّهم لا يسألون عنه وعن تفاصيلِ ما يحدث ـ سابقاً ولاحقاً ـ فهل سيسألُ عنه

طَبِيبٌ مرَّ مرورَ الكرام، جاءَ ورحلَ حتى مِن دونِ أن يهتمَّ بأن يُلقيَ السلامَ في المجيء وفي المغادرة، بعدَ أن أوصَى بإجراءِ صورةٍ لا تُقدِّم جديداً ـ لكنَّها تؤخِّر ـ حيثُ انتظر الأطباءَ كلَّهم شهراً كاملاً حتى موعد الصورةِ، وكانتِ النتيجةُ: «لا شيء».

وهنا المصيبةُ التي تأتي وكأنَّها إحدى مهازلِ الدنيا الكبرى.. وكما قال الشاعرُ:

كُلُّ المَصَائِبِ قَدْ تَمُرُّ عَلَى الفَتَى
فَتَهونُ غَيْر شَمَاتَةِ الحُسَّادِ

وفي رواية «شماتة الأعداء»، وقد تكون في مثلِ حالنا روايةٌ جديدةٌ وهي: «شماتة الأطباء».. لكنَّني في الحقيقة «أُعيذها أقوالاً منهم صادقةً»، أن يكونوا قد شَمتوا به وبأهله بعد وفاته..

وكنتُ وكانوا كقولِ المُتَنبي لسيف الدولة الحمداني:

أُعِـيْـذُهـا نَـظَـراتٍ مِـنْـكَ صَـادِقَـةً
أَنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِيْمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ
وَمَـا انْـتِـفَـاعُ أَخِـي الـدُّنْـيَـا بِـنَـاظِـرِهِ
إِذَا اسْتَوَتْ عِـنْـدَهُ الأَنْـوارُ وَالـظُّـلَـمُ

وعلى الرّغْمِ من أنني لاحظتُ ذلكَ على بعضهم فأنكرتُه، فقد كان منهم من يحذِّرُ انتقالَه إلى مكان آخرَ خشيةَ كشفِ الأخطاءِ التي قاموا بها، نتيجة التكاسلِ التقليديِّ ـ ربما ـ والذي يمكنُ ملاحظته في بعضِ المستشفياتِ وفي أماكنَ مُتَفرِّقةٍ من العالمِ..

وليس ذلكَ حكراً على مكانٍ محدَّدٍ؛ فقد نجدُه في مستشفياتٍ خاصَّة مثلما نجدُه في مستشفياتٍ عموميةٍ، وربما يُخفي أحدُ الأطباء خطأَه ترجيحاً لمصلحتهِ الشَّخصيةِ، وحرصاً على مستقبلِه و«رزقه» كما يقولون، بغضّ النَّظر عن الضَّررِ الذي قد يُلحِقُ المريض وصحَّته.

ودليلُ ذلكَ لا يرقَى للشكِّ، حيثُ كانوا يرفضون مراراً وتكراراً إعطاءَ ما يثبتُ عجزَهم عن التَّشْخيص الصحيحِ والعلاجِ السليمِ، حتى قبلَ موتِه بسويعاتٍ معدوداتٍ، حيثُ كتبوا في إفادةٍ طبيةٍ طلبتها سفارةُ فرنسا لمنحِه تأشيرة الدُّخول:

«أُدخل المريضُ إلى المُسْتَشفَى بتاريخ (24 ديسمبر 2014م)، ولا يزالُ إلى الآن في المُسْتَشفَى للتَّشخيصِ والعلاجِ اللازم»..

ما عرقلَ حصوله على تِلكَ التأشيرةِ، فيما كانتِ السفارةُ تطلبُ ما يثبتُ أن الأطباءَ عجزوا عن التَّشْخيصِ والعلاج..

ومثله أيضاً طلبٌ مشابهٌ من مكتبِ مسؤولٍ كبيرٍ.. لكنَّهم بدلاً من أن يتعاونوا معه عرقلوا السَّفر..

الفتى في الواقعِ كان في وضعٍ بائسٍ، حزين ومؤلم لكل من رآه، فكيف ينتظرون شهراً كاملاً

لتُجرى له صورةٌ اعتقدوا في لحظة ما أنها مهمَّة؟؟؟!!!

أو هكذا تهيَّأ للدكتور آميرال..

على الرّغْمِ من أن الأطباءَ الآخرين رأوْا أنها صورةٌ غير مهمَّة حسبَ تعبيرهم، خاصَّة أنهم اكتشفوا بعدَ ذلكَ أنه كانَ قد أجراها سابقاً، قبلَ دخوله المُسْتَشفَى، فضلاً عن أن المادةَ التي سيأخذها في الدم قد تؤثرُ عليه مع ضعفهِ الرَّاهنِ..

لكنَّ أحداً لم يهتمَّ بذلكَ، ولا بكلِّ الصَّيحات والتَّنبيهات التي كان يردِّدها الأبُ والأم، وكأنهما ليس لهما الحقّ بالتَّحدث أو التَّعليق على ما يَجري، حتى الخطأ الجسيم عليهما السُّكوت عنه!!!

بل أكثر من ذلكَ؛ عليهما قبول الإهمالِ فضلاً عن الخطأِ وعدمِ الاعتراضِ عليهما، واعتبارهما شيئاً طبيعياً، على الرّغْمِ من أن هذا الإهمالَ وذلكَ الخطأَ

أمران شنيعان جداً.. لا يقبلهما الطَّبيب المخلصُ الذي يليقُ به اللونُ الأبيضُ.. مهما كانتِ الظروفُ.. أما الطَّبيب الذي «لا يليقُ به اللونُ الأبيضُ»؛ فلنْ يُعجبهُ هذا الكلام..

ففي ليلةٍ من ليالي الشهرِ الأولِ من العامِ الجديدِ تمَّ حقنُ منير بحقنةٍ «مجهولة الهوية» في الرَّقبة، ولم يكن هناك سببٌ واضحٌ لذلكَ عنده..

دخل الممرِّض إلى غرفة منير وكان ينامُ وحده في الأيام الأولى لإقامته في المُسْتَشفَى، فأيقظه:

«منير.. منير.. هيا انهض! الطَّبيب كتبَ لك حقنةً حان وقتُها»..

«ماذا؟؟!! حقنةٌ..! الآن..! في منتصفِ الليل؟!!».

لم يُدرك منير ما الذي يحدثُ في بدايةِ الأمرِ، بسببِ الوقتِ المُتَأخرِ، فقد كان بين النومِ

والاستيقاظِ، ولم يكن يتوقعُ أن يكونَ مكان الحقنةِ في وريدِ الرقبةِ..

وكانَ لهذه الحقنةِ تأثيرٌ كبيرٌ على إحساسه ومزاجه، حيثُ شعر بخوفٍ شديدٍ لا يُدانيه خوفٌ.. قضى ليله يتساءلُ عن أسبابِ هذه الحقنةِ، وَمَا الذي دعا الأطباءُ إلى هذهِ الخطوةِ الغريبةِ وغير المفهومةِ؟!!

الإنسانُ الراشدُ قد يشعرُ بالاضطرابِ، ويتأذى نفسياً من مجردِ التفكيرِ بأنه سوف يُحقنُ في وريدِ الرقبةِ مِن دونِ سابقِ إنذارٍ، فكيف ونحن أمام غلامٍ صغيرٍ؟؟؟!!!

في تِلكَ الليلةِ المؤرقةِ أعرض النومُ عن عينيهِ ونأى، هجرهُ بجفاءٍ، كان كلُّ شيءٍ تحت سقفِ المُسْتَشفَى يهوى المجافاةَ؛ حتى النوم..

أمضى ليلَه يتجافَى جانباه عن المضجعِ حتى اكتَوى من نار الأرق..

سألَ ربه الرحمةَ والخلاصَ من الداءِ والبلاءِ قبل الدواءِ، هجرَ النومَ والاضطجاعَ بسلام، فهو لن يَستَطيعَ الاستقرارَ بأمن واطمئنان على فراشه الأبيض، خشيةَ دخول ممرض آخرَ بإبرة أخرى تصبُّ جامَّ حِمَمها في وريدٍ آخرَ..

ومرَّتْ عليه ساعاتٌ طويلةٌ مثل الدهر.. ثقيلاتٌ مثل جبلٍ..

كانَ يتضرّعُ إلى الله تعالى كي يمضيَ الوقتُ سريعاً، مُتَرقِّباً طلوعَ الفجر قبلَ أوانِه.. لكنَّ شيئاً لا ينضبطُ في وَقتهِ، ولا يتخلَّفُ عن الحضورِ في موعِده المحدَّدِ، كما ينضبطُ الفجرُ في توقيته.. ومثله: «الموت».

وفي الصباحِ الباكرِ، وبَعد مجيءِ الوالدينِ إلى المُسْتَشفَى ـ إذ لم تكن حالُه في البدايةِ تتطلّب بقاءهما أو بقاء أحدِهما معه طوال الليلِ ـ أبلغهما منير بما

حدث، فاستغربَ الأبُ كما استغربتِ الأم، لم يخبرهما أحدٌ بهذه الحقنةِ المفاجئةِ، وفي الرقبةِ بالذاتِ!!

فما هو السببُ الذي طرأ واستدعَى أن يقرِّر الطَّبيب له حقنةً ليلية مِن دونِ أن ينتظرَ حتى الصباحِ؟؟!!

وبعد بحثٍ وتدقيقٍ، وسؤال الطَّبيب المناوب الدكتور نوفل؛ تبيَّنَ أن الحقنةَ كانت في طريقها إلى غرفة مريضٍ آخرَ، ولكنَّها ضلَّت طريقها بقدرة قادرٍ.. وتوجَّهت إلى غرفة منير.

لم يكنِ الدكتور نوفل ليقول الحقيقةَ ويعترف بهذا الخطإِ لولا أنَّ الأم رَأتْ بعينيها كما رأى الأبُ أن في ملفِّ منير ورقةَ تعليماتٍ باسم مريضٍ آخرَ وفيها طلب حقنةٍ خاصَّة بذلكَ المريضِ.. والممرِّض قرأ

التعليماتِ في ملفِّ منير، وتوجَّه حسبَ التعليماتِ لينفذَ الأوامرَ كما هي!!

بدأَ الدكتور نوفل يبرِّرُ هذا الخطأَ بحججٍ واهيةٍ، وقال:

«لا أدري من وضعَ ورقةَ الطَّبيب التي تطلبُ من الممرِّض حقنَ المريضِ الآخرِ بتِلكَ الحقنةِ في ملفِّ منير بالخطإِ!!».

نظراتُ الأم كانتْ حائرةً ومندهشةً، لم يكنْ همُّها هذا التبرير..

كانتْ قلقةً جدّاً على ولدِها المسكينِ وخائفةً من مضاعفاتٍ سلبيّةٍ:

«مستحيل! كيف تُعطونَه حقنةً في رقبته بهذه البساطةِ؟! وهل جسمُه قادرٌ على أن يتحمَّل مثل هذا الخطأ؟؟!!».

الدكتور نوفل أخذَ الأمرَ ببساطةٍ شديدةٍ، وكأنَّ

الأمرَ مجرد دُعابةٍ، أو هي مثل شربِ الماءِ، شربها ابنها المسكينُ ماءً زلالاً، ولن يتأثَّرَ بها:

ـ «على أيٍّ حالٍ، هي حقنةٌ غير مضرَّة».

الأم محتجَّة:

ـ «أريدُ على الأقلِّ أن أعرفَ ما الذي كان في داخلِ هذه الحقنةِ، وماذا لو حدثتْ مضاعفاتٌ؟!!».

«لا تقلقي.. لا يوجدُ شيءٌ يدعو للقلقِ، الحقنةُ خاصَّةٌ بمريضٍ مصابٍ بداءِ السكري، ويُعاني من غيبوبة مستمرَّة.. لكنَّها لا تضرُّ الإنسانَ السليم».

تكلّم الدكتور نوفل وكأنَّ ما حدثَ شيءٌ طبيعي جداً ومُتَوقَّع، ولا ينقصُ من قيمةِ الأطباءِ شيئاً..

فيا تُرى لو كان ذلكَ الخطأ خطأ الممرِّض؛ هل كانوا سيسكتون ويبحثون عن المبرِّرات كما فعل الدكتور نوفل وسائر الأطباءِ فيما بعد!! أم سيكونُ لهم

موقفٌ مختلفٌ، خاصَّة مع اكتشافِ الأم والأبِ لهذه الحقيقةِ المرَّة؟!

الخطأُ هنا خطأُ طَبِيبٍ وضعَ الورقةَ بنفسه في ملفِّ منير ثم ذهبَ ونامَ مطمئنّ البالِ. لذا على المريضِ وأسرته أن يتقبلوا ذلكَ بكلِّ احترام وإذعان، وأن يفهموا أنه أمرٌ طبيعي ومعتاد، وليس عليهم أن يعترضوا طالما أنهم وافقوا على أن يكون مريضهم في هذه المُسْتَشفَى.. وكأن موافقتهم خيار!!

«هل الحقنةُ هذه إذا كانتْ لا تضرُّ بالإنسانِ السليمِ يعني أنها أمرٌ عادي يمكنُ أن نعطيَها لشخص ليس بحاجةٍ إليها؟؟؟!!! والله إن هذا لشيء عجيب.. كيف نقولُ إنها لا تؤثرُ.. خاصَّة إذا أعطيتْ لطفلٍ مريضٍ.. والأكثر خطورة أنه في حالٍ صعبةٍ مثل منير».

قال الأب ذلكَ باستغرابٍ شديدٍ معترضاً على قول

الدكتور نوفل في عبارته الواضحة: «إنها لا تضر الإنسان السليم». .

وأضاف: «هل منير الآن في وضعٍ صحي سليمٍ، هل بإمكان جسده الضعيف أن يتحمَّل الأخطاءَ؟؟!!».

الدكتور نوفل أرادَ أن ينهيَ الحوارَ. . فمضَى في طريقه مُتَعذّراً بانشغالِه لكثرةِ المرضى، وهو يقول:

«أخبرتُكم أن الأمرَ بسيطٌ ولا داعيَ للقلق. . الأمرُ انتهى. . انتهى، لا توجدُ أية مضاعفاتٍ تُذكرُ، ولو كان هناك تأثيرٌ كان لا بدَّ أن يظهرَ عليه في الساعاتِ الماضيةِ. . قولوا: الحمدُ للهِ».

ثم اختفَى!!

فقالَ الأب بكلِّ خشوع وبصوتٍ منخفضٍ:

«الحمدُ للهِ».

ثم تابعَ بصوتٍ منخفضٍ أكثر:

«لا حول ولا قوة إلَّا بالله.. لا حول ولا قوَّة إلا بالله.. حسبُنا الله ونعم الوكيل».

لم يستطعِ الأبُ أن يحتجّ أكثرَ من ذلكَ.. بلعَ الموسى كما يقولون وسكتَ.. لكنَّه قالَ لأم منير لاحقاً بعدَ فوات الأوان:

«لو كنتُ أدري أن هذا الخطأ سيتكررُ كثيراً نتيجة الإهمال؛ ربما كنتُ انتفضتُ منذُ البِدايةِ، وحملتُ ابني وأعدتُه إلى البيت معززاً مكرماً، حتى لا أعرضه لمثل هذا الإهمال المعيب والذي يعتبرُه بعضُ الأطباء أمراً عادياً، أو كنتُ نقلتُه إلى مُسْتَشفَى آخرَ ما دام قادراً على الحركة بِشكلٍ شبه طبيعي»..

ولم ينفعِ احتجاجُ الأم ولا احتجاجُ الأب في منعَ تكرار الخطأ!! فقد تكرر في اليوم نفسه بِشكلٍ أشد استفزازاً، وتمَّ إعطاءُ هذا الغلام المهذب كيساً كبيراً في الوريد يحتوي على مادة سائلة لونها داكن.. وتبين

لاحقاً أن الكيس يحتوي على مادة الحديد، وكان من المفترض أن يأخذها مريضٌ آخر مثل الحقنة السابقة. .

أليس في ذلكَ استهتارٌ بحياة الناس؛ المريضُ الذي يَحْتاجُ الحقنة! والآخرُ الذي يَحْتاجُ كيس الحديد! فضلاً عن المريض الضحيةِ الذي أخذَ العلاجَين معاً وهو لا يَحْتاجُهما. . ومن يدري؛ لعلَّ هنالك أكياساً وحقناً أخرى ذهبتْ إلى منير وإلى غيره من المرضى وهي ليست لهم!!!

وكان من الطبيعي أن يعترضَ الأب وأن تعترضَ الأم بعد ذلكَ بصوتٍ مسموعٍ، لتكرارِ هذه الحالِ؛ وخشية من أن تتكرَّرَ الأخطاءُ مرةً ثالثةً ومن ثم رابعةً وخامسةً، وأن تكونَ مثل تِلكَ الأخطاءِ الخطيرةِ التي تتداولُها الصحفُ من حينٍ لآخرَ، وتشكِّل خطراً فعلياً يهدِّد حياةَ ابنهما، طالما ليستْ هنالك محاسبة وليس

هنالك وازعٌ ولا مانع.. فالأمرُ مُتَاحٌ وسهلٌ، وَمَا دامت الأمورُ بهذا الشكلِ فعليكَ أن تتوقعَ ما ليسَ مُتَوقَّعاً.

ويا ليتَ الأمرَ اقتصرَ على ما حدثَ!!

بل يا ليتَهما قرَّرا بعد هذين الخطأين وفي اليومِ نفسِه أن يُخرِجا ابنَهما من المُسْتَشفَى.. وينقُلاه إلى مكان آخرَ.. لأن الشكوى لم تكن تفيدُ.. كما أنّ الأخطاءَ الناجمةَ عن الإهمالِ والمواقفِ المعاندةِ تكررتْ كثيراً.. حتى مضَى الحالُ بهذا الصَّبي إلى القبرِ.

وكنتُ قد قرأتُ يوماً مقالاً يُعلِّق على الأخطاءِ الطبِّية يقولُ:

«أستغربُ كيف يُسجنُ المهندسُ في حال سقوط مبناهُ مثلاً كونه المسؤول الاعتباري عن هذا المبنى، أو يُعفى القبطانُ من الخدمة إذا ترك سفينته عند

الخطر، أو تُغلقُ بقالةٌ وجدوا فيها علبةَ طعام فاسدٍ بسبب سوءِ تخزينٍ غير مسؤول عنه صاحب البقالة، فهو اشتراها بهذا الشكلِ ولم يكن يعلمُ ما في داخلها؛ ولا يُسجنُ طَبِيبٌ ثبتَ تقصيرُه في حقِّ أحدِ المرضى، حتى لو لم يتسببْ هذا التقصيرُ في وفاته».

ويُتابعُ الكاتبُ قائلاً بكلِّ أسى:

«أظنُّ أن النِّظام الطِّبيّ في عالمنا العربي يتعاملُ مع الطَّبيب وكأنه خارج إطار المساءلةِ والمسؤوليَّة.. ونحن هنا لا نتحدثُ عن سببٍ واحدٍ، فهناك مجموعةُ أسبابٍ؛ منها ما يتعلَّق بكفاءة الطَّبيب، ومنها ما يتعلَّق بضميره المهني، وإنسانيّته في التَّعامُل مع هكذا حالات، كذلكَ الإجراءات الإدارية التي لا تقدر أهميَّة كلّ دقيقة من عمر المريض ورحلة العلاج، فكيف إذا كان هذا المرض معقّداً أو لا يسهل تشخيصه؟».

وقرأت أيضاً: «وكما أنّ الأطباء مسؤولون، فإن النِّظام الإداري في المستشفيات مسؤولٌ أيضاً، فعندما يغيب دور هذا النِّظام أو يختزل بسلسلة إجراءات روتينيّة لا ترقى إلى اعتبار أن كلَّ مريض أمانة مسؤولٌ عنها النِّظام الطِّبيّ بأكمله؛ فلن يكونَ هناك تقدم في مستوى الطِّب، أو تراجع في مُعدل الوفيات الناتجة عن الأخطاءِ الطبية، ولعلَّ التحقيقَ والمساءلةَ هما العاملان الوحيدان اللَّذان يرفعان من مستوى المسؤوليَّة لدى الأطباءِ، لتفادي هذه التَّجارب المؤلمةِ، بغضِّ النَّظر عن أي مسائل أخرى، وعلى رأسها خشية الله ثم المسؤوليَّة المهنيَّة والضَّمير الإنسانيّ».

وفي موازاةِ ذلكَ نرى في واقعنا أنه محظورٌ عليكَ أن تحتجَّ إلا بقدر محدودٍ جداً، وإذا تجاوزتَ الحدَّ بمستوى شفهي بسيط ستقعُ عليك غرامةٌ كبيرة، وربما

السجن بـ«جريمة» إهانةِ طَبِيب.. بغضِّ النَّظر عمّا يحدثُ للمريضِ..

أما إذا تجرّأتَ وقلتَ لأحد منهم: «أخطأتَ» أو «أهملتَ»، عندها سيظهرُ بعضُهم على حقيقتِهِ، وتخرجُ الأظافرُ والأنيابُ المستترةُ خلف ابتسامات صفراءَ وستائرَ رقيقةٍ واهيةٍ، وسرعانَ ما تتبدَّدُ المظاهرُ الكاذبةُ أمام أي مواجهة ولو بسيطة، ويتركونك مِن دونِ طَبِيب معظم الوقت، أو ربما كلّ الوقت، ويتخلّون عنك عندما تكونُ في أمسِّ الحاجة إليهم، ويرفضون التَّعامُل معك إلا باستعلاءٍ، وبأدنى قدرٍ ممكنٍ.

هم يعلمون أن القانون يَحميهم في وجهِ أيِّ «إساءة» تلحقُ بهم، بل ستدرُّ الإساءةُ عليهم تعويضاً مالياً مجزياً يفرضُه القانونُ.. كما أنّهم في الأحوال الطبيعية قد يرفُضون التواصل مع المريضِ وأهلِهِ خارج أوقاتِ الدوامِ الرسمي، وربما أثناء الدوامِ، وإن كانتِ

الحالةُ تستوجبُ ذلكَ، كما حدثَ مع منير في فترةٍ لاحقةٍ..

وكأنَّ أيَّ اعتراضٍ أو تشكيكٍ أو مناقشةٍ يُمثِّلُ أشكالاً مُتَعدِّدةً من الجرائمِ الكبرى التي يقترفُها المريضُ وأحباؤُه، والتي لا يمكنُ أن تُغتفر، وعليهم أن يتحمَّلوا وزرَ الخطأ ـ وإنْ كان مُميتاً ـ بصمتٍ وإجلالٍ، لأن الصَّمْتَ عن الخطأ فضيلةٌ ورفضه جريمةٌ.. لذا عليهم أن يتقبَّلوا عن طيبِ خاطرٍ كلَّ استفزازٍ أو احتقارٍ، أو أي خطأ طبِّي ناتجٍ عن إهمالٍ، ذنبُهم في ذلكَ أنهم ارتضوا اللُّجوءَ إلى مُسْتَشفًى عموميٍّ في بلدٍ يتكلّم أهلُه العربيةَ.

وأذكرُ أيضاً أن صديقاً لأبي منير يُدعى صالحاً، كان يزورُ منيراً بانتظامٍ يوماً بعد يومٍ، وأخبرَه مرَّة قصةً طريفةً حدثتْ معه يومَ كانَ طالباً جامعيّاً في فرنسا، ويروي صالحٌ أنه وفيما كان مع صديقٍ له من الطلابِ

المصريِّين يستقلان حافلةً للنقلِ العام متَّجهين لأحدِ الأماكنِ؛ أُغميَ على صديقِه جراءَ نوبةِ سكر، فتمَّ نقلُه إلى المُسْتَشفَى على عجلٍ حيثُ عولجَ بِشكلٍ سريعٍ وعادَ إلى حالِهِ الطبيعيةِ، فقدْ كانتِ الإغماءةُ بسيطةً عابرةً، وبعدَ التأكدِ من سلامتِهِ سَمحوا له بالمغادرةِ.

وكانَ المُسْتَشفَى عبارةً عن مركزٍ جامعي يفترضُ أنَّه شبيهٌ بالمَكانِ الذي «يعالجُ» فيه الغلامُ الصَّالحُ منير، فعرضَ عليه الأطباءُ البقاءَ لإجراءِ بعضِ التَّحاليل والفحوصاتِ والأبحاثِ، باعتباره شاباً مصرياً يافعاً، و«من أحفاد الفراعنة» ـ كما كانوا يقولون له ـ فسرَّه ذلكَ، وخصوصاً لأنه سيجري فحوصات شاملةً ومِن دونِ أيّ نفقاتٍ..

وكانت سعادةُ الأطباء بموافقتِهِ أكثر من سعادتِهِ هو.. فكرَّموه وشكروه، وأبدوا له كلَّ تقديرٍ واحترامٍ،

وقضى في المُسْتَشفَى عدَّة أيام، كان فيها كما قالَ صديقُه صالحٌ:

«في غاية الانبساطِ والانشراحِ والراحةِ، وكأنه في منتجعٍ أو فندقٍ من خمسِ نجومٍ».

وكنتُ أقارنُ ما بين الموقفَين وأتحسَّرُ، خاصَّة بعد أن أدركَ الوالدان في تِلكَ الفترةِ أن بقاءَ منير في هذا المكانِ خطأٌ جسيمٌ، لكن لم تكن لديهما حيلةٌ أخرى، لأن منيراً لم يعد بإمكانه التحرُّك والانتقال بحريةٍ من مكانهِ، فقد أصبحَ جسمُه هيكلاً عظمياً بلا شحمٍ ولا لحمٍ، وعمليةُ نقله إلى أي مكانٍ تتطلّب تحضيراتٍ خاصَّة..

كما أنّ تِلكَ العمليةَ تَحتاجُ أموالاً كثيرةً، ولا يمكنُ لوالدَين في مكانِهما تحمل نفقاتها، خاصَّة بعدَ أن أنفَقا كلَّ ما يملكان خلالَ الفترةِ الماضيةِ..

لكنَّهما؛ لم يفقدا الأملَ، بل كان لدَيهما أملٌ كبيرٌ

بأن يتمكَّن الأطباء من اكتشاف التَّشْخيص الحقيقي للمرضِ. .

وتسلَّحَ الوالدان في بدايةِ المأساةِ بالصَّمْت البالغِ ـ باستثناءِ حالاتٍ محدودة ـ وكانت نقاشاتُهما مع الأطباءِ محدودةً جداً. .

وامتدَّ الصَّمْت فترةً واسعة إزاء كلٍّ هذه الأخطاءِ الجسيمة المروِّعةِ، وهي في الواقعِ ليستْ أخطاء عاديةً يمكنُ أن يتفهَّمها الناس. .

لكن ماذا يفعلُ الغريقُ في البحر غير أن يتمسَّك «بقشَّة» إن لم يجدْ غيرَها؟؟؟!!

وعندما طفحَ السيلُ الزبى، وبلغتِ القلوب الحناجر قرَّر الوالدان استنكار ما يحدث، والاعتراض عما يشاهدانه من أعمال أسفرتْ عن تدهورِ صحة ولدهما بِشكلٍ لا يوصفُ، جُوبِهَ استنكارُهما بحدَّة بالغةٍ. .

وتلا ذلكَ ازديادُ تجاهلِ بعضِ الأطباءِ لهم، فيما ابتعد أطباء آخرون بِشكلٍ كاملٍ، وكأن الأمرَ مجرد مسألة عنفوان مركب، أو عزَّة نفس مفهومة بِالخطأِ، أو إهانة شخصيةٍ وإن كانتْ غير مقصودةٍ، على الرّغْمِ من أنه لم يُقدمْ أحدٌ على الإساءةِ إليهم إساءةً مباشرةً كأشخاصٍ..

فإذا كانوا هم ينظرون للمريضِ كرقمٍ، ويريدون من المريضِ وأهله قبولَ ذلكَ مِن دونِ مناقشةٍ؛ فلماذا لا يقبلونَ هم أيضاً من المريضِ وأهلِ المريضِ أن ينظروا إليهم كرقمٍ أيضاً؟!!

وهل الأم والأبُ يشغلُهما في هذا الوقت بالذات افتعال المُشكلات؟؟؟!!

أو يهمُّهما الآن الشخصَ أم الطَّبيب تحديداً؟!!!

وفي النِّهاية؛ لماذا لم ينظروا إلى المريضِ كقضيةٍ إنسانيّةٍ؟؟!!

والعقلُ يقولُ: حتى وإن كانتْ هناك إساءةٌ فعليةٌ من وليّ أمرِ المريضِ تجاه الطَّبيبِ؛ فإنَّ على الطَّبيبِ أن يقومَ بدورهِ الإنسانيّ بغضّ النَّظرِ عن أيّ شيءٍ آخرَ.. ويترك محاسبة الوالدين على خطئهما لوقت آخرَ، مِن دونِ أنْ ينتقم من المريضِ نفسه..

لكن ما حدث كان عكس ذلكَ!!

كأنهم كانوا يريدون أنْ يقولوا لمن يعلم ولمن لا يعلم: إن من حق الطَّبيب على أهل المريض جميعاً، بل من الواجب عليهم أن يكونوا كالأصنام؛ عُمياً وصُماً وبُكماً، لا يُبصرون شيئاً حتى لو كان بحجمِ الفيل، ولا يسمعون شيئاً حتى وإن كان كَضربِ الطُّبول.. ولا ينبسون بكلمةٍ، أو إشارةٍ وإن كانتْ حركةَ عيْنٍ اعتراضيةٍ واحدةٍ.

وإذا تكلّم الوالدان فليس مسموحاً لهما أن يناقشا

أو يرفضا، تعريضاً أو تلميحاً، فقط يمكنُهما أن يتكلَّما بالفضائل والمحاسنِ ولو اختلاقاً..

وإذا رَأَيا أو سَمعا فليس عليهما أن يَريا أو يَسمعا غير «الجمال الرائع» فقط، ولو كان مصطنعاً على يدِ طَبِيبٍ فنانٍ ماهرٍ..

2

صُوْرَةُ الغَاليُوم

ـ لستُ أدري صيغةَ القَسَم الذي أقسَمَه هؤلاء الأطباءُ.. على العموم؛ هذا الأمرُ لا يعنيني.

ـ كان من المفترضِ أن يكون مع أقرانِه يلهو ويمرحُ ويحلمُ بالمستقبل، لكنَّه عوضاً عن ذلكَ كان يصارعُ المرضَ بإيمان وصبرٍ لا يلينُ.

ـ أطباءُ الباطنيَّة أبدوا استهانةً بها وبأهميَّتها بالنِّسبة لحالِ منير، ورأوْا أنها لن تُقدمَ جديداً، ومع ذلكَ تمسَّكوا بها وكأنَّها ملاذُهم الأخيرُ.

ـ أصبح التَّعامُل معه جافّاً إجمالاً، وكادَ الاهتمامُ به يصلُ إلى درجة التجمُّد شبه التامِّ، لولا بعضُ المعاينات البسيطةِ..

ـ الدكتور مسرور قرَّر إخراجَه من المُسْتَشفَى رغم سوءِ حاله، وأرادَ تحويلَه لمريضٍ خارجي دونَ اعتبار لما سيتعرضُ له من أخطارٍ. .

❊ ❊ ❊

أذكرُ جيداً أنه عندما كان منير في جناح الباطنيَّة جاء الدكتور آميرال ـ وهو طَبِيبٌ في قسم الجهازِ الهضمي ـ وأجرى له فحصاً سريعاً، ثم اقترحَ إجراءَ هذه الصورة، مِن دونِ أن يُبدي كبيرَ اهتمام. . لكنَّ الأطباءَ المشرفين اعتبروا هذا الاقتراحَ لأولِ وهلةٍ وكأنه الشيءُ المفقودُ!!

وتمَّ تحديدُ موعدٍ لها، ولكن متى؟؟؟!!!

بعد نحو شهرٍ كامل بسبب زحمةِ المواعيد!! وهي تُجرى في مُسْتَشفَى آخرَ. .

أطباءُ الباطنيَّةِ أبدوا لاحقاً استهانةً بها وبأهميَّتها بالنِّسبة لحالِ منير، ورأوْا أنها لن تُقدمَ جديداً، ومع

ذلكَ تمسَّكوا بها وكأنَّها ملاذهم الأخير. وقد استغربَ الدكتور مسرور، وهو من أبرزِ الأطباء المشرفين على جناحِ الباطنيَّة، وقال: «لماذا يُريدون هذه الصورةَ ولا فائدةَ منها ولا ضرورةَ لها؟؟!!».

وكذلكَ قالَ الدكتور عبد العظيم طَبِيبُ الغدد والهرمونات، خاصَّة أن الأخيرَ اكتشفَ دونَ غيره من الأطباء بعدَ أن راجعَ ملفَّ منير مراجعةً دقيقة أنه تمَّ إجراءُ مثيل لهذه الصورةِ سابقاً، والتي لم أكن أعلمُ بخطورتها، وكانت هذه أول مرة أسمعُ بها، وكان على منير الانتظار نحو شهر كاملٍ حتى يحينَ موعدُها، وكأن المرضَ الذي يأكلُ جسدَه سينتظرُ هو أيضاً!!

وفي هذه الأثناءِ أصبحَ التَّعامُلُ معه جافّاً إجمالاً، وكادَ الاهتمامُ به يصلُ إلى درجةِ التجمُّد شبه التامِّ، لولا بعضُ المعايناتِ البسيطةِ..

ثم طرأتْ مُشكِلة جديدةٌ بعدَ أن طرحَ الدكتور

مسرور فكرةَ إخراجِ منير من المُسْتَشفَى، فتردَّت حالُه الصحيَّة أكثر بعد وقفِ جميعِ المحاليلِ الوريديةِ فترةَ أسبوع تقريباً، والاستعاضة عنها بأدويةٍ عن طريقِ الفم، وكانوا يُجرون تجربةً ليعرفوا ما إذا كان سيتقبَّلُ الأدويةَ غير الوريديةِ ويكتفي بها..

علماً أنهم جميعاً كانوا على علمٍ بأن أمعاءَ هذا الغلامِ لم تكن تمتصُّ الغذاءَ ولا الدواء.

وسألتِ الأم الطَّبيبةَ المسؤولةَ في جناح الباطنيَّةِ الدكتورة أماني التي وافقتِ الدكتورَ مسرور على رأيه:

«كيف ستخرجونَه وهو في هذا الوضعِ، وَمَا زالَ يراجعُ الطعامَ، كما أنَّ الإسهالَ مُتَواصلٌ؟!».

فأجابتْ بسؤالٍ عن السؤالِ.. وبكلِّ بساطة:

«لو أبقيناهُ في المُسْتَشفَى هل سيتوقَّفُ الإسهالُ؟!».

ولولا رفضُ طَبِيبِ الكلى الدكتور جاسر لاضطرَّ

منير إلى المغادرةِ، على الرّغْمِ مما كان يعانيه من مخاطرَ . .

ويا ليتَه خرجَ!!!

لأن مسلسلَ المخاطر التي مرَّ بها في المُسْتَشفَى كانتْ أشدّ ضرراً من مثيلاتها التي كان من المحتملِ أنْ يمرَّ بها خارج المُسْتَشفَى.

وكان أبو منير في هذه الأثناءِ يسألُ الأطباءَ بِشكلٍ مُتَكرِّر عمّا إذا كان منير سيتحمَّل حقنةَ الإشعاع، وذلكَ بسببِ صحتِه الواهنةِ . . لكنَّهم استبعدوا حدوث أيِّ ضررٍ من ورائها، دونَ أن يحسبوا حساباً للضعفِ الذي يعانيه . .

وبعد شهرٍ تقريباً، وفي الموعدِ المحددِ؛ نُقلَ منير في سيارةِ إسعاف إلى مركزِ التصويرِ الواقعِ في مكانٍ بعيدٍ عن المُسْتَشفَى، وعلمتُ بعد عودتِه إلى غرفتِه مساء اليومِ نفسِه أنه وإثر حقنِه بالإبرةِ التي تحتوي على

مادةٍ مشعةٍ تمَّ عزلُه فترةً من الوقت، وأنه أصيب بإنهاكٍ شديدٍ، لم يستطعْ معه حتى أن يتحكَّمَ بيدَيه ليرفعَ زجاجةَ الماء إلى فمه، ثم تراجعتْ صحتُه في الأيام التاليةِ أكثر فأكثر، ولم تُثبتِ الصورة أي شيءٍ مفيدٍ.

وبعدها مباشرةً، وبعد أن تبيَّنَ للجميعِ أن هذه الصورةَ لم تكن ضروريةً ولا ملحَّة على الإطلاق، كما كانوا يعتقدون سرّاً وعلانيةً، وأنه تمَّتْ إضاعة شهر كامل مِن دونِ فائدة؛ تمَّ حقنُه بإبرة (أوكتريوتايد) الخاصَّة بالورمِ المشتبه به في البنكرياس، بمُتابَعَة وإشرافِ طَبِيبِ الغددِ الدكتور عبد العظيم، لاحتمالِ وجودِ ورم قد يكونُ مسبباً لكل هذه المشكلاتِ التي يعانيها أو لبعضِها، فيما كان جسدُه يتلقَّى الدواءَ إثر الدواءِ على سبيلِ التَّجاربِ أو عن طريقِ التَّشْخيصِ الخاطئِ، أو بسببِ الإهمالِ.

وهذا الدواءُ الذي تقرَّرَ قبل صورة الغاليوم لم يكن

ممكناً حقنه به قبل إجراءِ الصورةِ كما قال الأطباءُ، وهو هرمونٌ يُستخدمُ لتخفيفِ نوباتِ الإسهالِ المائي المسببِ بورمٍ سرطاني، على الرّغْمِ من استبعادِ هذا المرضِ المخيفِ منذُ البِدايةِ.. فقد كان الدكتور عبد العظيم يقول إن منظرَ منير يوحي بأنه مصابٌ بالسرطان، لكن كلَّ التحليلاتِ لم تثبتْ وجود خليةٍ سرطانيةٍ واحدةٍ..

وكانتْ أم منير كلَّما سمعت بمثلِ هذا الكلامِ تحمدُ الله على أنه ليس سرطاناً، مِن دونِ أن تحسبَ حساباً لما يخفي القدرُ من إساءاتِ البشرِ.

وأذكرُ أن أم منير التقتِ الدكتور آميرال يوماً في أحدِ ممراتِ المُسْتَشفَى، فاقتربتْ منه وسألتْه عن ابنها، وتبيَّن أنه لا يعرفُ شيئاً عنه، ولم يكن يذكرُه، مع أنه هو الذي أمرَ له بنوعٍ من التصويرِ الإشعاعي الخطيرِ، على الرّغْمِ من حالِه التي باتَ يعرفها كثيرٌ من

العمالِ والممرِّضين والإداريين في المُسْتَشفَى، وكانَ من المفترضِ على الأقلِّ أن يُتابعَ اقتراحَه، إن لم يكن يرغبُ بمُتابَعَة المريضِ.

وتمَّ حقنُ منير بإبرةِ (أوكتريوتايد) التي كانتْ هي أيضاً على سبيلِ التجربةِ، وكان جسدُه ما زالَ مُتَأثراً بصورةِ الإشعاعِ النووي التي لم يكنْ لها برأي الأطباءِ أنفسهم أي فائدةٍ تُذكر، بل هي أكَّدت ما هو مؤكَّد فقط.

وبعد نحو شهر خفَّ الإسهالُ قليلاً وأصبحَ أكثر تماسكاً، غير أن الأطباءَ لم يُعيروا ذلكَ أي اهتمامٍ، ولم يبنوا على هذا التحسُّن، واعتبروا أن هذا العلاجَ «التجربة» لم يعطِ أي نتيجةٍ إيجابيةٍ، وقاموا بتغييرهِ بعد تغييرِ التَّشْخيصِ، واتجهوا نحو مرضِ كرونز، الذي تمَّ استبعادُه سابقاً من جانبهم ومن جانبِ أطباء آخرين، جراء العديدِ من العيناتِ التي أخذتْ من الأمعاءِ على فتراتٍ مُتَقاربةٍ، لكنَّهم فجأةً تراجعوا عن رأيهم وقرَّروا أنه:

«التَّشْخيصُ الأكيدُ ولا شكَّ في ذلكَ».

وأشدِّد على جملة: «لا شكَّ في ذلكَ»..

على الرّغْمِ من أن كلَّ ما سبقَ كان فشلاً ذريعاً وخطأً مريعاً.. وإساءةً للإنسانيَّة بكلِّ لغاتِها..

وعلى الفور تمَّ حقنُه بكمياتٍ وفيرةٍ من الكورتيزون مِن دونِ التوثُّق من صحَّة التَّشْخيصِ، على الرّغْمِ من فشلِ كلِّ التَّجاربِ والتَّشْخيصاتِ السّابقةِ، كما أنّهم لم يتحققوا من مدى تحمُّل المريضِ لهذا المقدارِ الذي تمَّ تحديدُه من الكورتيزون.

وإنني لأرَى أنها كانتْ بالفعلِ «تجارب» فاشلة، وليست تَشخيصات حقيقيَّة قائمة على تحليلاتٍ علميةٍ مؤكّدة، كما كان يردِّد الأطباءُ أنفسهم، لأنهم طوال الوقتِ كانوا يقولون إنهم غير واثقين من تشخيصاتهم، وإن قالوا في المرَّةِ الأخيرةِ إنهم مُتَأكِّدين «مئة بالمئة»، وتحديداً في تشخيصِ الكرونز، ثم تَراجعوا بعد ذلكَ،

مِن دونِ أن يبدوا أي أسف على ما اقْترفوه من تدمير لما تبقَّى في جسدِه من قوَّة.

وإنَّني لأعتقدُ جازماً، و«مئة بالمئة»، و«لا شكَّ في ذلكَ»، و«بثقةٍ تامَّةٍ»؛ أن بعضَ الإساءاتِ الجسيمةِ يجبُ ألا تحتسبَ على أساس أنها إساءاتٌ فرديةٌ شخصيةٌ محدودة المساقِ، مكاناً وزماناً وأشخاصاً، بل قد تكونُ بالفعلِ إساءةً للإنسانيَّة جمعاء، وبكلِّ لغاتِ الأرضِ..

أوليستِ المرأُة التي حبستْ قطَّتَها، وحرمتها من الطعامِ والشرابِ؛ على ذنبٍ عظيمٍ كونها ارتكبتْ جريمةً بحقِّ البشريةِ، قبل أن ترتكبَ جريمةٌ بحقِّ معشرِ القطط؟!!

فإذا كانتِ النارُ مثوى تِلكَ المرأة، على الرّغْمِ من أن الإساءةَ محدودةٌ، وليستْ بالزَّجر والضربِ

والتَّعذيب. . فكيف بمن يستهزئُ بحياةِ إنسانٍ. . ويتصرَّف بمصيرِه على سبيلِ التَّجاربِ.

وأدَّى ذلكَ كله إلى تدهورِ حالِه الصحيةِ السيئةِ إلى حالٍ أسوأ، فأصيب الجميعُ بالذهولِ وهم يرون نحولَ جسمِه المخيفَ، مع تقرُّحاتٍ وكدماتٍ سبَّبها بعض الأطباء ـ نعم سببها بعض الأطباء بغيرِ تقديرٍ ولا رحمة بهذا الجسدِ الضعيفِ ـ إضافةً إلى بروزِ عظامِ الصدرِ والكتفين وفقراتِ الظهر، وتمثل عظام الحوضِ للناظرين. . وكأنَّ اللحمَ جافاه، والشَّحم غدَر به. .

وكانتْ هذه التفاصيلُ تحدثُ أمام مرأى الجميع مِن دونِ اكتراث حقيقي من بعض الأطباء الذين هجرُوه وكأنهم خاصموه، وذلكَ لسبب وحيد؛ وهو حرص أمه وأبيه على حياته، وكأن هذا الحرصَ ذنبٌ يُعاقبُ عليه (قانون ابن سينا) في الطبِّ، أو (قَسَم أبقراط) الخاصّ بالأطباءِ.

وقَسَمُ أبقراط هو نصٌّ قديمٌ جداً، عادةً ما كان الأطباءُ يقسمون به قبلَ مزاولتهم المهنة، ولا يوجدُ الآن ما يُجبرُ الأطباء على هذا القَسَم، بما أنَّ مهنةَ الطِّب في عصرنا هذا محددةٌ بنصوصٍ قانونيَّةٍ. .

ويتعهَّدُ الطَّبيبُ في (قسم أبقراط) بأن لا يعطي عقاراً مميتاً لأيِّ إنسان، حتى لو سألَه ذلكَ، وأن لا يعطي اقتراحاً بهذا الشأنِ، كما لا يعطي امرأةً دواءً مجهضاً. كما يتعهَّد بأن يحافظَ على فنِّه، وأن يعملَ لنفع المريضِ، وأن يظلَّ بعيداً عن جميعِ أعمالِ الظلمِ المُتَعمد وجميع الإساءاتِ، وأن يمتنعَ بحرصٍ عن عدمِ الكلامِ في الأمورِ المخجلةِ، التي يراها أو يسمعُها.

ثم يخلُصُ أبقراط بعد كلِّ التعهداتِ السابقةِ إلى القولِ:

«فإذا ما وفَّيت بهذا القسَم ولم أحِدْ عنه، فيحقّ لي حينئذ أنْ أَهنأَ بالحياة وبالفنِّ الذي شرفت بالاشتهار به

بين جميعِ الناسِ، وفي جميعِ الأوقاتِ، وإذا ما خالفتُ القسم وأقسمتُ كذباً، فيجبُ أن يكونَ عكس هذا نَصيبي وجزائي».

أما القسَم الآخرُ الذي قد يعتمدُه اليوم البعضُ منهم، فهو يشبه فحْوَى ما يلي:

«أقسمُ باللهِ العظيمِ أن أراقبَ اللهَ في مِهنتي، وأن أصونَ حياةَ الإنسانِ في كافَّةِ أدوارها، في كلِّ الظروفِ والأحوالِ، باذلاً وسْعي في استنقاذِها من الموتِ والمرضِ والألمِ والقلقِ، وأن أحفظَ للناسِ كرامتَهم، وأسترَ عوراتِهم، وأكتَم سرَّهم، وأن أكونَ على الدَّوامِ من وسائلِ رحمةِ اللهِ، باذلاً رعايتي الطبيَّة للقريبِ والبعيدِ، للصالحِ والطالحِ، وللصديقِ والعدوِّ، وأن أثابرَ على طلبِ العلمِ، أسخرهُ لنفعِ الإنسانِ لا لأذاهُ، وأن أوقِّرَ مَنْ علَّمني، وأعلِّم من يصغرُني، وأكونَ أخاً لكلِّ زميلٍ في المهنةِ الطبيةِ في نطاقِ البرِّ

والتقْوى.. وأن تكونَ حياتي مصداق إيماني في سرِّي وعلانيتي، نقيّاً مما يشينني أمام اللهِ ورسولِه والمؤمنين، والله على ما أقول شهيدٌ».

لكنَّني في الحقيقةِ لستُ أدري صيغةَ القَسَم الذي أقسَمَه هؤلاءِ الأطباء الذين كنتُ ألتقي بهم لضرورةِ العملِ، أو حيثُ أحرصُ على التواجدِ في جوارِ غرفةِ الغلامِ الصالحِ منير.. وعلى العمومِ فإنَّ هذا الأمرَ لم يكنْ يعنيني في تِلكَ الظروفِ الحرجةِ، كلّ ما كان يشغلُني هو ذاك الفتى اليافع الصَّغير السِّن، فقدْ كان شاحبَ الوجهِ نحيلاً، لم يكدْ يُنهي صفَّه العاشرَ، وكان من المفترضِ أن يكونَ اليوم مع أقرانِه يلهو ويمرحُ، ويحلمُ بالمستقبلِ، لكنَّه عوضاً عن ذلكَ يصارعُ المرضَ بإيمانٍ وثباتٍ وصبرٍ لا يلينُ..

3

مُنِيرٌ وَقِصَّةُ البُلْبُلِ الغِرِّيْدِ

ـ كنتُ أريدُ أن أشعرَه بأنَّ هناكَ من يقفُ معه في الشَّدائدِ ويشعرُ بآلامه وأحزانه ويترقَّب شفاءَه وينتظرُ أن يخرجَ سليماً معافىً.

ـ فقَدَ الثقةَ بمن يأتي ويذهبُ، وباتَ مقتنعاً بأن الثوبَ الأبيضَ لا يليقُ ببعضِ من يرتدون البياضَ.

ـ ابتسمَ منير عندما سمعَ القصةَ. . لستُ أدري ما إذا كانتِ القصةُ هي التي أثارت ابتسامته أم أنه كان يُجاملُني. . المهمُّ في الأمرِ أنه ابتسمَ. .

ـ تجاهَلوا حالَه، بدلاً من البحثِ عن خفاياها، والتعمُّق فيها، وسؤال الأطباءِ الآخرين الأكثر علماً وخبرةً عنها. .

❊ ❊ ❊

كان «رجلاً» بملامحِ طيرٍ سماوي، أو «ملاكاً» على هيئةِ بشرٍ..

كلَّما سألتُه: كيف حالُك يا منير؛ أجابَ بصوتٍ منهكٍ حزينٍ، مشحونٍ بإيمانٍ فطري صادقٍ:

«الحمدُ للهِ.. الحمدُ لله، أنا بخير.. أنا بخير».

وأذكرُ ـ ولا أنسى ـ أنني تصادقتُ معه منذُ الأيام الأولى لدخوله المُسْتَشفَى، وكان يعاملُني برقَّة عجيبةٍ، ويشعرُني بأنني أخٌ له، ربما لأنَّنا من جيلٍ واحدٍ تقريباً، فأنا أكبرُ منه ببضعِ سنين..

أخبرتُه أنني وصلتُ في دراستي إلى صفِّه تقريباً، فقد كانتْ جدَّتي حريصةً على تعليمي، لكنَّني اضطررتُ إلى تركِ المدرسةِ لعدمِ قدرتِها على الاستمرارِ في دفعِ مصاريفِها، وعندما سنحتْ لي فرصة السفرِ للعملِ، سافرتُ على الفورِ ولم يهمَّني نوعُ العملِ.. حتى وإن كان في التَّنظيفاتِ.

كنتُ أجلسُ معه أحياناً عندما يكونُ وحده. .

في الأسابيع الأولى كان يتكلَّم ويضحكُ، وكان يقومُ من سريره ويمشي، وكنَّا نصلِّي معاً. . وأحياناً كنا نلعبُ بالألعاب الإلكترونيَّة. . ونشاهدُ برامجَ التلفازِ.

وذات صباحٍ مشرقٍ وبديعٍ من أيام الأسابيعِ الأخيرةِ من عمرهِ القصيرِ؛ دخلتُ إلى غرفته وكان يجلسُ وحده حزيناً على السريرِ الذي لم يعدْ يفارقُه في الفترةِ الأخيرةِ إلا نادراً، وكانتْ أشعةُ الشمس تملأُ جانباً من الغرفة، فقصصتُ عليه قصةً أحبَّها:

وقفَ بلبلٌ غرِّيدٌ صامتاً على طرفِ غصنٍ أخضرَ قبيل الغروبِ؛ فسألتْه دودةٌ خضراءُ: «لماذا أنتَ صامتٌ لا تغنِّي؟». . فلم يجبْ على سؤالها. . فاقتربتِ الدُّودةُ أكثر وقالت: «حزينٌ أنتَ على غيابِ الشمس أيها الصديق الجميل؟!».

هزَّ البلبلُ رأسَه..

فقالت: «عليكَ أن تحزنَ أكثرَ لسبب آخرَ.. لأن صمتَك يمنعكَ عن الغناء ونشر البهجة في أنحاء الغابة»..

اقتربتِ الدودةُ أكثر فانحنى الغصنُ.. واهتزَّ.. كادَ البلبلُ يفقدُ توازنه.. حرك جناحاً وأمسك الغصن بطرف جناحه الآخر، وصار يتأرجحُ في الهواء..

ضحكتِ الدودةُ ثم قالتْ للبلبلِ بعد أنِ اصفرَّ وجهُه:

«اِسعدْ يا صديقي بكلِّ أوقاتِ الحياةِ.. وأسعدِ الجميعَ من حولك.. فغداً تشرقُ الشمس من جديدٍ».

ابتسمَ منير عندَما سمعَ القصةَ..

لستُ أدري ما إذا كانتِ القصةُ هي التي أثارت ابتسامته أم أنه كان يُجاملُني..

المهمُّ في الأمرِ أنه ابتسمَ..

كنتُ أريدُ أن أشعرَه بأن هناك من يقفُ معه في

الشدائد ويشعرُ بآلامه وأحزانه ويترقَّبُ شفاءَه وينتظرُ أن يخرجَ سليماً مُعافى بعد أن فقدَ الثقةَ بمن يأتي ويذهبُ، فقد باتَ مقتنعاً بأن الثوبَ الأبيضَ لا يليقُ ببعض مَن يرتدون البياضَ.

انتظرتُ طويلاً.. بل طويلاً جداً..

لعلَّ البشرى بنهاية هذا الكابوس تأتي سريعاً!

ولعلَّ هناك من يأتي حاملاً الفرحةَ لهذا الغلام الذي أصيبَ بمرض غريب عجزَ الأطباءُ حيالَه ـ أو بالأحرى «تعاجزوا» ـ فلَجؤوا إلى التَّجارب والتَّشْخيصاتِ المُتَعدِّدة التي ظهرَ فشلُها لاحقاً.. وهو ما أدَّى إلى نحوله وتحوله إلى ما يشبهُ الجسد، فأضحى شبيهاً بحال أطفال المجاعات في البلاد التي تحدثُ فيها الحروبُ أو الكوارثُ المختلفةُ.

لكن هيهات هيهات ما بين الحلم والواقع، وَمَا بين الأماني وتصاريف الزمان..

إن الإحساسَ بهذا الفتى الجميل الذي لم يكد يتجاوزُ الرابعةَ عشرة من عمره، يجعلُ كلّ من يراه يتألمُ لما أصَابَهُ منْ مرض انعكس حزناً في قلبه، فيما رفعَ الأطباءُ لاحقاً «الراياتِ البيضاءَ» أمامَ هذه الحال، وبعضُهم قال: «إن مرضَه استثنائي عجزَ الطِّب عن فهم أسبابه وعلاجه».

لكنَّهم على الرّغْمِ من ذلكَ تجاهَلوا حالَه، بدلاً من البحث عن خفاياها، والتعمق فيها، وسؤال الأطباء الآخرين الأكثر علماً وخبرةً عنها..

وكأن على المريض المضطرِّ أن يرضى بالطَّبيبِ أيّاً كان وكما هو، خاصَّة في حالة العجز التي أصابتْ هذا الفتى وجعلتْه مكبَّلاً في سريره، غيرَ قادر على التحرُّك والانتقالِ إلى مكانٍ آخرَ..

علماً أنه وفي البداية؛ كان الإسهالُ المُتَواصلُ سببَ دخوله المُسْتَشفَى، لكنَّه توفِّي بعدَ سبعة أشهرٍ لأسبابٍ أخرى، كما وردَ في شهادة الوفاة.

ومن أهمِّ الأسبابِ التي ذكرتْها تِلكَ الشهادةُ:

«هبوطٌ حادٌّ في الدورةِ الدموية ونزيفٌ في الشرج».

ولم يأتِ أحدٌ على ذكرِ سببٍ آخرَ مهمٍّ جداً، وهو البكتيريا..

تِلكَ البكتيريا التي استوطنتْ جسدَه مدَّةَ أكثرَ من ثلاثة أسابيعَ، وربما شهراً كاملاً، بسبب أنبوبِ التغذية الرئيسي الموضوع في الرقبةِ الذي يسمُّونَه «سنترال لاين»، والذي لم يتمَّ نزعُه ووضعُه في مكانٍ آخرَ، وهذا هو المعمولُ به في مثل هذه الحالِ، كما سمعتُ ذلكَ لاحقاً من طَبِيبٍ في مُسْتَشفَى آخرَ..

تذرَّعُوا بعدمِ وجودِ شريانٍ سليمٍ مُعافى كما أعلنَ الأطباءُ، فاستحكمتِ البكتيريا القاتلةُ في جسدِه النَّحيلِ دونَ أن يحاولوا مجردَ محاولةٍ واحدةٍ، وتركوه يعاني آلامَ البكتيريا دونَ تدخُّل سريعٍ ولا بطيء..

وتحوَّلَ الدمُ إلى «عصير»، على حدِّ قولِ طَبِيبِ الكلى..

وإني لأعتقدُ ـ بحسبِ علمي السطحي كعاملِ تنظيفاتٍ محدودِ المعرفةِ ـ أن ذلكَ التدهورَ الحادَّ الذي أودى بحياته كان بسببِ البكتيريا الفتاكةِ وميوعةِ الدم المبالغِ فيها معاً، فضلاً عن التَّشْخيصاتِ المتعدِّدة الخاطئةِ، والإهمالِ المُتَكرر والمُتَعمَّد، إلى جانب سوءِ التَّعامُل والتَّعالي البغيضِ غيرِ المبرَّر..

خاصَّةً أنَّ هؤلاء الأطباءَ شخَّصوا مرضَه عدةَ مراتٍ بِشكلٍ خاطئٍ، وشحنوا جسدَه بالأدويةِ المختلفةِ التي كانتْ تضرُّه ولا تنفعُه..

كما أنَّهم لم يبلِّغوا عنْ جرحٍ اكتشفَه أبوه عندما كانَ يقومُ بغسلِه وتكفينِه قبل الصلاةِ عليه ودفنه.

والغريبُ؛ أنَّ أحدَ الأطباءِ وهو أفضلُ الذين كانوا يُتابعُون مرضَ منير وأروعهم على الإطلاقِ، أحضرَ

للأب ـ فيما كان ابنُه تحتَ جهازِ الإنعاش يودِّعُ الحياةَ والتجربةَ المُرَّة التي عاشها ـ ورقةٌ تثبت اسمَ البكتيريا التي نهشتِ الدمَ، والتي لم يبذلِ الأطباءُ حيالَها ما يلزمُ من جهد، فتركوه يصارعُها بجسده المنهكِ حتى الموت. .

لم يكن همُّ الأبِ المفجوعِ الآن وهو يجلسُ على بلاطِ غرفةِ العنايةِ المركَّزة مُتَلقِّياً مصيبةَ الموت معرفة اسمِ البكتيريا أو نوعها الفتَّاك، أو نوع الدواءِ الذي اختارَه الأطباءُ للقضاء عليها ـ أو ربما عليه ـ على الرّغْمِ من أنهم لم يجفِّفوا نبعها ومصدرَ وجودها وتكاثرها. .

فهل تنفعُ المعرفةُ في مثل هذه الحالِ؟!

بل ما فائدةُ إخبارِ الأبِ المفجوعِ بولدِه عندَ وداعِ روحه لحظةَ مغادرتِها جسده بنوعِ البكتيريا القاتلةِ؟!!!

ومع ذلكَ لم يَرِد ذكرُ هذه البكتيريا في شهادةِ الوفاةِ. .

وهذا الرجلُ الطيبُ؛ هو الطَّبيبُ الوحيدُ الذي

جاء إلى العنايةِ المركَّزة ـ حيثُ كان الطفلُ مسجىً يودعُ الحياة ـ لكي يعزِّي والده، ويقفَ معه في تِلكَ اللَّحظاتِ المؤلمة، فيما امتنعَ الأطباءُ الآخرون عن تقديم واجبِ العزاء..

كانوا يريدون معاقبةَ الأب على ذنب وحيدٍ اقترفَه، وهو الذَّود بشراسةٍ عن حياةِ ابنه، بينما هم كانوا يفكِّرون بأنفسهم وحماية «الفريق»..

وكان عدمُ تقديمِ العزاءِ بغلامٍ صغيرٍ توفِّي وهو تحت رعايتهم ـ أو هكذا يُفترضُ ـ مدة سبعة أشهرٍ مُتَواصلةٍ؛ شهادةً دامغةً لا تدحضُ بأن الثوبَ الأبيضَ لا يليقُ بهم.

والأعجبُ من ذلكَ كلِّه، أن قنصلَ السفارةِ الفرنسيةِ الذي رحَّب بأبيه عند باب القنصليَّة لكي يتسلمَ منه مباشرةً جوازَ السفر، مُتَخطِّياً كلَّ القوانين والتعقيداتِ الإداريَّة المعتادة بعد رفضِ المُسْتَشفَى

إعطاءَه ما يثبتُ العجز عن التَّشْخيصِ والعلاج، مراعاةً منه لوضعهِ الصحي، وحتى مِن دونِ معرفةٍ سابقةٍ، لكي يساعدَه بِشكلٍ شخصي في الحصولِ على تأشيرةٍ تمكِّنُه من دخولِ دولته بحثاً عن علاجٍ لابنه.. هذا القنصلُ نفسُه اتصل بالأب بعد لحظاتٍ من وفاة ابنه، ليعزِّيَه باسم السفير وباسمه وباسمِ أعضاء السفارة..

فيما أحجمَ مرتدُو اللونِ الأبيضِ، مدلُو السماعاتِ المرفهةِ، عن ذلكَ، إلا طَبِيبَين اثنين فقط حضرا للتعزيةِ! وهما الدكتور عبد العظيم وطَبِيبُ المناعة الدكتور محمد.. وتجاهلَ موتَه كلُّ الأطباءِ الآخرين بلا استثناء.. وكأنه قطةٌ وماتت.. مع علمِهم ـ ربما ـ بما جرى للمرأةِ التي عذبتِ القطةَ..

وأذكرُ هنا أنَّ أنبوبَ التغذيةِ الذي سبَّب البكتيريا بقي حتى آخر لحظةٍ من عمره القصيرِ مُتَّصلاً برقبته، إضافةً إلى حُقن التمييع التي أمرَ الدكتور حمد

باستمرارها بوصفه كبيرِ الأطباءِ في مركز الجهازِ الهضمي، على الرّغْمِ من أنه لم يدخلْ غرفةَ مريضِه المسؤول عنه إلا مرةً واحدةً طوالَ وجوده تحتَ إشرافهِ في الوحدةِ الطبيةِ، منذُ نقلِه من جَناح الباطنيَّة إلى مركز الجهازِ الهضمي، وبقائه فيه مدةَ أربعة أشهر مُتَتاليةٍ.. حتى الموت.

علماً أنَّ الأطباءَ المُتَابعين كانوا قد قرَّروا وقفَ حقن تمييعِ الدم اليوميةِ لسببٍ لم يتمَّ كشفُه وبقيَ قيد الكتمان، فطلبَ كبيرُ الأطباء الدكتور حمد إعادةَ حقنه بهذه الحقن من جديدٍ، على الرّغْمِ من إبلاغه بوقفِها من قِبل الطَّبيب المسؤولِ نفسه الدكتور مرعي الذي لم يشرحْ له بدوره سببَ هذا القرارِ، ولم يدافعْ عن قراره ولم يبرِّر رأيه بتاتاً، بل تلقَّى التعليماتِ بكلِّ رحابة صدرٍ، وكأنَّ الأمرَ ليس له علاقة به، ولا يعنيه من قريبٍ أو بعيدٍ، أو كأن القرارَ الذي من المفترضِ أنه اتُّخذ سابقاً بمعرفته وموافقته لا قيمة له..

فكيف يتخذُ قراراً على هذا المستوى من الأهميَّة ثم يتراجعُ عنه مِن دونِ أن يتمسَّك به ويدافع عنه؟!! حتى إنه لم يناقشْه مجردَ مناقشةٍ بسيطةٍ لإقناعه، أو ربما للتبريرِ والشرحِ والتعليلِ.

والأغرب من ذلكَ أن كبيرَ الأطباءِ نفسه لم يطلبْ من جانبه شرحاً يُبينُ له سببَ إيقاف الحقنِ.. ولو حتى من بابِ الفضولِ!!!

وهذا الموقفُ الغريبُ شاهدتُه بنفسي عند باب غرفةِ منير، ولم يخبرْني به أحدٌ من الناسِ، وعينُ الإنسانِ وسمعُه دليلان أكيدانِ، لكنَّهما قد يكذبانِ فلا يوصلان الصورةَ الحقيقيةَ كما هي!! وأحياناً يُصبحان غير صالحَين للتصديق.. ولا سيما في مثل هذا الموقفِ.

وفي النِّهاية؛ لم أكنْ مصدِّقاً ما أراهُ وأسمعُه..

فهل هذا الذي يحدثُ أمامي أمرٌ واقعي منطقي يقبلُه العقلُ؟

أم أنني في كابوسٍ طويلٍ؟
إنه حَتماً واقعٌ لا يصدَّقُ في الحقيقة..

كنتُ أتابعُ بغضبٍ المشاهدَ وهي تَتْرى أمامي، وكنتُ أريدُ الصراخَ، بل العويلَ.. إن كنتم لا تسمعون كلامي الذي لم أقلْه لكم؛ فلماذا لا تسمعون كلامَ هذه الأم المسكينةِ؟!

لماذا لم تسارعوا إلى نزعِ الأنبوبِ الذي يُولِّدُ البكتيريا المفترسةَ الفتاكةَ التي تنهشُ جسدَه أو ما تبقَّى منه؟!!!

وهذا أبسطُ ما يمكنُ القيامُ به منعاً لتفاقمِ الخطرِ..

ألا ترون هذهِ المصيبةَ التي تتكاثرُ يوماً بعدَ يوم بِشكلٍ هستيري؟!

كيف تضعون الدمَ النقي الطاهرَ الزكي في مكانٍ فاسدٍ ملغَّم بالجراثيم؟!

هذه البكتيريا التي استباحتْ جسدَه الغضَّ الطري

بكلِّ جرأةٍ ووقاحةٍ، غزتْ أعضاءَه، وباتتْ تسرحُ وتسبحُ وتمرحُ في شرايينِه، بحريَّةٍ بالغةٍ يحسدُها عليها كثيرٌ من شعوبِ الأرضِ، ليس فقط في عصرِنا الحالي، بل في كلِّ العصورِ عبر التاريخِ . .

وكلُّ ذلكَ بفضلِكم أنتم أيها السادة المحترمون!

تريدون أن تعاقبوهُ وأن تعاقبوا أسرتَه وكلَّ من يحبه على ما ترونَه أنتم ذنباً اقترفتْه أمه وافتعلَه أبوه؟!

ومنذُ متى تعاقَبُ الأم على خفقان قلبها وعطفِها وحنانها؟!

ومنذ متى يُجلدُ الأبُ جراءَ عشقه لولده!

ألم يكنِ الأجدى لذاكَ الطَّبيبِ الذي رفعَ عقيرتَه على أمِّه ـ بدلاً من عقاقيره ـ لأنها تسعى للإبقاءِ على حياةِ صغيرها، وتجهد وتُجاهد لكي تؤمنَ له سفراً إلى مُسْتَشفى أكثر تطوراً وتقدماً «وإخلاصاً» بعد اتصالٍ من

جهةٍ رسميةٍ عُليا، عرضتْ ذلكَ لكنَّها تراجعتْ بعد فترةٍ بسببِ الإيحاءِ لها أن مرضَه مَيْئوسٌ منه؟!

فمَن أوحَى لها بذلكَ.. ولماذا؟!

ألم يكنِ الأجدَى لهذا الطَّبيبِ أن يضعَ نفسَه مكانَ هذه الأم، ويضعَ ابنَه مكانَ ابنها.. بدلاً من أن يسمعَها كلاماً يندَى له الجبينُ، ويتصرفَ مثل المصارعين على حلبةِ مصارعةٍ مرتدياً الثوبَ الأبيضَ؟

لا أدري كيف سوَّلتْ له نفسُه أن يصرخَ على أم مستعدَّةٍ لتصارعَ الدنيا من أجلِ الدِّفاعِ عن حياةِ ابنها، بعدَ أن توعدها بموتِه، وهذا بالطبعِ يخالفُ قانونَ ابنِ سينا وقَسَم أبقراط، بل إذا شئتَ كلَّ قوانينِ الإنسانيَّة، أو ربما أيضاً «غير الإنسانيَّة».

وإذا كانَ الرسولُ الكريمُ (صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم) يُوصي بالنِّساءِ خيراً، وهنَّ في حالٍ اعتياديةٍ طبيعيةٍ، فكيف وهنَّ في مثلِ هذه الحالِ البائسةِ اليائسةِ؟؟؟!!

ألـم يكن من الأَوْلى له أن يحرصَ على الالتزامِ بواجبهِ السامي «الكبير»، وأن «يُقاتلَ» و«يُصارعَ» على حلبةِ الطبِّ، والقيام بدورهِ الحقيقيِّ..

أليسَ ذلكَ أفضل منَ الاستعلاءِ والتباهي غير المشروعِ بتاتاً، في مثلِ هذه الحالِ.. ولا في غيرِها؟!

كأنه كان يريدُ صدَّ الأم عنِ التفكيرِ والبحثِ عن مكانٍ آخرَ، لكي لا يتمَّ إنقاذُ هذا الغلامِ المسكينِ، فيخرج للعَيانِ فشلُه وتقصيرُه، بعدَما أبَى حتى حمْل سماعتِه الطبيةِ ووضعها على صدرِه وظهرِه اللذين احتشدتْ عليهما الكدَمات والضَرْباتِ التي سبَّبها أطباء مبتدئون ـ ربما ـ لم يدركوا حالَه الخاصَّة، فتَعاملوا معه بشدةٍ، حتى كانَ صوتُ صياحِه المُتَألم يتردَّد في أنحاءِ المُسْتَشفى.

4

صَرخَاتٌ واسْتِغَاثَةٌ

ـ لم يكنْ أحدٌ يعرفُ أنها حكايةٌ طويلةٌ. . نسيجُها: ألمٌ وصبرٌ وتفاؤلٌ، وختامُها: حزنٌ وبكاءٌ.

ـ خرجَ الطَّبيبُ «فاشلاً» بمهمَّته، لكنَّه نجحَ في تحويلِ جسدِ الصبي إلى بقعٍ سوداءَ وزرقاءَ وحمراءَ. .

ـ بعضُ الأطباءِ كانوا يتناقلون كلاماً سلبيّاً عنه وعن أهله الحريصين على حياتِه، على أساسِ أنهم مشاغبون، ومُثيرون للمشكلاتِ، ويَتعاملون مع الأطباءِ بحدَّةٍ.

ـ كنتُ في هذا الموقفِ ضدَّهما تماماً، وضدَّ صمتِهما. . ولو كنتُ مكانَهما لحطمتُ المُسْتَشفَى على رؤوسِ الجميعِ مهما كانتِ النتائجُ.

وشبيهٌ بما سبقَ ذكرُه؛ حضورُ طَبِيبٍ من العناية المركَّزة إلى غرفته ليضعَ له أنبوبَ المحاليلِ بعدَما عجزَ الممرِّضون اللُّطفاءُ عن ذلكَ بسببِ جفافِ الشرايين.. فأغلقَ الطَّبيبُ البابَ عليهما، وصارَ الغلامُ الصالحُ يصيحُ ويستغيثُ، والأبُ والأم في الخارج على مقربةٍ من البابِ يسمعان ويبكيان بلا حولٍ ولا قوَّة.

لم يكنْ هذا الغلامُ يستحقُّ أن ينالَ ما لَقِيه من مناكفةٍ، وأن يُلحقَ به كلُّ هذا الألم المفتعلِ، لكن بعضَ الأطباءِ ـ كما تأكدتُ بنفسي ـ كانوا يتناقلون كلاماً عنه وعن أهله الحريصين على حياته، وأقصدُ طبعاً ما هو سلبي، على أساسِ أنهم مشاغبون، ومُثيرون للمشكلاتِ، ويَتعاملون مع الأطباءِ بحدةٍ.

علماً أن كلَّ هذا الكلامِ مجردٌ من الحقيقةِ الكاملةِ، بل قد يكون في كثيرٍ منه كلاماً مختلَقاً ليس

له حظٌّ من حقيقةٍ، لا وجودَ لها إلا في خيالِ مختلِقها، ربما لأمورٍ نفسيةٍ خاصَّة به وحده. وكان يليقُ به أكثر لو بحثَ عن زميلٍ مُتخصِّصٍ في الطِّب النفسي، عوضاً عن رميِ الناسِ بالتُّهم.

ولعلَّ في صمتِ الوالدين والأقربين عن الأخطاءِ المُتَكررةِ التي حدثتْ في الفترةِ الأولى، ثم تتابعتْ لاحقاً حتى حانتْ لحظةُ الوفاة.. دليلاً على المعاناةِ الجسيمةِ والحِمْلِ الثقيلِ الذي ناءَ الوالدان بهما، حتى رأيتُ الوالدَ يبكي ولدَه بصمتٍ، والأم تقفُ عند سريرِ موته تدعو اللهَ بكلِّ إيمانٍ وقبولٍ وصبرٍ واحتسابٍ، مِن دونِ أن يفقدا اتِّزانهما ولو للحظةٍ واحدةٍ، كما يحدثُ مع بعضِ الأمهات والآباء في مثلِ هذه الحالِ. خاصَّة أن الغلامَ الصالحَ الطيبَ كان ولدَهما الأوَّلَ، ونشأَ في أسرته الصغيرة، وتعهَّده الوالدان بأفضل ما يكونُ، وكان متفوِّقاً في دراسته، مُتَميزاً بين أقرانه، بارعاً في

هواياته الرياضيةِ والفكريةِ. . ويستعدُّ منذُ فترة للبحثِ عن جامعةٍ تستهويه، بل كان يبحثُ وينقبُ عن أفضلِ جامعات العالمِ.

وبعدَ نحو نصف ساعةٍ تقريباً خرجَ الطَّبيبُ «فاشلاً»، وبكلِّ «براءة» قال إنه لم يتمكَّنْ من وضعِ الأنبوبِ، مبرِّراً ذلكَ بعدمِ وجودِ شريانٍ واضحٍ يغرزُ فيه إبرتَه، فباءتْ محاولاتُه بالفشلِ، إلَّا أنه لم يفشلْ بتحويلِ جسدِ الصبي إلى بقعٍ سوداءَ وزرقاءَ وحمراءَ. . ثم غادرَ على الفور قبلَ أن يدخلَ أحدٌ الغرفةَ. . وكأنه كان ممن سَمعوا سابقاً بالأخبارِ الملفَّقةِ بحقِّ أسرةِ منير، وربما ظنَّ أنه سوفَ يتلقَّى طعناتٍ على الآثارِ المؤسفةِ التي تركَها على جسدِ المريضِ، علماً أن الوالدين ظلَّا صامتَين من صدمتهما إزاءَ ما رأَيناه معاً.

أما أنا. . فقد كنتُ في هذا الموقفِ ضدَّهما تماماً، وضدَّ صمتِهما. .

لو كنتُ مكانَهما لحطمتُ المُسْتَشفَى على رؤوسِ الجميعِ مهما كانتِ النتائج. .

وكانتِ الفاجعةُ الحقيقيةُ الكبرى عندما دخلتُ وراء الأم والأب والممرِّضين إلى غرفة منير بعد ذهاب الطَّبيب مباشرة، فشاهدنا جميعاً تِلكَ الكدماتِ السوداءَ والزرقاءَ. . في كلِّ أنحاءِ جسده. .

وسجَّلَ ذلكَ الحدثُ مرحلةً أخرى من مراحلِ انهياره التام، بفضلِ ما فعله هذا الطَّبيبُ مِن دونِ أن يحاسبَه أحدٌ.

ومما يثيرُ العجب؛ أنه وبعدَ هذه الحادثةِ مباشرةً تمَّ نقلُ الصبي الصغيرِ إلى غرفةِ الأشعةِ ليقومَ طَبِيبُ الأشعة بكشفِ شريانٍ واضحٍ، وخلالَ بضع دقائقَ أنهى الطَّبيبُ مهمتَه ببساطةٍ، ووضعَ إبرةَ الأنبوبِ مِن دونِ أيِّ عناءٍ يُذكرُ، بِشكلٍ لا يُبرِّر ما حدثَ سابقاً، وأدَّى إلى سقوطِ الصبي في هذه المحنةِ الجديدةِ

الإضافيةِ «المختلَقةِ»، المليئةِ بالكدماتِ «المفتعلةِ»، مما حطَّم معنوياتِه، وباتَ سبباً لكثيرٍ من الجِراح والآلامِ التي استمرَّت معه حتى وفاته..

ألم يجدرْ بهم أن ينقلوه أولاً إلى غرفةِ الأشعةِ، بدلاً من تعريضهِ لكلِّ هذا الخطرِ وهذه الكدماتِ التي رافقتْه حتى الوفاة؟!!!

لتتَّسعَ صدورُكم ـ أيُّها السادة ـ ولْتتواضعوا قليلاً. أَنصتوا بقلوبِكم عسى ربي يرحَمني ويَرحمكم..

أَتدَّعون أن الذي يأكلُ العِصيَّ مثل الذي يعدُّها؟!

أَليس المريض يا سادتي أسيرَ فراشِه، وعليكم أن تعامِلوه كأحسنِ ما تكونُ المعاملةُ؟!

فإذا كانتْ معاملةُ أسيرِ الحربِ سليمِ البدنِ من الواجبِ أن تكونَ معاملةً إنسانيّةً، بل يستوجبُ الاحترام كمقاتلٍ، على الرّغْمِ من أنه في نظرِ آسره

عدوٌّ قاتلٌ مجرمٌ.. فكيف ونحن أمامَ هذا الغلامِ الصالحِ؟؟؟

لكن من يلتفتُ إلى كلامِ عاملِ تنظيفاتٍ جاهلٍ مثلي، همُّه الأولُ تِلكَ الأم الحزينة والولد الجريح؟!

كلَّما رأيتُها مرهقةً مُتعَبة أحضرتُ لها كرسِيّاً لترتاحَ عليه قليلاً..

أما التعبُ فلا يستدعي بالضرورةِ أن يكونَ تعباً جسمانياً تقليديّاً، فتعبُ النفسِ وتعبُ الروحِ يتغلَّبان في كثيرٍ من الأحيانِ على تعبِ الجوارح والأجسادِ.

كانتْ تجذبُ الكرسيَّ إلى أقرب نقطةٍ مُتَاحةٍ من السرير، وتجلس بتلقائيةٍ مِن دونِ انتظار، ومِن دونِ أن تعبأَ بي، وحتى مِن دونِ أن تتلفَّظ بكلمة «شكراً».. واضحٌ على وجهها هلعُ الأم، وانشغالها بمشاعرها المشدودةِ نحو هذا الولد النبيلِ. كنتُ أتفهَّم مشاعرَها ولا أحزنُ، فهي بالتأكيد ليست على يرامُ.

قلبُ الأم ينبضُ عشقاً لأطفالها

هكذا هي الأم دائماً؛ تنسى نفسَها، وتهملُ كلَّ شيء إذا ما أصيبتْ بجرحٍ في كبدٍ من أكبادها، وجراحُ الأكباد أشدُّ ألماً من أيِّ جراح تصيب الإنسانَ.. وكم من أم اشتعلَ رأسُها شيباً من شدَّة حزنها على مُصابٍ ألمَّ بولدٍ من أولادها.

إن الحكايةَ التي بدأتْ عند بابِ المُسْتَشفَى وغرفةِ الطوارئِ في ليلةِ رأسِ السنةِ الميلاديةِ، لم يكن أحدٌ يعرفُ أنها حكايةٌ ستطولُ كثيراً.. إنها حكايةٌ نسيجُها صبرٌ وألم وتفاؤل، وختامُها نهايةٌ حزينة مأساويةٌ.

والحكايات غالباً ما تبقَى في الذاكرة، وقد تتشوَّه في العقولِ المريضةِ، وتنقَل على غير حقيقتها، لكنَّها أبداً تبقَى في القلوب السليمةِ الصحيحة مثل النقشِ في الصخر.

ومما لا أنساه من أيام طفولَتي الأولى أنه كان

عندنا جارةٌ عجوز تحبُّني كثيراً، وكانتْ تدلِّعني أكثر من جدَّتي، فقد كانتْ جدَّتي مشغولةً معظم الوقتِ مع مرضاها، ولا تتأخَّر عن مساعدةِ أحدٍ منهم مهما كانتْ حالُه، وفي أيِّ وقت من نهارٍ أو ليل، وإنْ كانَ الوقتُ مُتأخّراً أو قبلَ مطلعِ الفجرِ..

عرفتُ على يدي جارتنا ـ رحمَها اللهُ ـ معنى الدلعِ الزائد الذي افتقدتْه لوفاة أمي المبكرةِ، ولانشغالِ أبي في عملِه، وجدَّتي مع مرضاها، ولعلَّها كانتْ ترأفُ بي وترحمُ يُتْمي وحُزني ووَحْدتي.. اكتشفتُ عند موتها ـ وأنا ما زلتُ طفلاً صغيراً ـ آلامَ الفقدِ، خاصَّة أنني لا أذكرُ أمي جيداً ـ رحمها الله ـ التي توفِّيت وأنا صغيرٌ جداً..

رأيتُ عندَ موتِ جارتِنا العجوز لحظاتِ الوداع المؤلمة، من كلِّ الناسِ الذين كانوا يحبونها، بعد أن فاجأَها الموتُ سريعاً، دونَ سابقِ إنذارٍ.. وكنتُ أعتقدُ

ـ مخطئاً ـ أنَّ الموتَ لا يأتي بغتةً، وأنَّ ما يُرسلُ إشارات تسبقُ خطواته . . فهي على الرّغْمِ من سنِّها المُتَقدمة؛ كانتْ تتمتعُ بصحةٍ يحسدُها عليها الشباب، لكن الموت لا يفرق بينَ الشبابِ والعجائزِ . .

الموتُ هو الموت . .

لا أبيض ولا أسود . .

لا يميزُ بين غنيٍّ أو فقيرٍ، ولا بينَ طويل أو قصير ولا سمين أو نحيل . .

يأتي المواليدَ في المهدِ، كما يأتي الصَّبايا والشبابَ في المجدِ . .

وقد يتأخَّر حتى يبلغَ الإنسانُ من الكِبرِ عتيّاً، أو قد يتركُه حتى يبلغَ مرحلةً مديدةً من العمرِ، لا يعودُ بعدَها يعلمُ من بعدِ علمٍ شيئاً . .

تأثرتُ كثيراً عندَ موتِها، فقدْ كانَ أول موتٍ يُصادفُني وجهاً لوجهٍ، حتى كبرتُ قليلاً، ثم عادَ ملكُ الموتِ

ليُخرجَ روحَ أبي من الحياةِ فتسلكُ طريقَها إلى الجنةِ بإذن اللهِ، كما أخرجَ روحَ جارتنا. . وروح أمي من قبلُ.

كنتُ أعيشُ في قريةٍ بعيدةٍ، بيتي الصغيرُ قريبٌ من الينبوع. . أسمعُ الخريرَ في كلِّ أوقاتي. . مدرستي من النهرِ قريبةٌ، وطريقي دائماً قربَ الماءِ. . قريتي الصغيرةُ كأنَّها جزيرةٌ. . الماءُ من حولها سوارٌ في معصمٍ. . يخرجُ من كلِّ حجرٍ. . أشربُ الماءَ كأنه دواءٌ. . لكنَّ الدواءَ طعمُه مرٌّ. . أما دوائي فعذبٌ فراتٌ.

روتْ لي جارتُنا العجوز قبل وفاتها بفترةٍ قصيرةٍ حكايةً جميلة عن طفلٍ قروي صغيرٍ، كان يعيشُ مع أسرته في المدينة، لكنَّه يذهبُ كثيراً إلى قريته النائية البعيدةِ، وأنا فرحتُ كثيراً بهذه القصةِ الممتعة، وكم تمنَّيتُ أن أكونَ مكانَ بطلها لكي أحضرَ أباه المخلصَ الوفي الأمينَ إلى غرفةِ منير.

5

الطَّبيبُ الشَّهْمُ

ـ كانتْ هذه القصةُ تدهشُني كلَّما تذكرتُها. . وقد رويتُها لِمنير مرةً، ثم طلبَ منِّي لاحقاً روايتَها عدةَ مرات.

ـ جاءَ اليوم الذي بكَى فيه الصبي. . وبكتْ أمه كما لم يبكِ أحدٌ من قبلُ. .

ـ حاولتُ جاهداً أنْ لا أسمعَ ولا أرى. . لكن الواقعَ كان أقوى من تِلكَ المحاولاتِ، فهو يدهشُ المبصرَ كما يدهش السامعَ.

ـ عيادةُ هذا الطَّبيب الطيب مجانيةٌ، لا يأخذُ من المرضى قرشاً واحداً. . يساعدُهم. . يُعطيهم

الدواءَ.. يُجري لهم العملياتِ الجراحيةَ، وكلّ ذلكَ دونَ مقابل..

❊ ❊ ❊

تروي جَارتُنا ـ رحمها الله ـ أنه كانَ هناكَ في وسَط تِلكَ القرية البعيدة التي لم تصلْها الطرقاتُ المعبَّدة ولم تصلْها الكهرباءُ إلا في السنواتِ الأخيرة.. ينبوُع ماء باردٌ يشربُ منه جميعُ السكان، تحيطُ به بيوتٌ مبعثرةٌ بعشوائية بالغةٍ من كلِّ جانب.. بيوتُ الطين لا تزالُ كما كانتْ.. الناسُ بسطاء.. وأغلبُ السكانِ من كبارِ السنِّ.. أما الشبابُ فغادروا إما للدراسةِ وإما للعملِ، ثم يعودون إليها في العطلاتِ والمناسبات، السعيدة منها والحزينة..

أما بطلُ القصة فقد وُلد في العاصمة وعاشَ فيها.. حيثُ يعملُ أبوه طَبيباً بهمةٍ وضمير بالغَين مِن دونِ سعيٍ وراء المالِ والشهرةِ.. وعلى الرّغْمِ من

ذلكَ اشتُهرَ وتنافستْ عليه المستشفياتُ الكبرى ومدرجاتُ التدريسِ الجامعيَّة. . ونشأَ بطلُ القصة في العاصمة الكبيرة. . درسَ في أحسن مدارسِها، حصلَ على أفضلِ تعليمٍ. . ذهبَ إلى أفضل الأماكنِ فيها. . لكنَّه وفي نهايةِ كلِّ أسبوع ـ تقريباً ـ كان يتخلَّى عن ذلكَ كلِّه ليتوجَّه برفقةِ أبيه وأمه في رحلةٍ طويلة تستغرقُ ساعات، يستخدمون فيها القطارَ ثم سيارة الأجرةِ، وأخيراً الدواب، لأن الطرقَ المعبدة لم تكن قد وصلَت إلى قريتهِ بعدُ.

وبعد وصولهم إلى منزلهم، ينتقلُ الأبُ فوراً إلى عيادةٍ ملاصقةٍ أعدها خصيصاً لأهلِ القرية. . يتفقَّدُ حالَها. . نظافتها. . يسألُ الخالَة أمَّ قاسم عن تعقيمِ الأدوات والإبرِ. . يطمئنُّ من الخالةِ عن كلِّ شيءٍ ويتأكَّد من أن العيادةَ جاهزةٌ لمباشرةِ المهمَّةِ. . وبعدَ أنْ يطمئنَّ ويتأكَّد بنفسِه من أن الأمورَ على ما يرام

يعودُ إلى المنزل لتناولِ طعامِ العشاء.. ثم يقول للأم جملةً مُتَكرِّرة: «أمامنا يومان مرهِقان.. لننمِ الآن حتى نستيقظَ صباحاً بنشاطٍ وافرٍ».

كانتِ الأسرُة الصغيرة تقضي يومين في القريةِ.. ثم تعودُ مساء الجمعةِ إلى العاصمةِ بفرحٍ أكبر وسعادة لا توصفُ.. أهل القريةِ فقراء.. وعيادةُ هذا الطَّبيب الطيبِ مجانيةٌ، لا يأخذُ من المرضى قرشاً واحداً.. يساعدُهم.. يُعطيهم الدواءَ.. يُجري لهمُ العملياتِ الجراحيةَ دون مقابلٍ.. ومنْ يحتاجُ منهم إلى عنايةٍ خاصَّة لن يتأخَّرَ في إرساله إلى العاصمةِ.. فيدخله المُسْتَشفَى أحياناً على حسابه الخاصِّ، أو بمساعدةٍ من أهلِ الخيرِ الصالحين.

أحببتُ هذا الرجلَ الطَّبيبَ حباً جماً، فقد أخلصَ في عملِه وصدقَ في تعاملِه.. لم ينتظرْ جزاءً ولا شكوراً.. كانَ الأطباءُ والممرِّضون والعاملون في

المُسْتَشفَى، يظنُّون أن الرجلَ يختفي يومَي الخميس والجمعة من أجلِ الراحةِ والاستجمامِ.. لأنه لم يكنْ يخبرُ أحداً عن أفعاله التي يجبُ أن يفتخرَ بها، وأرادَ أن تبقَى طيَّ الكتمانِ.

وفي يومٍ قال ابنُ الطَّبيبِ:

«أبي.. لماذا نفعلُ هذا كلَّ أسبوعٍ! ألا أستحقُّ قِسطاً من الراحةِ، بعدَ عناءِ أسبوعٍ كاملٍ من الدراسة والحفظِ ووجع الرأسِ؟ أريدُ الذهابَ إلى السينما، إلى المسرحِ، إلى البحرِ.. ألستُ مثل أصدقائي؟!».

كان الأبُ رجلاً طيباً رحيماً، يُجيبُ ابنه بهدوء:
«فرحةُ أهل القرية بوجودنا بينهم أكبرُ من كلِّ فرحةٍ.. نُداوي آلامَهم ونمسحُ دموعهم».

«وأنا.. ألا أستحقُّ أن أفرحَ مثلَهم؟».

«ألا تشعرُ بالسعادة عندما تدخلُ الفرح إلى قلوبِ الناس؟».

«أحتاجُ إلى عطلة أسبوعيةٍ حقيقية. . وأنت يا أبي، ألا يَحْتاجُ جسدُك إلى راحة؟».

«راحتي عندما أرى الذين نشأتُ بينهم يعيشون بلا آلامٍ وأوجاع. . راحتي في مساعدتهم».

«أنتَ لستَ مسؤولاً عنهم».

«كيفَ لا؟! أَليسوا هم أهلي؟ لكلٍّ منهم فضلٌ عليَّ. . قريتي هي وطني الصغيرُ. . وأهلُها هم عائلتي».

ولتكرارِ مناقشتهِ إيَّاه؛ أخبرَه أبوهُ مرةً بأمرٍ ما كان يعرفُه:

«سأخبرُك بسرٍّ؛ أهلُ القرية وقفوا معي عندما ماتَ جدُّك، يومها كنتُ صغيراً، فساعَدوني. . تابعتُ دراستي. . ساعَدوني أنا وأمي. . جَمعوا لي المالَ لأذهبَ إلى المدينة حيثُ درستُ الطبَّ. . استمروا في مساعدتي حتى نلتُ منحةً ومساعدةً من الجامعة». .

فرحَ الصبي. . وأنا أيضاً فرحتُ مثله كثيراً. .

اعتقدتُ أن كلَّ الأطباء مثل هذا الطَّبيبِ الشهم.. فهمتُ معهم معاناةَ الطَّبيبِ المخلص.. وصارَ الصبي ينتظرُ عطلةَ الأسبوع بفارغِ الصبر.. ومضتِ الأيامُ على هذه الحالِ.. حتى جاءَ اليوم الذي بكى فيه الصبيُّ الذي أصبحَ شاباً يافعاً.. وبكتْ أمه كما لم يبكِ أحدٌ من قبلُ.. بكتِ القريةُ كلُّها..

كان الابنُ فخوراً بأبيه صغيراً ويافعاً وشاباً.. صارَ الأبُ حديثَ أهل القريةِ في مجلسِ العزاءِ، أخبروا أصدقاءَه.. جيرانَه.. أخبروا المعزِّين كلَّهم.. أخبروا أصدقاءَ الأبِ من الأطباءِ والممرِّضين.. كشَفوا لهم سرَّ أبيه، أخبروهم إلى أين كان يذهبُ في عطلةِ نهايةِ كلِّ أسبوعٍ.. وأنه كان ينفقُ كثيراً من الجهدِ والوقتِ والمالِ حتى يدخلَ الفرحةَ إلى قلوبهم.

ترحَّموا عليه وقالوا: «خسارةٌ لا تعوَّض».

مضتِ الأيام.. وكبرَ الصبي وتخرجَ في

الجامعةِ.. تزوجَ وأصبحَ عندَه أولادٌ.. كان مثل أبيهِ يذهبُ في عطلةِ نهايةِ كلِّ أسبوعٍ إلى قريته.. وتحديداً إلى عيادةِ أبيه.. تساعدُه زوجته وأولادُه.. وأيضاً ابنةُ الخالة أم قاسم.. ويقولُ الابنُ ـ الذي شابهَ أباه ـ بعد تناولِ طعام العشاءِ كلَّ يوم أربعاء: «أمامنا يومان مُرهقانِ.. لننم الآنَ.. نستيقظُ صباحاً بنشاطٍ وافر».

هو اليوم طَبِيبٌ شهيرٌ مثل أبيه.. كلَّما رآه أهلُ القرية قالوا: «رحمَ الله أباكَ.. من خلَّف ما ماتَ».

أمَّا هو فيقولُ: «فخرتُ بأبي حيّاً وميتاً.. أريدُ أنْ يَفخرَ بي أولادي كما فخرتُ بأبِي».

كانتْ هذه القصةُ تدهِشني كلَّما تذكَّرتها.. وقد رَويتها لِمنير مرَّة، ثم طلبَ منِّي لاحقاً روايتها عدَّة مراتٍ.

في الحقيقةِ؛ عندما قرَّرتُ السفرَ لم أكنْ أتوقَّع العملَ في هذا المُسْتَشفَى، وعلى الرّغْمِ من أنني

لا أحبُّ المستشفياتِ التي لا بدَّ أن يأتيَ إليها ملاكُ الموت كثيراً، فإني كنتُ أمنِّي النفسَ بِلقاءِ أطباء مثل هذا الأبِ وابنه الطَّبيبين في القصةِ، في الوقتِ الذي كنتُ أسعَى فيه للهربِ من ذكرياتِ الموتِ والألمِ، فحاولتُ جاهداً أنْ لا أسمعَ ولا أرَى. لكنَّ الواقِع كان أقوى من تِلكَ المحاولاتِ، فهو يُدهش المبصر كما يدهشُ السامعَ.

كنتُ أقضي الوقتَ في التنظيف، مِن دونِ أنْ أنظرَ إلى المرضى، مبتعداً عنهم قدر الإمكانِ، كي لا أسمعَ أنينَهم، ولا أرى دموعَهم..

ولم أكنْ أعتقدُ - بعد أن جذبَني حب هذا الفتى - أنني سأشهدُ من جديدٍ آلامَ الموت سريعاً، وأنْ يحدثَ أمامي ما سيغيِّرُ مسارَ حياتي، ويقلبُ كلَّ أفكاري، ويعيدُني إلى الوراء سنواتٍ عديدة، بقلبِ إنسان آخرَ يرتدي ثوبَ الحزن المزمنِ، لا يحملُ في جعبتِه إلا

الذكرياتِ المؤلمَة.. وحكاية مرضٍ طويل، بدأ في ليلةِ رأس السنة، ولم ينتهِ إلا بعد سبعة أشهرٍ بالتمام والكمالِ، عند المكانِ الأخير الذي يصلُ إليه جسدُ الإنسانِ في ختامِ حياته الدنيا، حين تنطلقُ روحُه إلى خالقِها لتبدأَ رحلة حياةٍ جديدة عليا، ملؤها الفرحُ والسعادة والحبور، بعد حياةٍ عامرة بالإيمان..

فكيفَ إذا كانَ بطلُ الحكايةِ طِفلاً لم يكدْ يبلغُ الحلم؟!!!

6

قَلْبُ الأُمِّ قَلْبُ أُمَّةٍ

ـ هل هناك قلبٌ أكثرُ ارتياعاً من قلبِ أم، تخشى مرضاً أضْناها بعد أن أصابَ كبدها؟!

ـ هذا الطَّبيبُ لو كان في مُسْتَشفى استثماريٍّ ما كان ليتكلَّم بالطريقة نفسِها التي تكلَّم بها مع هذه الأمِّ. . ولن تكونَ نظراتُه «المستهزئةُ» و«اللامباليةُ» هي نفسُ النظراتِ التي رمقها بها وهو يلقي الورقةَ على الطاولة؟!

ـ صحيحٌ أن جدَّتي لم تكنْ حاصلة على شهادةٍ في الطب. . لكنَّها لم تقم يوماً بعلاج مريض إلا والابتسامةُ تطفو من قلبِها إلى شفتيها وعينيها وكل ملامحِها. .

❊ ❊ ❊

نبرةُ الحزنِ لم تنقطعْ. .

الذكرياتُ الحزينةُ تعيدُني من جديدٍ إلى البداية. .

إلى رأس السنةِ الميلادية. .

«السلامُ عليكم يا دكتور».

نبرةُ صوتٍ قلقة خافتة حزينة لأم ملهوفةٍ على ولدها. . نبرةٌ حزينة رنانةٌ لم تنقطع؛ من البداية حتى النِّهاية. .

وهل هناكَ قلبٌ أكثر ارتياعاً من قلبِ أم مرهفة، تخشى مرضاً أضناها بعد أن أصاب كَبدها؟!

«وعليكمُ السلام. . خيرٌ إن شاءَ الله». .

في مقابل إحساسِ الأم الصادقِ لهجةٌ باردةٌ في جو بارد. . في مكانٍ صاخب مليء بالضجيج.

«ابني يا دكتور يشعرُ بألم في بطنه، ولديه إسهال مستمرٌّ منذُ مدة».

تواصلُ الأم حديثَها بنبرة قلقةٍ، تحاولُ أن تشرحَ

لطَبِيبِ المعاينة الأوليَّة حال ابنها. . لكنَّه انشغلَ عنها بهاتفه النقَّال، ثم يجيبُها وكأنه رجلُ مباحثٍ اكتشف للتوِّ جريمةً، يريدُ أن يلصقَها بأي مُتَّهم محتمل: «ألمٌ في بطنِه؟!». .

يرسمُ على شفتيه ابتسامةً باهتة: «لا تبدو عليه آثارُ الألم. . أكلَّما شعرتُم بدوارٍ خفيف أو بمغص بسيطٍ تأتون إلى المُسْتَشفَى؟!».

تبقى الأم صامتةً. . فيقولُ:

«ألمْ أركم هنا قبلَ أيام؟؟ هل يجدرُ بي أن أخبركمْ أن المُسْتَشفَى ليس مكاناً لتمضية الوقت؟!».

«هل تقصدُ أننا نأتي لنهدرَ وقتك ووقتنا. . وأننا جئنا إلى هنا لكي نتسلَّى؟!!! ربما اختلطتْ عليك الأمورُ بيننا وبين غيرنا!!! يا أخي؛ الولدُ لا يَستَطيعُ الوقوف على قدميه بسهولةٍ، ولا يمكنُه المشي جيداً».

تغيرتْ نبرةُ الأم قليلاً. . لم تكن النبرةُ عالية، غير

أنها كانتْ مشحونةً بالتحسُّر على النفس بسبب هذا الاستقبال الجافّ، فيما كان داخلها يتألمُ.. كان ألماً حقيقياً، لا مجردَ تعاطف، بل هو تماهي أمٍّ مع آلام ولدها..

سبحانَ ربي، وكأنَّني أشعرُ بهذا القلبِ الرقيقِ يخفقُ، ليس في صدرها، بل في صدرِ ابنها!

عجباً لقلبِ الأم!

إن قلبَها كلَّه خيرٌ..

إنْ فرحَ أطفالُها نبض بفرح، وإن حزنوا نبَض بحزن.. وإن بكوا نبض ببكاء.. يا لها من مخلوقٍ ليس كسائر البشر..

ألم يقلِ اللهُ تعالى عنها: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾؟!

وقد ذكرَ اللهُ تعالى الأمَّ في وهنٍ وفي تعب وحمل

ورضاعة.. ولم يذكرْ للأب ما يماثلُ من أفضالٍ، لكنَّه ألحقهُ بالأم؟!.. سبحانَه!!

ألم يوصِ رسولُ الله ﷺ بالأم ثلاثاً، ثم أَوصَى من بعدها بالأب مرةً واحدة؟

فكرتُ بكلِّ ذلكَ سريعاً، كوميضِ برْق، فيما كنتُ في هذه الأثناءِ أقومُ بمهمَّتي المكلَّف بها في غرفة طَبِيب المعاينة الأولية، وهي مرحلةٌ أولى تسبقُ دخولَ المريض إلى غرفة الطوارئ.. وتحدِّدُ له الغرفةَ التالية التي يتوجَّهُ إليها..

ولمَّا تغيرتْ نبرةُ الحديث ازدادَ اهتمامي بأمرِ هذا الصبي الذي كانَ يراقبُ بعينيه المجهدتَين الحوارَ الدائر بين الأم والطَّبيبِ:

«ألم نركم هنا قبل أيام؟!».

يبدو الطَّبيبُ «مستهجناً» عودةَ الصبي، دون أن يعبِّرَ بصراحة تامَّة عمَّا يفكرُ في نفسه..

اكتفَى بالتَّلميح مِن دونِ التصريح.. دون أن أفهمَ السببَ، ولماذا يقرِّر حالَ الصبي مِن دونِ أن يتكرَّمَ بفحصِه، أو حتى أن يضعَ سماعتَه على صدره، وكأنه استثقلَ رفعَها من على كتفيه.

«نعم، صحيح.. ما شاء الله عليك يا دكتور، ذاكرتُك قوية.. عرفتَنا من بين كلِّ المرضى.. واليوم أيضاً ما زال مريضاً، بل تفاقمَ مرضُه أكثر من السابق.. وحالُه تسوءُ يوماً بعد يوم».

تنَحنحَ طَبِيبُ الطوارئ العام.. رفع رأسَه.. ثم رمَى الأم بنظراتٍ مشكِّكة بما قالتْه.. التفتَ نحوَ ابنِها قبلَ أنْ يَختم ورقة الدخولِ إلى طَبِيبٍ آخرَ، وألقاها على الطاولة أمامَ الأم، ببرودٍ ودون مبالاة، ومعها الرقم المُتَسلسل، راسماً على ملامحِ وجهه عبارات مبهمةً، تدلُّ في آنٍ معاً على أنه غيرُ مصدِّق لكلامها وأن الأمرَ لا يهمُّه..

المشهدُ كان مؤلماً، ربما أكثر من المرضِ نفسِه. .

ليسَ المطلوبُ من الطَّبيبِ أنْ يكونَ مرشداً سياحيّاً في مُسْتَشفى عمومي، ولا حتى في مُسْتَشفى استثماري. . أو أن يكونَ مرفهاً شخصيّاً. .

بالنِّسبةِ لي كعاملِ تنظيفاتٍ ـ على الرّغْمِ من أنه ليس عندي غير مكنسةِ التنظيفِ والعصا الطويلة وعمَلي المرهِق ـ فإنني أحاولُ دائماً رسمَ الابتسامةِ على شفتي ما استطعتُ إلى ذلكَ سبيلاً. .

ألم نتعلَّمْ ونحفظ في المدرسةِ أن الابتسامةَ صدقةٌ؟!

صحيحٌ أن جدَّتي لم تكنْ حاصلة على شهادة معتمَدة في الطبِّ، ولم تدرسْ في جامعة. . لكنَّها على الرّغْمِ من ذلكَ كله لم تقم يوماً بعلاج مريض بزيتها المضيءِ إلا وكانتِ الابتسامةُ تطفو من قلبها إلى شَفَتيها وعينيها وكل ملامحها. .

كنتُ على الدوامِ أراها مبتسمةً كطفل صغيرٍ

سعيد، حتى وإن كانتْ مرهقةً مُتَعبة مُتَألمة.. ولاسيما عند مرضِ أبي!!

قد لا يكونُ زيت جدَّتي في الحقيقة الدواءَ الذي يَحْتاجه المريضُ ليداوي مرضه، لكنَّ ابتسامتَها كانتْ تشفي بكلِّ تأكيد، بما تحتويهِ من دعم نفسيٍّ وإحساس صادق مرهف.. كانتْ تقوم بعملِها برِضا وطِيب نفس..

وعلى الرّغْمِ من أنها كانتِ الطَّبيبة الوحيدة في قريتي النائيةِ، ولم يكن هناك من ينازعُها وينافسها في عملها، فإنها لم تكن تَحتاجُ لأيِّ دعاية أو مجاملةٍ.

لكنَّ الحقيقة تقولُ مِن دونِ أدنى شكٍّ؛ إنَّ هذا الطَّبيب نفسَه لو كان في مُسْتَشفى استثماري ما كان ليتكلَّم بالطريقةِ نفسها التي تكلّم بها مع هذهِ الأم.. ولن تكونَ نظراتُه «المستهزئة» و«اللامبالية».. هي النظرات نفسها التي رمقَها بها وهو يلقي الورقةَ على الطَّاولة؟! بل كان سيقفُ أمامها بكلِّ احترام وتقدير،

باحثاً عن مئة مرضٍ ومرض.. ويعرض عليها خدماتِ العياداتِ الخاصَّة بكلِّ تفاصيلها المملَّة، ما دامتِ البطاقة المصرفيةُ عامرة بما لذَّ وطاب، مسرفاً بالثناءِ على الأم التي قامتْ بنقلِ ابنها «المسكين» إلى المُسْتَشفَى بهذه السرعةِ..

وسوف يمتدُّ المديحُ وصولاً إلى الأب أيضاً.. بل إلى الابنِ المريض نفسه، وحتى سائق سيارةِ الأجرة إن وجدَ!!!

وسيرسمُ بعد ذلكَ الابتساماتِ العريضةَ حتى يصلَ بطرفَي فمه إلى أقصى ما يمكنُ.. وقد يتراجعُ خطوةً مع اتساعِ ابتسامتِه إلى الخلفِ، ويجزلُ في التَّعاطف والرأفة والتألُّم لحالِ الفتى.. وربما بما يفوقُ مشاعرَ الأم نفسها، وفوقها حال الأبِ..

لم أكنْ أحسبُ أن الطَّبيبَ بشرٌ مثل سائرِ الناس.. كنتُ أظنُّ أن الأطباءَ من طينةٍ مختلفة..

فكيفَ يستهزئُ بقلبِ أمٍّ ومشاعر أب ومرضِ طفل؟!

وكيف تتحوَّلُ مهنته الساميةُ إلى مجرد مهنةٍ ووظيفة، يموتُ معها القلبُ، وتفترُ الهمةُ.. فتنقلبُ المقاييسُ؟!

أردتُ أن أعترضَ وأنا أستمعُ إلى هذا الكلامِ.. أن أصيحَ به:

تواضعْ يا سيدي.. أُنظرْ إلى قلبِ الأم الذي يتفطَّر أمامك.. طببه عوضاً عن أن تزيدَه تقطيعاً..

هدئْ من روعكَ يا سيدي، وقمْ بعملك ولا تتذمَّر ولا تتكبَّر.. فقد تدورُ الدوائر يوماً وتكون في مكانها.. أو في مكانِ هذا الفتى..

ويا أنتم.. أيُّكم المحصَّن من «هذا»؟!!!

بل أيُّكم ينجو من المرضِ.. وعذاباتِ المرض.. وأوجاع المرضِ!!!

يحني الأبُ رأسَه مُتَفرِّساً في بلاطِ المُسْتَشفَى.. تأمَّل شكله.. أطالَ النظرَ فيه وثبَّته عليه.. كأنه يريدُ أن يحصيَ عددَ البلاط، ويدقِّقَ النظرَ في درجاتِ ألوانِه..

عَجباً من هذا الزمانِ؛ شخصٌ مثله من المفترضِ أن يكونَ ـ بصفتِه الطبية ـ أكثر رأفة من ملائكةِ الرحمةِ كما يصفونَهم.. فهو مسؤولٌ عن أمراضِ البسطاءِ وأوجاعِهم.. لكنَّه يصدرُ الأحكامَ المسبقةَ بغير جهدٍ ولا تحقيق.. حقاً! إن الثوبَ الأبيضَ لا يليقُ به.

كان الأبُ في هذه الأثناءِ يبدو وكأنه يريدُ أنْ يَرفسَ هذا الرجلَ المُتَعالي بقدمِه رفسةَ ثورٍ هائجٍ.. لكنَّه صبرَ، فليسَ باليدِ حيلة، ثم تمتمَ: «الصبر.. الصبر مفتاحُ الفرج..».

«الحمدُ للهِ على كلِّ حالٍ.. الحمدُ لله.. نرجو من اللهِ الآن أن نصلَ لطَبِيبِ الطوارئِ المُتخصِّصِ بسرعة.. أمامنا طابورٌ طويلٌ.. اِجلسْ يا حبيبي لترتاحَ.. لا ترهقْ نفسَك بالوقوفِ الطويلِ منتظراً».

يستندُ منير على ساعدِ أبيه، يمشي الهُوَيْنى باتجاهِ أقربِ كرسيٍّ يراهُ، حيثُ ينتظرُ عددٌ من المرضى..

ينظرون إلى تسلسلِ الأرقامِ وهي تتقلبُ على شاشةٍ إلكترونيةٍ صغيرة أمامهم.. أعينهم مشدودةٌ إليها، يرتقبون دورهم.. كم هو صعبٌ الانتظارُ في مثل هذا الوضعِ!

وكم هو سيءٌ التنظيم المُتَحكم بآلامِ الناس!

يقولون إن الأولويةَ لكبارِ السنِّ والمعوقين.. لماذا لا تكونُ الأولويَّة أيضاً للموجعين المُتَألِّمين؟!!

أحدُهم يعلو صوتُه بالصراخِ.. شخصٌ في الداخلِ يعبرُ عن غضبِهِ لأمرٍ ما.. نسمعُ كلاماً غيرَ مفهومٍ مِن دونِ أن نرى صاحبَه..

الضجيجُ في قاعةِ الانتظارِ يختفي فجأةً، ويسودُ السكونُ في الأجواءِ..

الناسُ شغوفون بمشاكلِ الآخرين..

ينسون همومَهم عندما تنشغلُ نفوسُهم بهمومِ الغيرِ.

يفتحُ الأبُ جهاز الهاتف وكأنه في عالمٍ آخرَ.. يتلو بعضَ آياتٍ من القرآن الكريم بصوت منخفضٍ..

استقبلَ رسالةً تستفسرُ عن حالةِ منير، يكتبُ ويتمتمُ:

«الحمد لله.. الحمد لله.. الولد بخير لا تَقلقُوا.. نحنُ الآنَ ننتظرُ دورَنا عندَ طَبيبِ الطوارئِ.. سنتصلُ بكم لاحقاً».

ينظرُ إلى الأم وبينَهما منير: «هل اتصلتِ بالبيتِ للاطمئنانِ على منى ومحمد؟»..

«سأتَّصل حالاً.. وإن شاءَ الله لن نتأخَّر..».

«أوصلْناهما وتركْناهما عندَ المصعدِ مِن دونِ أن نطمئنَّ علَيهما»..

يتوجَّه الأبُ بنظرهِ إلى وجوهِ الناسِ.. أوجاعٌ كثيرةٌ.. يتنهدُ تنهيدةً عميقةً يهمسُ في نفسِه: «يا تُرى لماذا يختارُ اللهُ هؤلاءِ البسطاء ليُصابوا بالمرضِ؟ ولماذا أساساً يكون المرضُ والوجع؟

الحمدُ لله، هذه حكمتُه، له الشكرُ على كلِّ حال.. الحياةُ هناك أفضل، لا مرضَى ولا أطباء ولا مستشفيات».

يسمعونَ صِياحاً:

«ابتعدوا.. ابتعدوا.. أفسحوا الطريق»..

ثم يدخلُ من البابِ الواسعِ عددٌ من الرجالِ الأشداءِ مسرعين، يجرُّون سريراً مُتَنقلاً عليه شابٌّ يسيلُ الدم من كتفِه، يبدُو أنه في العشرينياتِ من عمره، ينقلونهُ مباشرةً إلى طوارئِ الجراحةِ.

«يا ربّ احفظْنا».

تتردَّدُ الأصواتُ بالدعاءِ والرجاء.

تتبادلُ الأم مع الأبِ نظراتِ الحزن الدامع بسخاءٍ، ومنير مشغولٌ عن الجميعِ بآلامه..

7

الاغْتِرَابُ حَالَةٌ مَأْسَاوِيَّةٌ

ـ أتمنَّى أن يشفَى الناسُ جميعاً، وأن تصبحَ المستشفياتُ خاويةً على عروشِها، لا مريض ولا طَبِيب، فتكسدُ مهنةُ الطبِّ، وعندَها لن نرى طَبِيباً يُدلي على كتفيهِ سماعتَه الطبيةَ مُتَبختراً مُتَباهياً.

ـ لا يوجدُ ما هو أصعبُ من أن تكونَ وحدكَ في بلدٍ غريبٍ.. وخاصَّةً عند الحاجةِ لقريبٍ يمسحُ دمعتَكَ..

ـ أشاحتِ الأم بنظرها عنه، تُخفي عن ولدها بريقَ عينيها الحزينتين الدَّامعتين..

ـ الأبُ يعلِمها بعدَ أن نظرتْ إليه معاتبةً أنه ليس بمقدورِهِ الاعتراض: «هذه هي الإجراءاتُ المُتَبعةُ».

❊ ❊ ❊

كثيرٌ من المرضَى يجلسونَ فُرادى، مُتَقاربين ومُتَباعدين. .

ملامحُهم مختلفةٌ. . بعضُهم من شرقِ آسيا. . وآخرونَ من شمالِ أفريقيا أو من وسطها، أو من الشرقِ الأوسط. . ومنهم من يختلطُ أمرُهم على النَّاظرِ إليهم. .

لوحدِهم يتألَّمون. .

يشدُّ بعضُهم بطنَه من الألمِ. . وآخر يُمسكُ يدَه المُتَألمة بيدِهِ الأخرى السليمةِ. .

وثالثٌ. . ورابعٌ. . وخامسٌ. . في حلقةٍ مفرغةٍ لا تنتهي. .

حالاتٌ مرضية مختلفةٌ. . يجمعُهم المرضُ والوحدةُ: لا أنيس ولا رفيق. .

لا يوجدُ ما هو أصعبُ من أن تكونَ وحدكَ في بلدٍ غريب. . وخاصَّة عندَ الحاجةِ لقريبٍ تربطُ بينكَ

وبينهُ علاقةُ دم، فلا أخٌ يحملُ همَّك، ولا أختٌ تمسكُ بيدك، ولا ابن عمٍّ يمسحُ دمعتك. الاغترابُ حالةٌ مأساويةٌ قاسية، لا فرقَ إن ذهبتَ شرقاً أو غرباً، إلى بلدٍ عربيٍّ أو أجنبي..

الغربةُ كما يقولون «كربة»، مهما تزينتْ بألبسةٍ مزركشةٍ، وتجمَّلت بأصباغٍ ومساحيقَ ملونةٍ.

«أنا أفضِّل دائماً بلادنا العربية، فكيفَما اتَّجهنا نسمعُ نداءَ المؤذِّن ونشاهد ناراتِ المساجدِ. في الغربِ المساجدُ قليلة، بل نادرةٌ.. وعلينا قطع مسافاتٍ طويلة لنصلَ إلى أقربِ مسجد.. هنا نسمعُ المؤذنَ في كلِّ مكانٍ توجَّهنا إليه».

كان الأبُ يردِّدُ ذلكَ.. ولم يحسبْ حسابَ المرضِ والعلاجِ: «إذا لم يكنْ من الغربة بدٌّ، فإني أختارُ بلادي العربيةَ مِن دونِ شكٍّ».

كانتْ أمامَه فرصٌ عديدةٌ.. لكنَّه «القدر

المحتوم»، كما سمعتُه يقولُ لابنه.. يريدُ أن «يسلِّيه» كي يمرُّ الوقتُ بسرعة.

يقتربُ رقم منير.. عليه أولاً أن يدخلَ غرفةً جانبيةً ليجريَ فحصَ الحرارة والضغطِ والدم والسكر..

«تبدو الأمورُ تسيرُ على أحسن ما يرام.. ها هي الأرقامُ تسيرُ بِشكلٍ مُتَسارع».

يقول الأبُ ذلكَ للأم معبراً عن إعجابٍ يخفي كثيراً من الرِّيبةِ والرهبةِ.. أما الأم فلم تكنْ مطمئنةً على الإطلاق.. تشعرُ أنها تتَّجهُ نحو موقفٍ خطيرٍ ستندمُ عليه لاحقاً.. هو ابنُها البكرُ، بينه وبين أخته نحو سنتين، وأما أخوه الصغيرُ فأصغرُ منه بثماني سنوات..

«قال لي الدكتور مصطفى: لا تُرسلْ ابنك للعلاج في الخارج.. هنا العلاجُ بالمجَّان، وقد أنفقتَ أموالاً كثيرة.. وقولُه الأخير حقٌّ.. حتى إننا لم نعد نملكُ ما يكفي للسفرِ.. أخبرَني أن الفحوصاتِ هنا جيدةٌ..

فلماذا لا نُحاولُ؟ خاصَّة أنني أثقُ بالدكتور مصطفى كثيراً».

هذا ما ردَّده الأبُ وكأنه يريدُ أنْ يُقنِعَ نفسه، مُستذكراً أمامَ الأم آخرَ سفرةٍ لابنه إلى الخارج، وإنفاقَه الكثير من المال، دونَ تحقيق أي نتيجة تذكر..

«لكن حالتَه لم تكن كما هي الآنَ.. كانَ يبدو طبيعياً إلى حدٍّ كبير».

الأم تعترضُ فيما كان منير في هذه الأثناءِ جالساً بصمتٍ في مقعده منتظراً إما مُنصتاً وإما مُتَصنعاً للإنصات، لكنَّ فكره منشغلٌ باستعادةِ بعضٍ من ذكرياتِه الجميلةِ..

بدا أنه ليس من النَّوع الذي يتكلَّم كثيراً، حتى وهو بصحةٍ جيدةٍ.. يظهرُ من ملامحه أنه مقلٌّ بالكلام.. يتحدَّث كما يقولون بِـ «القطَّارة»، لكنَّه عندما يتحدَّث فإنه كان ينطقُ بما يؤشِّر إلى فطنته..

الأم: «واللهِ يا أبو منير.. ابنُك يفهمُ أكثر من هؤلاء الأطباء».

الأبُ يثبُ من مكانه: «هيَّا بسرعة.. لقد وصلَ رقمنا».

يقومُ منير من مقعدهِ بهدوءٍ واحتراسٍ بالغَيْن، مُتَوجِّهاً نحو غرفةِ طَبِيب الفحصِ الأولي..

الأم: «يا لها من تعقيداتٍ.. من طَبِيبٍ إلى طَبِيب إلى آخرَ.. اللهُ يسهلُ أمرَك يا ابني يا منير».

الأبُ يتلو قولَ الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

الأم: «صَدقَ اللهُ العَظيم».

يدخلُ منير وحده غرفة الطَّبيبِ بحسبِ التعليماتِ على مدخلِ الغرفة.. البابُ يظلُّ مفتوحاً بِشكلٍ دائم..

«يبدو أن هذا الطَّبيبَ طيبُ القلب، فهو يتعاملُ مع منير بلطفٍ بالغ.. أرجو أن ينتهيَ الأمرُ بسرعةٍ».

«صبراً يا أم منير صبراً.. يقولون إن كلَّ المخاوفِ تجلبُ الهمَّ إلا الخوف من الله.. ومهنةُ الطِّب دقيقةٌ وخطيرة، والشرفاءُ من أصحابِ هذه المهنةِ يراقبون اللهَ في عملِهم.. والناسُ مختلفون.. هم يَتعبونَ كثيراً.. اللهُ يعطيهم العافيةَ على ما يبذلون من جهدٍ».

«صحيح.. الله يكونُ في عونهم».

دقائقُ قليلة ويخرجُ منير من غرفةِ الفحصِ الأولي ومعه النتيجةُ: «يجبُ علينا الانتظار من جديدٍ إلى حين الدخولِ إلى غرفةِ الطَّبيبِ المُتخصِّصِ».

أشاحتِ الأم بنظرِها عنه، تخفي عن ولدها بريقَ عينيها الحَزينتين الدَّامعتين.. الأبُ يُعلمها بعدَ أن نظرتْ إليه معاتبةً أنه ليسَ بمقدورهِ الاعتراض: «هذه هي الإجراءاتُ المُتَّبعة».

«قد يكونُ هناك قلَّةٌ ممن لا يشعرونَ بحزن المريضِ وأوجاعه وقلَّة صبرِهِ.. وهم معذورون، سيشعرون ويتعاطفون مع هذا أم مع ذاكَ!.. وكلٌّ من في هذا المكان الرَّحب الواسعِ حشدٌ من المرضى يتألَّمون ويئنُّون.. لا شكَّ أنهم اعتادوا على هذا، فأصبحَ الألمُ عندهم أمراً طبيعيّاً معتاداً، وربما باتَ تعاطفُ بعضهم مع المرضَى شكليّاً».

الناسُ تشعرُ أنَّ رفاهيةَ الطَّبيبِ مرتبطةٌ بكثرةِ المرضى ـ أو هكذا يظنُّ بعضهم ـ وهناك مَن يقولُ ذلكَ ويخلطُ الجدَّ بالهزلِ، لكن لا بدَّ من الاعترافِ والإقرارِ بأنَّ صحةَ الكثيرِ من الناسِ وحياتهم مرتبطةٌ ـ بعدَ إرادةِ اللهِ تعالى ـ بجهدِ الطَّبيبِ الذي يبذلُه نحوهم.

«يا لِهذا المرضِ!! لولا أنني أعلمُ أنَّ المرضَ من اللهِ لشتمتُه.. لكن علينا أن نقولَ: الحمدُ لله في

السراءِ والضراءِ.. وأن نتذكَّرَ كثيراً من الأحاديثِ النبويةِ التي تبشرُ بأنَّ المرضَ يزكِّي النفسَ ويطهِّرها من المعاصي».

«ماذا تقولُ يا أبو منير!! عن أيِّ معاصٍ تتكلَّم؟!! ابنُك لم يكدْ يبلغُ الحُلمَ بعد، وكانَ قمةً في الأخلاقِ.. يبدو أنكَ خرفتَ».

«نعم.. لقد خرفتُ منذ أن قرَّرتُ العيشَ في الغربةِ.. الغربةُ تبعدُ الإنسانَ عن كلِّ الأشياءِ الجميلة والمحبَّبة إلى النَّفس، تنزعك بدايةً من الأبِ والأم، وتبعدُك عنهما».

«لهذا السببِ كنتُ كلَّما فكَّر منير بأنه سيسافرُ إلى الوطن عندما يُنهي المدرسةَ ليكملَ الدراسة، أفكرُ بأن أسافرَ معه وأضعَ حدّاً للغربة»..

«كما أنَّني كنتُ أفكِّر بأن منيراً بعد سنواتٍ قليلة عندما يُنهي الجامعة سيفقدُ الإقامةَ في البلدِ التي نقيمُ

فيها بعيداً عن الوطن، أو علينا أن نجدَ كفيلاً ينقلُ عليه إقامته.. فيا لها من غربةٍ سأورثهُ إياها.. بدلاً من أن أورثَه وطناً يسعدُ فيه سأورثهُ غربةً تبعدُه عن أهله وخلّانه وتجعلُه أسيرَ جوازِ السفرِ».

«أخيراً حانَ دورُنا.. هيا بنا يا منير.. هيا ندخلُ إلى الطَّبيبِ بسرعة».

لم تكنِ الأم تدركُ أن هذا الطَّبيبَ ليس هو الطَّبيب الأخير، فما أن قامَ بفحصهِ سريعاً حتى قالَ لها: «للأسف.. جميعُ الأسرةِ في غرفةِ الطوارئ مشغولةٌ، عليكم الانتظار فترةً من الوقتِ حتى يفرغَ سريرٌ، هناك قبلكم مرضى عدَّة ينتظرون، لا بدَّ من الانتظارِ، أو تذهبون إلى البيتِ ثم تعودون في وقتٍ آخرَ.. اليوم هناك حالاتٌ كثيرةٌ، ربما بسببِ الاحتفالِ برأس السنة».

قال الطَّبيبُ ذلكَ وهو يضحكُ ممازحاً وكأنَّها

فرصةٌ للتَّرفيه عن نفسهِ، خاصَّة أنَّه يشعرُ بخفَّة ظلٍّ، وكان كمن يرقصُ على الجراحِ..

يضربُ الأبُ بلاطَ الغرفةِ بحذائهِ كثورٍ يحملُ على ظهرهِ قواريرَ من فخارٍ. وَمَا الذي يَستَطيعُ أن يفعلَه غير ذلكَ؟! الانتظارُ لم يكنْ سببَ الغضبِ المغلفِ بابتسامةٍ ووجهٍ بشوش، لكنْ طريقة الكلامِ التي حرصَ عليها الطَّبيبُ.

«صبراً يا أم منير صبراً.. ما معنى أن نذهبَ ونعودَ من جديد بعدَ فترة؟ هل أَتينا لنشاهدَ فيلماً سينمائياً لبطل مشهورٍ، فوجدْنا أن العرضَ قد بدأَ والمقاعدَ كلها محجوزة، ما هذا الكلام؟!!! يريدنا أن نذهبَ ثم نعودَ عندما يبدأُ العرضُ القادم! مهزلة».

يلتفتُ نحو ولده منير مُتَظاهراً بالهدوءِ والرِّضا: «بماذا تشعرُ الآن؟».

يبدي منير سعادةً واهية، وعلى شفتَيه ترتسمُ

ابتسامةٌ ساخرة، فهو كما يبدو من البدايةِ أنه لم يكنْ راغباً بالمجيءِ إلى المُسْتَشفَى:

«الحمدُ لله.. أنا في حالٍ أفضل.. هيَّا إلى البيت».

مَنْ مِنَ الناسِ يحبُّ المرضَ ويهوَى المستشفياتِ؟!

من ناحيتي أتمنَّى أن يشفَى الناسُ جميعاً، وأن تصبحَ المستشفياتُ خاويةً على عروشها لا مريض ولا طَبِيب، فتكسدُ مهنةُ الطِّبِّ وعندَها لن نرى طَبِيباً يدلي على كتفيهِ سماعتهُ الطِّبية مُتَبختراً مُتَباهياً، ولن نسمعَه حينما يفشلُ في علاجِ مريضٍ ـ مخطئاً بالتَّشْخيصِ أو مهمِلاً بالمُتابَعَة ـ يقولُ معلِّلاً فشلَه: «لم يستجبْ للعلاج».

كنتُ أتمنى أن أتعثَّر يوماً بطَبِيبٍ يعترفُ بخطئه.. أن يقولَ: أخطأتُ فسامحْني أيُّها المريض الذي أسأتُ إليكَ وأنت في مرضكَ! أن يعترفَ بإهماله عندما يهملُ.. أن يعترفَ بشهوتهِ للمال وللشهرة..

لكن ما هذه الأمنيات السخيفة.. المريض في سجل الطَّبيب المُتَعالي شيء لا قيمة له.. مجرد مريض يدفع فاتورة العلاج.. وحتى وإنْ كان العلاج بلا «علاج».. بل وحتى وإن كان العلاج مسبباً لمضاعفات، أو حتى مؤدياً إلى «الموت».

وقد سمعت يوماً طَبِيباً مُتَقدماً في السن يتحدث عن تجاربه قائلاً: «هل تظن أن الأطباء يعرفون حقيقة ما يجري داخل جسم المريض؟ فكم من مرضى عاينتهم، وأعطيتهم دواء ثم شفوا لوحدهم، لا أظن أن الدواء هو الذي شفاهم، وَمَا أدراني أساساً ما الذي في داخلهم، المريض يقول لي بطني يوجعني فأعطيه دواءً فيشفى، ويكون قد شُفي وحده وليس بسبب الدواء»..

وما أكثر أمثاله.. اللهُ يبعدنا عنهم.. حتى عندَ إجراءِ الفحصِ والأشعة من بينهم من ليس عنده جلَدٌ لكي يقرأَ تفاصيلَ ما كتب من نتائجَ، وغالباً لا يطلعُ

على النتيجةِ بنفسه، بل يطلبُ سماعَها باختصارٍ من غيره.. وكثيراً ما كنتُ أسمعُ النتائجَ بِشكلٍ خاطئ.. الله يرحمنا ويبعدنا عن المرضِ وعن الأطباءِ.. وخاصَّة عندما نرى بعضَهم يتفاخَرون ويتعالون.. ولَطالما تذكرتُ شعراً جميلاً فيه حكمٌ جليلة يقولُ:

يا مَنْ تباعدَ عن مَكارم خلقه
ليسَ التَّفاخُرُ بالعُلومِ الزَّاخِره
مَنْ لمْ يهذِّبْ علمَهُ أخلاقُه
لمْ ينتفِعْ بِعُلومِه في الآخِرَهْ

أما أمنيةُ منير الأخيرةُ فلم تتحققْ.. ويا لَيتها تحققتْ.. ربما لو تحققتْ لكانتِ الرِّيحُ سارتْ كما تشتهي السفنُ..

لكن الرياح قد تهبُّ في مسيرتها كما تشتهي هي لا كما يشتهي الربانُ..

وانتظرَ الأبوان طويلاً.. ومعَهما انتظرَ

صغيرهما.. والمنتظر يشعرُ بأن الوقتَ يمرُّ ببطء شديد للغايةِ مثل بطءِ السلحفاة.. لم يكن لدَيهما خيارٌ آخرُ.. لم يَخرجا من المُسْتَشفَى في الحالِ بل بعد شهورٍ..

ولم يكنِ المصيرُ كما تمنَّى منير، إذ خرَج بعد سبعة أشهرٍ كاملةٍ نحو مكانٍ لم يكنْ في حُسبانه، ولم يكنْ يتمناه، أقلَّه في فترةٍ قريبة مقبلة.. فقد حملَ الأب والأم ابنَهما إلى مقرٍّ جسده الأخيرِ..

كنتُ في تِلكَ اللَّحظاتِ أراقبُهما وأنا أنظفُ أرضَ غرفة الطوارئ وأتمنَّى أن لا ينتظروا.. أنا أعرفُهم منذُ مدة قصيرةٍ.. والإنسانُ عندما يصبحُ موظَّفاً تقليدياً، في العقلِ والمنطق والتجربةِ، تتغيرُ أمورٌ كثيرةٌ في نفسِه، وخاصَّة عندما يركزُ نظره واهتمامَه نحو ناحيةٍ واحدة فقط.

وهذا كلامٌ لا يقتصرُ على الطَّبيب وحده فقط؛ بل

على كلِّ موظفٍ غير أمين، حيثُ يصبحُ عمله مجرد عملٍ يريدُ أن يؤدِّيه وينهيَه بأيِّ شكلٍ من الأشكالِ، ولو كان بغيرِ إتقانٍ، يكون في ظاهرهِ السلامة وفي باطنهِ العذاب، ناسياً أو مُتَناسياً، أو ربما جاهلاً الحديثَ الشريفَ: «إنَّ اللهَ يحبُّ إذا عملَ أحَدُكم عَملاً أنْ يتقنَه».

في تِلكَ اللَّحظاتِ المؤلماتِ وددْت أن أصرخَ بأعلَى صوتي: «لا تدَعا ابنَكما هنا.. جحيمُ البيتِ ولا جنة المُسْتَشفَى». لكن هذا لم يحدثْ وحبذا لو فعلت، لربما توقَّفَ الزمنُ ولم تستمرَّ هذه المأساةُ في نزيفِها، ولم تبلغْ ذروتها، ولم تسجلْ تفاصيلها المفجِعة.. ويا ليتني فعلتُ.. لكانَ أفضل لي مليون مرةٍ منْ أن أصبحَ شاهداً وراوياً لهذه الحكايةِ، لتكونَ هي أيضاً من حكاياتِ الزمنِ الغريبة التي لا تصدَّق بسهولةٍ.

8

الغُلامُ الصَّغِيْرُ في جَنَاحِ المُسِنِّيْنَ

ـ الطِّب الأنجعُ هو طبٌّ للقلوبِ قبل أن يكونَ طبّاً للأبدان..

ـ كم من طَبِيبٍ يُداوي الناسَ وهو عليلٌ.. والعلَّةُ قد لا تكمنُ في الأجسادِ بل في النُّفوس، وعللُ الأجسادِ قد تُعالجُ، أما النُّفوسُ إذا أصابتْها العللُ فما الذي يعالجُها إذا تقادمَ المرضُ واستشرسَ، حتى تتمكَّن العلَّةُ من النفسِ وتستولي عليها.

ـ الطَّبيبُ المرفهُ يعرضُ بضاعته المنقوصةَ على أبويْن جريحَيْن ليبدوَ أمامَهما بمظهرِ الطَّبيب البارعِ.

ـ ولدٌ في ربيعِ العمرِ، مستلقٍ أمامَهما على سريرٍ

أبيضَ، والأطباء يمرُّون به وكأنَّه قطعةٌ من هذا السريرِ.

ـ الطَّبيبُ خلع ثوبه الأبيضَ بسرعة ومضى، نظرَ إلى سَاعته وغادرَ المكانَ دونَ إبطاء، أمَّا أنا فلمْ أستطعِ المغادرةَ.

❊ ❊ ❊

الغلامُ الصالحُ منير كان بشوشاً على الرّغْمِ مما كان يبدو عليه من ألمٍ..

كنتُ أتنقَّلُ قريباً من سريره بدءاً من غرفةِ الطوارئ إلى جناحِ الباطنيَّةِ ثم قسم الجهاز الهضمي.. ومن غرفتِه إلى العنايةِ المركَّزة، ثم قسم من العنايةِ المركَّزة إلى غرفتِه، مراتٍ عدة، حتى طالَ الوقتُ..

وتفاقَمَ المرضُ!

كنتُ في كلِّ مرةٍ وفي كلِّ مكانٍ ألحقُ بهذه الأسرةِ

المنكوبة أحضرُ للأم كرسياً لترتاحَ قليلاً.. وهي في كلِّ مرة لا تبدو على ما يرامُ..

هكذا هي الأمُّ دائماً..

أذكرُ جدَّتي الغاليةَ يومَ كانَ أبي مريضاً، لم يكن عندَنا سوى قليلٍ من الزيتِ لتفركَ به جسدَه المنهكَ، كانَ يتأَلمُ بشدة ولا تخرجُ من فمه الآهاتُ.. كانتِ الابتسامُة لا تفارقُ محياها في كلِّ حالٍ وحينٍ، لم تكنِ الابتسامةُ صفراءَ مثل بعضِ الابتساماتِ المصطنعةِ التي رأيتُها على وجهِ بعضِ من يرتدي الثوبَ الأبيضَ.. كانتِ ابتسامتُها منعشةً، يملؤها الحبُّ والأمل، على الرّغْمِ من كلِّ الصعابِ.

هذه جدةٌ تُقاسُ بالذهب.. والطبُّ الأنجع هو طبٌّ للقلوب قبلَ أن يكونَ طبّاً للأبدانِ.. فكم من طَبيبٍ يُداوي الناسَ وهو عليلٌ.. والعلَّةُ قد لا تكمنُ في الأجسادِ بل في النفوسِ، وعللُ الأجسادِ قد

تُعالَج، أما النفوسُ إذا أصابتْها العلل فما الذي يعالجُها إذا تقادمَ المرضُ واستشرَس، حتى تتمكنَ العلَّةُ من النفسِ وتستولي عليها.

لم يكنْ أبي عجوزاً، كانَ شاباً لم يتجاوزِ الأربعينَ من عمرِهِ، لكنَّه مرضَ فجأةً، وليسَ عندَنا طَبِيبٌ حقيقي ولا دواءٌ مثل العقاقيرِ التي يستخدمونَها.

فإذا كانَ الطَّبيبُ المرفه يعرضُ بضاعتَه المنقوصةَ على أبَويْن جريحيْن ليبدوَ أمامَهما بمظهرِ الطَّبيبِ البارعِ، فإنه كانَ من ورائهما يطلبُ العونَ من طلابه المُتَدربينَ، ويدعوهم للتفكير في حلٍّ لم يعرفْه أو ربما لم يجدْ وقتاً للبحث فيه، فماذا سيفعلُ مع عاملِ نظافةٍ مثلي، بلا أبٍ له ولا أم.. ولا من يحزنون؟؟؟!!

ومن البدايةِ إلى النِّهايةِ هزَمَني منظرُ الأبويْن المكلومَيْن..

ولدٌ في ربيعِ العمرِ، مستَلق أمامهما على سرير

أبيض، والأطباءُ يمرونَ به وكأنهُ قطعةٌ من هذا السريرِ..

لعلَّ ما أراهُ حُلماً أو خيالاً..

أو ربما أسطورة من أساطيرِ الزمانِ البعيدِ، ترويها الأجيالُ جيلاً بعد جيلٍ.

أو قد تكونُ حالاً استثنائيةً نادرةً، تجري في كلِّ آن وحين، غير أنها اليوم تجري أمامي، وفي هذا المكانِ بالتَّحْديدِ.

لحقتُ بالأسرةِ المهمومةِ إلى غرفةِ الطوارئِ، ثم في كلِّ الأمكنةِ التي يرتادونها في المُسْتَشفَى..

كان وجهُ هذا الفتى الطيبِ الشاحبُ يزيدني اهتماماً ورغبةً بأن أكونَ معه، وكان قلبُ الأم والأب الملهوفَيْن على ولدهما جاذباً دعاني لملاحقتِهم بكلِّ شغف..

وكانتْ تِلكَ أول مرةٍ أدخلُ فيها الغرفةَ الكئيبةَ، علماً أن كلَّ غرف المستشفيات كئيبةٌ، وجررتُ من

ورائي مكنستي طويلةَ العصا . . وكم تمنَّيتُ أن تتحوَّلَ إلى مكنسةِ الساحرةِ في القصةِ الخياليةِ، وأن تكونَ مكنسة للخيرِ لا للشرِّ، علماً أن المكانسَ لا تصنعُ إلا للخيرِ . .

أوليستِ النظافةُ شيئاً أساسياً للدُّنيا والدِّين؟

وهل يمكنُ وصفُ شعبٍ يكرهُ النظافةَ بالمُتَحضرِ، لأن الرقيَّ والنظافةَ وجهان لعملةٍ واحدةٍ؟!

ومنذُ باشرتُ عملي في المُسْتَشفَى لم أكلفْ بتنظيفِ أرضِ غرفةِ الطوارئِ الواسعةِ، لذا استغربَ بعض زملائي أنني موجودٌ معهم هنا، فهذهِ المنطقة من مسؤوليتِهم . . فلم أبالِ كثيراً بتعجُّبهم ولم أهتمَّ بأن أشرحَ لهم، كان منظرُ الغلام الصغير هو الأمرُ الأول المقلقُ بالنِّسبة لي، مِن دونِ أن أدري ما السببُ الذي جعل قلبي جزعاً عليه، وكأنه قطعةٌ من هذا القلبِ . .

صحيحٌ أنني أتعاطفُ كثيراً مع كلِّ المرضى،

صغاراً وكباراً، لكنَّ هذا الفتى تملَّكَ قلبي كما لم يتملكْه مريضٌ من قبلُ، ربما لشكلهِ الذي يذكِّرني بابن عمِّي عماد، الذي كان شعرُه طويلاً مثل شعره، ومشيته مثل مشيتهِ.. وقد توفِّي هو أيضاً بعد وفاةِ أبي بفترةٍ وجيزةٍ.. وحكايتي مع عماد حكايةُ عمر وطفولة سعيدة، حيثُ كنَّا نقضي معظمَ الوقتِ معاً في بيتِ جدَّتي، وفي البساتينِ التي تحيطُ بالبيتِ..

كنَّا صغاراً نعشقُ الطبيعةَ والحياةَ.. وعلى الرّغْمِ من كلِّ ما كنَّا نعيشُه من صعاب، فإننا كنَّا نحلمُ بكثير من الأشياء الجميلة في الكون.. نرسمُ الأحلام على الرمال، مثل كلِّ الأطفال الصغارِ.. لم نكن نحسبُ حساب الدهر وتقلبات الزمن.. «هي الدنيا» كما قال الشاعرُ عنها:

هِيَ الدُّنيا تَقولُ بملءِ فِيها
حذارِ حذارِ منْ بَطْشي وَفتْكي

فـلا يـغْـرُرْكـم حُـسـنُ ابْـتِـسـامِـي
فَـقَـولـي مُـضـحـكٌ والـفـعـلُ مُـبـكـي

كانَ الوقتُ يمضي سريعاً، حتى نسيتُ أمرَ دوامي الذي انتهى، وبالتأكيد فقد ذهبتِ الحافلةُ التي تقلُّ العمالَ إلى مقرِّ السكنِ.. فمنَ المستحيلِ أن تنتظرَني كلَّ هذا الوقتِ، لا يهمُّ.. ليست مُشكِلة، المهمُّ أنْ أطمئنَّ على هذا الولدِ الصغيرِ الطيبِ.

يا سُبحانَ اللهِ!!

الطَّبيبُ تركَ الولدَ وخلعَ ثوبَه الأبيضَ ووضعَه على كتفِه ومضَى، لقد انتهتْ نوبتُه، نَظرَ إلى سَاعتِه وغادرَ دونَ انتظارٍ، وأنا لم أستطعِ المغادرةَ.. لم تكن لدَيه رغبة بأنْ يُلقي نظرةً عليه قبلَ أن يذهبَ، ولم يُطمئن كلاً من الأم ولا الأب، ولا حتى ابنهما المسكين.. هكذا بكلِّ بساطةٍ.. سلَّم «العُهْدَة» لطَبيبٍ آخرَ ومضَى مُهرولاً.. ربما ليلحقَ بحفلةٍ من حفلاتِ ليلةِ رأسِ

السنةِ. . أو ربما لمشاهدةِ ما يعرضُه التلفازُ بالمناسبةِ. .

وهذا الأمرُ تكررَ كثيراً خلالَ الشهورِ السبعةِ التي قضاها على سريرِ المرض. . فعندما ينتهي الدوامُ ترى الأطباء مثل «فصّ ملح وذاب»، كما في الأمثالِ الشعبيةِ. .

تراهم في الصباحِ في كلِّ مكانٍ، أما بعدَ الظهرِ وفي نهايةِ الأسبوعِ فيختفونَ تماماً. . وفي أيامِ الأعيادِ لا يأتون إلا نادِراً، لذا على المرضِ أنْ يأخذَ إجازةً أسبوعيَّة، وأنْ يلتزمَ بالهُدوءِ في الأعيادِ الرسميةِ دائماً. .

وعندما يدخلُ الطَّبيبُ المشرفُ يأتي خلفه صغار الأطباءِ في استعراضٍ يومي. . بعضهم لا ينصتُ إلى ما يقالُ، فيكونون حلقاتٍ للحديثِ وتبادل الضحكاتِ، فيما الهواتف النقَّالة لا تفارق أيديهم،

ويكونُ الحضورُ شكلياً في بعضِ الأحيانِ.. والأكثر وجعاً من هذا ما يحصلُ عندَ مجيءِ طلابِ الطِّبِّ الناشئينَ، الذين يحضرونَ ليَزيدوا من وجعِ المريض.. فيطرحون عليه أسئلةً سخيفةً.. مثل: ماذا بك؟؟ لماذا أنت هنا؟! ما سببُ الإسهالِ؟؟ ماذا قالَ لك الطَّبيبُ؟!!!... مِن دونِ أن يُتعبوا أنفسَهم بفتحِ الملفِّ، وقراءته بتمعُّن وبالتفصيلِ..

ومنَ المشاهدِ التي تؤلمُ أيضاً؛ عندما يأتي الطَّبيبُ ويلتفُّ طلابُه حولَ المريضِ ـ كما كانَ بعضُهم يفعلُ مع منير ـ فيسألُ الطَّبيبُ المعلمَ طلابه بعض الأسئلةِ وكأنهم في امتحانٍ.. ما يعني ذلكَ؟ ما اسم هذه البقعةِ على اليدِ؟ ماذا تعني هذه العلامةُ في الوجهِ؟ لماذا يحدثُ هذا؟؟؟

ويواصلُ الطَّبيبُ «المُعلم» أسئلتَه حتى يشعرَ المريضُ بضيقٍ في صدره، وأنَّه مجردُ أداةٍ للتعلُّم

لا أكثر.. وفي هذا من الألمِ الكبيرِ ما لا يدركُه إلَّا الذين ذاقُوه.. وجرَّبوه.. أو رأَوه مِثلي.. فليسَ السَّماع كالعَيان.

وعندما تكرَّرت أخطاؤهم ابتعدوا ولم يَعودوا مع طلَّابهم..

كنتُ من حسنِ ظنِّي أعتقدُ أنهم يأتون إليه حرصاً على حياتِه، ولإجراءِ البحوثِ العلميةِ التي تنقذُه مما هو فيه، ولم أحسبْ أنهم مجردُ طلابٍ في «حلقة للتعليم» كما تبيَّن لي لاحقاً، وقد سمعتُ أحدَ هؤلاء المدرِّسين يقولُ لطالبٍ معه: «كلُّ مريضٍ في حياتكَ المهنيَّةِ والدراسيَّة فصلٌ جديدٌ في كتابِ الطب».

على العمومِ.. وبالعودةِ إلى غرفةِ الطوارئِ حيثُ بدأتِ الحكايةُ؛ فإن أطباءَ الطوارئِ، أو كما خيِّل إليَّ ـ وقد أكونُ مخطئاً ـ ليسوا من الأطباءِ ذوي الشأنِ الكبير والعلمِ الواسع، أو من العلماءِ المهرةِ

المحترفين ذوي الخبراتِ الطويلة.. فمعظمُهم في مقتبلِ العمرِ، ويبدون من المُتَخرِّجين حديثاً، وربما بعضُهم ما زالَ تحتَ التمرينِ..

وقد يكونُ من الإنصافِ القولُ إن الواقعَ قد لا يستدعي وجود أطباء اختصاصيين في غرفةِ الطوارئِ بِشكلٍ دائم، وهم في الحقيقةِ يطلبون أطباء أكثرَ خبرةً وتخصُّصاً عندَ الحاجة إليهم.. لكنَّهم بطبيعةِ الحالِ لا يأتونَ بسرعةٍ لانشغالهم بحالاتٍ أخرى، فكيف إذا كنَّا في نهاية العامِ؟! وكثيرٌ من الناسِ يعتبرون هذا اليومَ يوماً لا مثيلَ له طوالَ عام كاملٍ، وينتظرونه من عامٍ إلى عام؟!

وبالفعلِ؛ كان يوماً لا مثيلَ له..

شعرتُ أن هذا الولدَ لا يَحْتاجُ إلى طَبِيبِ الطوارئِ وحده، بل يَحْتاج لأكثرَ من طَبِيبٍ مُتخصِّص، فإذا كنتُ أنا الحامل لمكنسةِ التنظيفِ اكتشفتُ هذا مِن

دونِ شهادةٍ بالطب؛ فكيف بالطَّبيب الحاذقِ، أو حتى مجرد طَبِيب تحتَ التمرين؟!

فهل يمكنُ أن يرى أحدٌ هذه الحالَ ولا يتوقع أنها تتطلَّب عنايةً خاصَّة؟! لا سيما أنه غلامٌ صغيرٌ لم يكدْ يبلغ الحُلم بعدُ. .

انتظرَ الغلام الصغير زمناً طويلاً. . وأنا انتظرتُ معه. .

كان قلقاً مُتَوتراً على الرّغْمِ مما يبدو عليه من سكونٍ وهدوء، وكنتُ أنا أيضاً مثله، قلقاً مُتَوتراً. وبعد فترةٍ دخل شاب وسيمٌ أنيق، يرتدي ثوباً أبيضَ مزنَّراً، وعلى كتفيه تتدلَّى سماعته، كانتْ سماعة مُتَميزة، ليستْ مثل تِلكَ التي أراها عادةً على أكتافِ كثير من الأطباءِ. .

وبعدَ أن تصفَّح سريعاً نتائجَ ما أُجري للغلام من فحوصاتٍ مخبريَّة، قالَ لطَبِيبٍ يافع يقفُ بالقرب منه:

«الأفضلُ أن نحجزَ الصبي في المُسْتَشفَى.. وقد يَحْتاجُ لدخول فوري»..

وفيما كانَ الطَّبيب اليافعُ يسجِّل ذلكَ مضى الطَّبيبُ الشاب الأنيقُ.. فلحق به الأبُ مستفسراً، فقال له: «لا تقلقْ.. سنجري له كامل الفحوصاتِ الإضافية الضروريةِ.. لكنَّنا سننقلُه بعد قليل إلى قسم الباطنيَّة فور تجهيز سريرٍ له»..

قسمُ الباطنيَّة!!!

لقد سمعتُ بهذا الاسمِ من قبل..

يا للهول!!!..

طفلٌ بهذه السنِّ تضعونَه في قسمِ الباطنيَّة؟؟!!!

أعرفُ هذا القسم تمام المعرفة.. وأرى ذلكَ خطأ جسيماً بحقِّ الطفولة..

العالمُ كلُّه يقولُ إنه ما زالَ طفلاً وأنتم تضعونَه مع المسنِّين المرضى في قسم واحدٍ وفي غرفة واحدة،

ومنهم من مضى عليه وقتٌ طويلٌ وهو في غيبوبةٍ.. وكل يوم تقريباً تسجَّلُ هناك حالةُ وفاة، وأحياناً أكثر.. كما أنَّ المكانَ مكتظٌّ بالمرضى، وكثيرٌ منهم عاجزون عن الحركةِ، ولا بدَّ من تنظيفهم وهم على أسرَّتهم من حين لآخرَ، وإني لأشعرُ أن الرجلَ الناضج صحيحُ البدنِ لو مكثَ في مثل هذا الجناحِ لأيام قليلةٍ سيمرضُ، فكيف بغلامٍ صغير يافعٍ؟!!!

ألم يكنِ الأجدى أن يكونَ مكانُه الأنسبُ في جناح قريبٍ من جناح الأطفالِ يتلاءمُ مع عمرهِ ووضعه الصحِّي؟!!

وإن كنتم لا ترونه طفلاً، فلماذا لا تضعونَه ـ مثلاً ـ في جناحٍ مع أولاد في مثل سنِّه مراعاةً لوضعه النفسي؟!!

أم أنكم ترون أن الحالةَ النفسيةَ ليست ذات أهميَّة، على الرّغْمِ من أنني أسمعُ ذلكَ منكم في كلِّ

الأجنحةِ.. وكما أنشأتُم جناحاً للأطفال.. ليكن هناك جناحٌ آخر للمراهقين والفتيان؟!!!

كم عجيبٌ أمركم!!!

تتحدَّثون عن أهميَّة الطفولةِ والناشئة؛ ومع ذلكَ تضعون الفتيانَ اليافعين مع المسنين والعجزةِ، وفاقدي الوعي، ومنهم من يئسْتُم من بقائهم على قيدِ الحياة!!

شدَدتُ عصايَ إلى صدري، أمسكتُ بها بكلتا يديَّ النحيلتيْن.. لا لأتوكَّأَ عليها، بل كنتُ أشعرُ بخوفٍ زائف، من أنها ستطيرُ وتهربُ منِّي ومن هذا الواقع المخجلِ. كنتُ أريدُ أن أفرغَ شحنة الغضبِ المشتعلة في صدري، التي انتابتْني فجأةً، وأنا أرى هذه الأُسرةَ الصغيرة تمضي بإرادتها إلى حيثُ لا تعلمُ؛ من مأساةٍ مقبلة.

كنتُ أريدُ أنْ أصرخَ بأعلى صوتي كاشفاً لهم الحقيقةَ، أن أفيدَهم بواقعِ المكان الذي يقصدونه..

لكن ما قيمةُ كلامِ عامل نظافة مثلي يرتدي ثوباً ملوناً مضحك الشكلِ، إزاءَ رجل أنيق طويلٍ عريض في زيِّه الأبيض النظيفِ الناصع، وعلى كتفيهِ تتدلَّى سماعةُ الطَّبيبِ الواثق بنفسِه، بكلِّ فخر؟!

وبعدَ انتظارٍ طويل؛ جاءَ من يبلغُ الأم الجريحةَ والأب الولهانَ على ولده الواهنِ من طول الانتظارِ؛ أن السريرَ أمسى جاهزاً في قسم الباطنيَّةِ، وأنَّ الفتى المكلومَ سينقلُ خلال فترةٍ وجيزة. . و«كلمُ اللِّسانِ أشدُّ وطأةً على الإنسان من كلمِ السنانِ».

هم يقولون إنه «طفل»، ومع ذلكَ يضعونه في سريرٍ بين عشراتِ الراشدين وكبار السنِّ من العجزةِ.

أليسَ فيكم قلبٌ عطوفٌ؟!!

شعرتُ بضيقٍ في صدري. . ضربتُ الأرضَ بالمكنسة، فتردَّد صدى الضربةِ في أنحاءِ المكان. .

تلفَّتَ نحوي مَن كان على مسافةٍ قريبة مني، إلا

منير وأبواه.. كان ألمُهما أكبرَ من أن يشغلَهما صوتُ مكنسة تصفعُ الأرضَ بقشِّها الأحنِّ على البلاطِ الأصمِّ من كثير من الناسِ على بعضِهم..

في الواقعِ كنتُ أريدُ أن أضربَ بالعصا نفسي، وأن أضربَ المرضَ حتى يستسلمَ ويرفعَ راياته البيضاءَ، فيعتزلَ الناس جميعاً، وأن أجلدَ كلَّ الظروف قاسيةِ القلب.. لكنَّها إرادةُ الله، ومن غيرُ الله يرحمُ؟!.

ولعلَّي صادفتُ كثيراً من الأشياء الغريبةِ في الفترةِ القليلة الماضيةِ منذُ وصولي للعملِ في الشركةِ المسندة إليها مهمَّة الحفاظِ على نظافة المُسْتَشفى، صرتُ أشعرُ يوماً بعد يومٍ بمزيد من الدهشةِ والاستغراب من أفعال وأقوالِ بعضِ البشر، فهم يقولون شيئاً ويفعلون ضدَّه.. يرتدون ثوباً ناصعَ البياض ويخفون سواداً بحجم الكونِ..

وبالتأكيدِ سيقولُ مَن لم يجربْ إن في هذا الكلامِ ظلماً لكثيرٍ من الناس، فليسَ من الصوابِ أن نشملَ الجميعَ ونضعَهم في سلةٍ واحدة، وأن نجزمَ بالحكم ونعمِّمَه، وإن تكررَت حادثةٌ ما، فلا يصحُّ أن تكونَ الأحكامُ مطلقة على السواد الأعظمِ لفئة أو لشريحةٍ من المجتمع..

كنتُ أتمنى أن أملكَ مكبراً للبصرِ والبصيرة؛ يجسدُ الواقعَ المحسوس والملموسَ وغيرَه بالتفاصيل الدقيقةِ، فيظهرُ على هيئَته الصحيحة، التي قد تكونُ على نقيضِ ما يظهرُه البعضُ..

وكم كنتُ أتمنى أنْ أملكَ نظارةً كاشفةً لما وراء الصورةِ المشاهدة بالعينِ المجردة، بإمكانها أن ترى الأشياءَ على حقيقتها ومِن دونِ مساحيق تجميلٍ..

بل إني لأتمنَّى أن أمتَلكَ مصنعاً لمثلِ هذه النظاراتِ «السحرية»، فأصنعَ منها الملايينَ ومثلها من

العدساتِ اللاصقة، لتتوفرَ هذه النظاراتُ والعدسات بكميات كبيرةٍ، حتى يمتلكَها الناسُ جميعاً بلا استثناء، عندها لن يبقى فاسدٌ في الكونِ..

وقديماً قالوا: «لو كانتِ الذنوبُ تفوحُ لما جلسَ أحدٌ إلى أحد»، فكيف إذا ما كانتِ الذنوبُ «فائحة ومرئيَّة» في آن معاً؟!!

لكنَّني بالتَّأكيدِ مخطئٌ..

وحتى هذه النظَّارات سيتمُّ تقليدُها، وصناعةُ النظاراتِ المزيَّفة المقلَّدة المغشوشة، ستقودُ حتماً إلى رؤيةٍ غير دقيقة تشوِّهُ الحقائقَ وتزيِّفها من جديدٍ.. فتزدادُ المشكلاتُ عمقاً ويزدادُ الفسادُ فساداً.

9

الطَّبيبُ العَادِيُّ والطَّبيبُ الرَّائِعُ

الطَّبيبُ الرائعُ يستمعُ للمريضِ ويتواصلُ معه ويُتابعُ حالَه، فيشعرُ المريضُ وكأن طَبِيبَه يتألمُ عندما يتألمُ ويبكي حين يبكي.. المريضُ لا يأتي إلى الطَّبيبِ إلَّا لأنه خائفٌ من مجهولٍ ما، وليس عنده معرفةٌ بالمرض الذي أصابَه، وإذا كانَ لدى الطَّبيبِ قدراتٌ وأخفاها ولم يعطِها له، فإن اللهَ سبحانه سيُحاسبُه عليها.

إبراهيم الفقي

❊ ❊ ❊

شعرتُ فجأةً بأحدٍ يجذبُني من ثوبي من الخلفِ، استدرتُ فوجدتُ المسؤولَ عن عمالِ التنظيفِ،

يَرمُقني بقسوةٍ معترضاً على وجودي في هذا المكانِ، لعلَّ أحدَ زملائي «الطيِّبين» وشَى بي، فحضرَ يدفعُه ـ كما يتوهَّم الناظرُ ـ حرصه على العملِ، والذي قد يظنُّ البعضُ أنه أكثر حرصاً من غيره، من ذوي الرداءِ الأبيضِ، أو ربما دفعَه فضولُه لمعرفة سببِ وجودي هاهنا على الرّغْمِ من انتهاءِ دوامي.

لم أكنْ أُبالي كثيراً بمضي الوقتِ، فغداً عطلتي الأسبوعيَّة التي تتصادفُ مع عطلةِ رأسِ السنةِ الميلاديةِ، ويمكنُني قضاء الليلِ كلِّه هنا.. غيرَ أنني اضطررتُ للخروجِ من غرفة الطوارئِ خشية ما قد يلحقُني من ضرر من المسؤولِ الذي تصرفَ معي وكأنه «ضبطني» مُتَلبِّساً بجريمة لا تغتفرُ..

«كيف تقومُ بتنظيفِ مكانٍ ليس من مسؤوليتكَ؟».

«أحاولُ المساعدةَ»..

«العاملُ يهملُ المطلوبَ منه أحياناً، فكيف يتطوعُ

للقيام بعملٍ غير مطلوب منه، وخاصَّة بعدَ انتهاء دوام عملِه؟».

اضطررتُ إلى مغادرةِ غرفةِ الطوارئِ لأن النقاشَ لن يفيدَ..

تركتُ المَكانَ كما تركتُ الفتى الصغيرَ لمصيره..

كنتُ قلقاً عليه، أريدُ البقاء معه، على الرّغْمِ من أنه ليس بيدي حيلة، أردتُ مرافقتَه إلى سريره الذي سينقلُ إليه..

لعلِّي أساعده ولو بشيءٍ يسيرٍ يرضيه ويُواسيه.

خرجتُ من المُسْتَشفَى مرغَماً، توجهتُ نحو الشارع الرئيسي أنتظرُ عند موقف الحافلة العموميَّة، وكان البردُ شديداً.. ثم بدأتِ الأفكارُ تتدافعُ في رأسي.. حتى قبل أن تحدثَ الأحداثُ المؤلمةُ المُتَتاليةُ.

تذكرتُ محاضرةً كنتُ قد شاهدتُها في اليوتيوب

للدكتور إبراهيم الفقي رحمه الله، يقولُ فيها: «إن هناك فرقاً بين الطَّبيبِ العادي، والجيدِ، والممتاز، والرائع». . وهو بذلكَ يفرِّقُ بين أربعة أنواعٍ من الأطباءِ. . أخرجتُ الهاتفَ من جَيبي وفتحتُ اليوتيوب، بعدَ أنْ دخلتُ الحافلةَ وجلستُ في مقعدٍ قربَ النافذةِ. . بحثتُ عن الفيديو الخاصِّ بالدكتور الفقي، وفي ذهني يتردَّدُ كلامُه كأنَّني أسمعُه منه مباشرةً:

«الطَّبيبُ العاديُّ يبني على ما يقولُ له المريضُ، ويعطيه حبةَ دواءٍ مِن دونِ أن يقومَ بأيِّ تحليلاتٍ، وهو لا يعرفُ عنه شيئاً، ثم يطلبُ من المريضِ التالي أن يدخلَ مِن دونِ أيِّ اهتمامٍ. . وأمَّا الطَّبيبُ الجيدُ فيجري أشعةً وتحليلاتٍ ليطمئنَّ على المريضِ، أما الطَّبيبُ الممتازُ فيسألُ المريضَ عن نشاطاته وحياته وينظِّم له أمورَه، فلا يكتفي بما يَصفُه له من علاجٍ. .

أما الطَّبيبُ الرائع ـ وهو الطَّبيبُ النادرُ طبعاً ـ فيستمعُ للمريضِ، ويتواصلُ معه ويُتابعُ حالَه، فيشعرُ المريضُ وكأنَّ طَبِيبَه يتألمُ عندَما يتألَّم ويبكي حين يبكي.. فالمريضُ لا يأتي إلى الطَّبيبِ إلَّا لأنه خائفٌ من مجهولٍ ما، وليسَ عنده معرفة بالمرضِ الذي أصابهُ، فإذا كان لدى الطَّبيبِ قدراتٌ وأَخفاها ولم يعطِها له، فإنَّ اللهَ سبحانَه سيُحاسبُه علَيها».

ثم يقولُ الفقي أنه في كندا ـ مثلاً ـ إذا أعطَى الطَّبيبُ مريضاً حبةَ دواءٍ مِن دونِ فحصٍ وأشعةٍ، وحدث للمريضِ أمرٌ مضرٌّ؛ تسحبُ منه الرُّخصة.. وينقلُ عن أحدِ أطباءِ جراحة القلبِ أن عدداً كبيراً من المرضَى ماتوا لأنهم ذَهبوا إلى عياداتِ الأطباءِ.. ذنبُهمُ الوحيدُ أنهم صدَّقوهم، ثم ماتوا بسببِ التَّشْخيصِ الخاطئ..

وذكرَ أنهم أجْروا في تكساس الأمريكيَّةِ استبياناً

خاصّاً بالمرضى في مستشفياتٍ عدَّة، وكانتْ أولى الأولوياتِ التي طلبها هؤلاءِ المرضى العنايةَ الشخصيَّةَ، وثانياً العناية الطبيَّة، وثالثاً العناية الغذائيَّة، أمَّا المالُ فقد كانَ في أسفلِ الأولويَّاتِ، لأن «المالَ طاقةٌ سفليَّة تشدُّ الإنسانَ للأسفلِ، بينما الطَّاقةُ العُليا هي الطاقةُ الروحانية، والمرضُ ينمِّي هذه الطاقةَ، فلا يعودُ المريضُ يطلبُ المالَ، ولا يعودُ للمال هيبةٌ ولا أهميَّة بالنِّسبةِ إليهِ».

أما أنا فقدْ بتُّ أعتقدُ بأن تصديقَ طَبِيبٍ واحدٍ «عادي» شيءٌ من الجنونِ، أو في أحسنِ حالٍ؛ قلَّة عقلٍ..

ولعلَّ عصا مكنسةِ التنظيفِ ستكونُ أذكى منِّي إذا صدقتُ طَبِيباً واحداً «عادياً» لا يحترمُ مريضَه، بل جُلُّ احترامِه للمالِ «ذي الهَيبة» الذي يحقِّقُه..

لكن من أينَ نأتي بالطَّبيبِ «الرائع» الذي تحدَّث عنه الفقي؟!

ولهذا نرى المرضَى مستعدِّين لبذلِ الغالي والنَّفيسِ من أجلِ الشِّفاءِ، وقد يصدِّقون من ينصحُهم بأمرٍ ما، وقد يكونُ نصحُهم صواباً وقد يكونُ خطأً . .

وقد يذهبُ بعضُ ضعافِ العقولِ إلى المشعوِذين . . ويبقَى الأملُ دائماً في قلوبِ الطيِّبين.

10

مُشْكِلاتٌ مُتَتالِيَةٌ

ـ لم يعترفِ الأطباءُ بتقصِيرهم، وحمَّلوا الممرِّضةَ المسؤوليَّةَ.. عِلماً أن الممرِّضين لا يُقدمون على أيٍّ عملٍ مثل ذلكَ مِن دونِ طلبِ الأطباءِ.

ـ كنتُ ألاحظُ عدمَ وجودِ تنسيقٍ جدِّيٍّ بين الأطباءِ.. وكانَ بعضُهم يسألُ الأم والأبَ عمَّا يحدثُ مع الطَّبيبِ الآخرِ، ويستفسرون عن آراءِ الأطباءِ الآخرينِ.

ـ بعضُ الأطباءِ كانَ يسألُ الأم والأبَ عن نتائجِ الفحوصاتِ مِن دونِ الاطِّلاعِ على الأوراقِ، وأحياناً يسألُ الطَّبيبَ المُتَدربَ الذي يرافقُه.

ـ تركوه أربعةَ أيامٍ دونَ طعامٍ بسببِ أخطاء طبيةٍ

مُتَكررةٍ. . لكن من المسؤولُ والأطباءُ يُلقون التهمة على الممرِّضين؟!!

❀ ❀ ❀

أُولى المشكلاتِ التي صَادفتْ هذه الأسرةَ في المُسْتَشفَى بدأتْ منذُ اللَّحظاتِ الأولى. .

إذ وُضِعَ منير مع كبارِ السِّنِّ في جناحِ الباطنيَّة، بغضِّ النَّظرِ عمَّا يقولُه القانونُ، باعتبارِ أنَّه ما زالَ طفلاً. .

وُضعَ في غرفةٍ واحدةٍ مع رجلٍ عاجزٍ كبيرِ السنِّ، غير مدركٍ لما يجري حوله، وكانَ مُصاباً بغيبوبةٍ شبهِ دائمة، أما منير فكان يضطرُّ للخروجِ من الغرفةِ مراتٍ عدة في اليومِ، بسببِ الرائحةِ الرهيبةِ التي تملأُ المكانَ، كلَّما قامَ الممرِّضونَ بتغييرِ «حفاض» الرجلِ المسكينِ.

وفي الأيامِ الأولى قرَّر الأطباءُ إجراءَ منظارٍ سُفليٍّ

وعُلويٍّ بحثاً عن سببِ الإسهالِ المُتَواصلِ، وكانَ هذا أول منظارٍ خلالَ وجودهِ في قسمِ الباطنيَّة، وكانتْ صحَّته جيِّدة، ولما كانَ الأمرُ يتطلَّب الامتناع عن الطعامِ لساعاتٍ محدَّدةٍ قبلَ إجراءِ المنظارِ فقد منعَ الأطباءُ عنه الطعامَ، وأُعطيَ عن طريقِ الفمِ سائلاً طبياً لتنظيفِ الأمعاءِ. .

وفي اليوم الثاني تمَّ إجراءُ بعضِ الفحوصِ الروتينيَّة قبلَ القيامِ بالمنظارِ، فوجدَ الأطباءُ أن سيولةَ الدمِ مرتفعةٌ، لذا قرَّروا تأجيلَ المنظارِ لليومِ الثالثِ وإعطاءه كيساً من الدمِ على أن يبقَى منير بلا طعامٍ. .

وجاءَ اليومُ الثالثُ فأدخلَ منير إلى غرفةِ المناظيرِ، وأُجريَ له المنظارُ العُلوي، لكنَّ الطَّبيبَ لم يتمكَّن من إجراءِ المنظارِ السفلي بوضوحٍ. . والسبب هو عدمُ إعطائِه سائلاً لتنظيفِ الأمعاءِ. .

احتجَّ الطَّبيبُ على ذلكَ، فَقالوا له: إن الخطأً من

التَّمريض، وأُلقيَ اللَّومُ على الممرِّضينَ.. لكنَّ الممرِّضةَ المسؤولةَ أفادتْ بأنها لم تكن على علمٍ بأنه يجبُ أن يأخذَ الدواءَ مرةً ثانيةً، لأن الطَّبيبَ لم يبلغْها.. وقالتْ أنها لا تستطيعُ أن تفعلَ ذلكَ من تلقاءِ نفسِها مِن دونِ طلبٍ من الطَّبيبِ..

لم يعترفِ الأطباءُ بتقصيرهم، وحمَّلوا الممرِّضةَ كلَّ المسؤوليَّةِ.. علماً أن الممرِّضينَ لا يُقدمون على أيِّ عملٍ مثل ذلكَ مِن دونِ طلبِ الأطباءِ..

وعلى الرّغْمِ من هذا الخطأِ الجسيمِ لم يتمَّ التحقيقُ في الموضوعِ.. ومضى يومٌ آخرُ ومنير مِن دونِ طعامٍ، وظلَّ يعيشُ على السوائلِ البسيطةِ والمحاليلِ حتى اليوم الرَّابع، ما أدَّى إلى إضعافِه وإرهاقِه وزيادةِ هُزاله..

كنتُ أتساءلُ بيني وبين نفسي:

كيفَ يتركُ هذا الفتى الصغيرُ وهو على هذه الحالِ من المرضِ أربعة أيامٍ مُتَتالية مِن دونِ طعام؟

ولماذا لم يتمَّ فحصُ السيولةِ قبل ذلكَ وفي الوقتِ المناسب؟

ولماذا لم يتمَّ إعطاؤهُ الدواءَ اللازم؟!

وكنتُ أخلص في مثل كلِّ مرةٍ إلى نتيجةٍ واحدةٍ: إن كلَّ هذا يثبتُ الإهمال والاستخفافَ بحياته منذُ الأيام الأولى.

وقلتُ سابقاً أن الدكتور مسرورٌ وهو أحدُ كبارِ الأطباءِ في جناحِ الباطنيَّةِ طلب في الأيام الأولى إخراجه من المُسْتَشفَى، كما طالبتْ زميلتُه الدكتورة أماني هي أيضاً بإخراجِه قائلةً: «لو أبقيناهُ في المُسْتَشفَى هل سيتوقفُ الإسهالُ؟!».. على الرّغْمِ من حالتِه المُتَدهورة واستمرارِ الإسهال والتقيؤ، لكنَّ طَبِيبَ الكِلى رفضَ..

شعرتُ في نفسِي أنَّ في ذلكَ كثيراً من الاستهتارِ والاستخفافِ بحياتِه. .

وقرَّرَ الأطباءُ إجراءَ تجربةٍ قبلَ إخراجِه من المُسْتَشفَى، وبناءً على ذلكَ تمَّ وقفُ الأدويةِ الوريديَّة والأملاحِ أيام عدة بطلبٍ من استشاريي الباطنيَّةِ، وذلكَ بعد مضي نحو شهرٍ من دخولِه المُسْتَشفَى بحجَّة أن فحصَ الدم يدلُّ على تحسُّنه. . وكانَ هدفُهم التَّمهيد لخروجِه من المُسْتَشفَى ليصبحَ مريضَ عياداتٍ خارجية. .

وبعدَ خمسة أيامٍ من تركِ منير وخضوعِه للتجربةِ مِن دونِ أدويةٍ ومحاليلَ وريديَّة والاكتفاء بالأدويةِ عن طريقِ الفم، على الرّغْمِ من أن الجميعَ يعرفُ أن الإسهالَ والتقيؤَ مُتَواصلان، وأن أمعاءَ منير لا تمتصُّ الغذاءَ ولا الدواءَ؛ تراجعتْ صحةُ منير بِشكلٍ كبيرٍ.

وجاءتِ الدكتورة أماني والدكتور ساجد بعد غيابِ

أيام عدَّة، وعندَما رأى الأخيرُ وهو المشرفُ الرئيسي في قسمِ الباطنيَّةِ حالةَ الضعفِ التي تفاقمتْ؛ قرَّرَ إعطاءَه تغذية وريدية، وهنا بدأ منير وضعاً جديداً من الآلام تبينُ مدى التساهلِ والاستخفافِ بحياته، فلم تنجحِ التجربةُ في إنقاذِه، بل زادتْ من معاناته. .

كنتُ ألاحظُ في تِلكَ الفترةِ ومن ثم في الفتراتِ اللاحقةِ عدم وجودِ تنسيقٍ جدِّي بين الأطباءِ. . وكان بعضُهم يسألُ الأم والأبَ عما يحدثُ مع الطَّبيب الآخرِ، ويستفسرون عن آراءِ الأطباءِ الآخرين، حتى إن بعضَهم كان يسألُ الأم والأبَ عن نتائجِ الفحوصاتِ مِن دونِ الاطلاعِ على الأوراقِ، وأحياناً يسألُ الطَّبيبَ الذي معه. .

وكانَ معظمُ الأطباءِ يدخلون غرفةَ منير ربما مِن دونِ قراءةِ نتائجِ الفحوصاتِ، لأنهم غالباً ما كانوا يسألون عنها خلالَ وجودِهم قربَ سريرِهِ. يستمعون

إلى النتائجِ، ثم يعطون قراراتٍ سريعة فوريةً مِن دونِ بحث وتمحيصٍ كما تقتضي كلُّ الحالاتِ المرضيَّة ولو كانتْ بسيطةً، فكيف ونحنُ أمامَ حالِ منير الدقيقةِ؟!

وهنا قرَّرَ الدكتور ساجد وعلى الفور البدءَ بالتغذيةِ الوريديَّة، وتمَّ إجراءُ عمليةٍ في غرفةِ العملياتِ من أجلِ وضعِ أنبوبٍ في منطقةِ الصدرِ في وريدٍ رئيسي كبيرٍ..

وبدأ منير بالتغذيةِ الوريديَّة.. وبدأتْ أسرتُه تشعرُ بالتفاؤل من احتمالِ تعويضِ جسمِه ما فقدَه من وزنٍ وصحة..

وبعدَ فترةٍ وجيزةٍ، وخلالَ التغذية الوريديَّة، حدثت مُشكِلة أخرى، إذ ارتفعت حموضةُ الدم لمدة خمسة أيام مُتَواصلة، ولم يلتفتِ الأطباءُ إليها ولم تتمَّ معالجتُها.. وفي اليوم الثالثِ بدأ منير يشعرُ بصعوبةٍ في التنفس، واستمرَّ الأمرُ ثلاثة أيام. وكانَ الأبُ يخبرُ

الأطباءَ بذلكَ كلَّ صباح، لكنَّهم كانوا يتعذَّرون مِن دونِ توضيحِ الأسباب، ويقولون إنه في حالٍ جيدة، لكنَّهم في اليوم الخامسِ قرَّروا إجراءَ فحصٍ خاص بغازاتِ الدم، فتبيَّنوا وجودَ غازاتٍ ناتجة عن حموضة الدمِ..

فأين كانَ أطباءُ الكلى والباطنيَّة من هذا الأمرِ؟؟؟!!! ولماذا لم يقوموا بمناقشةِ هذا التطورِ الخطير حتى جاء طَبِيبُ الكلى الدكتور جاسر وقال: «هناك «خربطة» في تعديلِ الأملاحِ بيننا وبين اختصاصي إعدادِ محلولِ التغذيةِ الوريديَّة».

كان يجبُ اكتشافُ هذا الأمرِ من أول يومٍ، وليس من بعدِ خمسة أيام، خاصَّة أنه كادَ يؤدي إلى مرحلةٍ خطرة، توصلُ المريضَ إلى غسل الكلى.. ونتيجةً لذلكَ أصيبَ منير بحالٍ صعبة جداً وصعوبةٍ بالتنفس..

وبعدَ أن تفاقمتِ الأمورُ طلبَ الدكتور ساجد

وقفَ التغذيةِ الوريديَّة فوراً بسببِ الارتفاع المُتَواصلِ في حموضة الدمِ، وتبيَّن الجميعُ عدمَ التنسيقِ بين أطباءِ الكلى والتغذيةِ الوريديَّة، وهذا ما أكَّده طَبِيبُ الكلى الدكتور جاسر..

وهنا حصلتْ مُشكِلةٌ أخرى، لا تؤكِّدُ فقط مدى الإهمالِ، بل تبينُ كذلكَ مستوى البعضِ في الاستهتارِ بحياةِ المرضى.. فبدلاً من نزعِ أنبوبِ التغذيةِ الوريديَّة في الحالِ؛ لم يتمَّ ذلكَ من الصباحِ حتى المساءِ، على الرّغْمِ من حالِ منير شديدة الصعوبةِ وعدم تمكُّنه من التنفُّس بِشكلٍ جيد.. والسببُ بكلِّ بساطةٍ يكمنُ في خطأ الطَّبيبِ المسؤولِ، إذ كتبَ الملاحظةَ في بداية ملفِّ منير بدلاً من نهايتِه كما هو معتمَدٌ بينهم، حيثُ ينفذُ الممرِّضُ الطلبَ الموضوعَ في نهاية الملفِّ وليس في بدايتِه.. كما برزَ قسمُ التمريضِ.

وبسببِ هذا الخطأ، لم ينفذِ الممرِّضون الطلبَ،

لأنهم لا ينظرون عادةً إلى بدايةِ الملفّ، فبقيتِ التغذيةُ طوال اليومِ رغم ضررِها، ولم يدركِ الأبُ ولا الأم سببَ تأخيرِ سحبِ الأنبوب، وكادَ يؤدِّي ذلكَ إلى أخطارٍ أخرى كما قالتْ لهما لاحقاً الطَّبيبةُ المسؤولة في العنايةِ المركَّزةِ التي نقلَ إليها منير على عجلٍ..

وكانتِ الكارثةُ الفعليَّة تتمثَّلُ في مشهدِ قيام الدكتور مختار بسحبِ أنبوبِ التغذية «خلسةً»، بعدَ مواجهةٍ بينه وبين طَبِيبِ الكلى الدكتور جاسر.. وحدثَ ذلكَ في مساءِ اليومِ نفسِه، حينَ حضرَ الطَّبيبان جاسر ومختار في حدودِ الساعة السابعةِ مساءً معاً، بعد مواجهةِ الأم لهما أسفل مبنى قسمِ الباطنيَّة، فأسرعَ الدكتور مختار ليسبقَ الدكتور جاسر إلى الغرفةِ، وقامَ بمحاولةِ وقفِ انسيابِ التغذيةِ عبرَ الأنبوبِ «خلسة»، لكن الدكتور جاسر لحقَ به بسرعةٍ فشاهدَ بنفسه «ما لا يليق» أبداً بطَبِيبٍ أدَّى القسمَ..

وعندما التفتَ الدكتور مختار قالَ للدكتور جاسر:

«أُنظر. . التغذيةُ الوريديَّة مُتَوقفةٌ». .

لكن طَبِيب الكلى الذي ذهبتِ الأمُ لإحضاره بنفسها خوفاً على منير بعدَ تلكؤِ أطباءِ الباطنيَّة ولم يقوموا بطلبهِ؛ شاهدَ بنفسِه ما فعلَه الدكتور مختار، فقالَ له بكلِّ حزم وشدَّة:

«أنتَ أوقفتَها الآن».

وكان طَبِيبُ الباطنيَّة الدكتور مختار يريدُ إخفاءَ هذا الأمر بِشكلٍ سريعٍ جداً.

وهنا أتذكَّرُ أيضاً أنه قبلَ هذه الحادثةِ بسويعاتٍ قليلة تمَّ نقلُ منير وعلى غفلةٍ من الأبِ والأم إلى العنايةِ المركَّزةِ بسببِ خطورةِ الأمر، لكن لم يتمَّ سحبُ التغذيةِ المركزيَّة، وهناكَ اكتشفْنا مُشكِلةً أخرى، فقد كانتِ الطَّبيبةُ المسؤولة مستعدةً لوضعِه

على آلةِ غسيلِ الكلى كما طلبوا منها، لكنَّها رأتْ أن حالتَه لا تستدعي ذلكَ.

وعادَ منير إلى غرفتِه، على أن ينقلَ فوراً إلى العناية المركَّزة عندَ الضرورة.. لكنَّ الممرِّضين تركوا التغذيةَ الوريديَّة بِشكلٍ خاطئ كما هي بسببِ وضع الورقة في بداية ملفِّ منير وليس في نهايته.. وفي هذا أدلةٌ كبيرة على الإهمالِ الذي لا يمكنُ توصيفُه تحتَ بندِ الأخطاء الطبيَّة..

أما ما فعلَه الدكتور مختار فليسَ خطأً طبِّياً، ولا يصنَّفُ على أنه إهمالٌ على الإطلاق!!!

فله تسمياتٌ أخرى..

11

تَشْخِيصُ كرُونز

ـ عندما سمعتُ هذه القصةَ والأمُ تَرويها للأب اشتَطتُ غضباً، كنتُ أريدُ أن أعلنَها ثورةً على هؤلاء الأطباء؛ وليسمعِ العالمُ كيف ينقضُ الواحدُ منهم كلامَ الآخر، وكأنهم يتحدَّثون عن قطةٍ أو حتى عن جمادٍ..

ـ كانوا ينتظرون بفارغِ الصبرِ خروجَ منير من جناحِ الباطنيَّة للتخلُّص من «مريضٍ مزعجٍ هو وأهله»، فليذهبْ إلى مركزِ الجهازِ الهضمي، أو إلى أي مكانٍ آخرَ.. ولو كانَ القَبر!!

ـ المستشفياتُ بِشكلٍ عام مكانٌ يسبِّبُ الحزنَ والكآبة، ولعلَّ أكثر الأماكنِ حزناً فيها: «المَشْرحة»،

حيثُ تسكنُ الأجسادُ بغير أرواحها قُبيلَ نقلها إلى مقرِّها الأخير، ومن بعدِها مباشرةً العناية المركَّزة، وربما تكونُ الأخيرة أشدَّ الأمكنة كآبةً من أي مكان آخرَ، لما تحتويه من أناسٍ لا يَستَطيعونَ الحراكَ..

❊ ❊ ❊

مضتْ أيامٌ وأيام..

وبعدَ نحو ثلاثةِ أشهر من دخوله المُسْتَشفَى أعلنَ الأطباءُ فجأةً أنهم شخَّصوا مرضَ منير على أنه كرونز، وهو - كما سمعتُ من الأطباءِ - مرضٌ التهابي يصيبُ الأنبوبَ الهضمي، ويعدُّ من الأمراض النادرةِ، ولا يعرفُ له سببٌ محددٌ حتى الآن، علماً أن الفحوصاتِ السابقةَ استبعدَت إصابتَه بهذا المرضِ.

طلبتِ الأمُّ منهم أن يستشيروا اختصاصيِّين من خارجِ المُسْتَشفَى للتأكُّدِ من التَّشْخيصِ، قبل بدءِ حقنِه بإبرِ الكورتيزون التي حدَّدَها الأطباءُ كعلاجٍ، وذلكَ

بسببِ التَّشْخيصاتِ السابقةِ الخاطئة، حتى لا يأخذَ دواءً يضرُّه ولا يفيدُه، نظراً لحالِه الصحيَّةِ التي لا تحتملُ المزيدَ من الأخطاء..

لكن كبيرَ أطباءِ الجهاز الهضمي الدكتور حمد، وهو الطَّبيبُ المسؤولُ عن هذا التَّشْخيص؛ رفضَ.. ومن معه من الأطباءِ قالوا إنه: «أحسنُ طَبِيب كرونز في البلادِ، فكيفَ نستشيرُ أحداً غيره؟؟!!»..

علماً أن هذا الطَّبيبَ كان يرفضُ أبسطَ الأشياء؛ وهو الردُّ على الاتصالِ به في حالِ الطوارئِ القصوى.

وفي هذهِ الأثناءِ، رفعَ أطباءُ الباطنيَّة أيديهم، ولم يعدْ هناك اهتمامٌ جدِّي، وتركوا منيراً لهذا التَّشْخيصِ الجديد، على الرّغْمِ من عدمِ اقتناعِهم به، كما بدا ذلكَ واضحاً من تصرُّفاتهم، فضلاً عن قولهم لاحقاً بعدَ تدهورِ صحَّته أكثر نتيجة جرعات الكورتيزون العالية إنهم كانوا مُقْتنعين بأنَّ: «كميَّة الكورتيزون كبيرة

ولا تتناسبُ مع حالته على الإطلاق»، لكنَّهم «لا يتدخَّلون بشغلِ غيرهم» حسبَ تَعبيرهم. .

وكأنَّها كانتْ فرصة سانحة لهم للتخلُّص من «مريضٍ مزعجٍ هو وأهله»، فقدْ كانوا ـ كما يَبدُو ـ ينتظِرون بفارغِ الصَّبر خروجَه من جناحِ الباطنيَّةِ، ليذهب إِلى مركزِ الجهازِ الهضمي، أو إلى أيٍّ مكان آخرَ. . ولو كانَ القبر!!

وعندما قرَّرَ الأطباءُ أنه كرونز؛ ذهبتِ الأم إلى الدكتور ساجد كبيرِ أطباءِ الباطنيَّةِ لتحادثَه على انفرادٍ، فسألتْه: «كيف تبيَّن لكم أنه كرونز، مع أن منيراً أجرى ثلاثةَ مناظيرَ من قبل ولم يظهرْ ذلكَ، ومنها في مُسْتَشفَى آخرَ خارج البلادِ، قبلَ دخولِه هذه المُسْتَشفَى؟!!!».

هزَّ الطَّبيبُ رأسه، ثم استندَ على الحائطِ من خلفه، وضعَ يدَه على جبينه، بعدَ أن حاولَ التملصَ

منها ثم قالَ لها وكأنه اكتشفَ الذرةَ بعدَ بحثٍ وتدقيق: «إن ابنَك سبقَ أن أخذَ الكورتيزون، وهذه المادُة تمسحُ معالمَ المرض، فلا تظهرُ بعدَ ذلكَ آثارُ المرض في العيناتِ التي تمَّ أخذُها من الأمعاءِ». .

لكنَّ الأم الحريصةَ على حياةِ ابنِها مثل كلِّ أم جريحةٍ والتي وقعتْ في تِلكَ التَّجارب الفاشلةِ؛ لم تقتنعْ بهذا التحليلِ، فذهبتْ بعدَ ذلكَ مباشرة إلى مبنى الجهازِ الهضمي، وقامتْ بالبحثِ عن كبيرِ الأطباءِ الدكتور حمد حتى وجدتْه، وعندَما وجدتهُ وتمكنتْ من الحديثِ معه؛ طرحتْ عليه السؤالَ نفسَه، وقالتْ له دونَ أنْ تخبرَه من أينَ جاءَت بهذه المعلوماتِ: «هل يوجدُ أي احتمالٍ بأنْ يكونَ الكورتيزون «مسح» معالمَ المرضِ؟».

وهنا حدثتْ مفاجأةٌ جديدةٌ وغريبة فعلاً، وهي أغربُ من كلِّ ما مضى من جانبِ كبيرِ الأطباء، إذ

استهزأَ الدكتور حمد بكلامِ الدكتور ساجد، معتقداً أنه كلامُها، وقال بابتسامةٍ ساخرة:

«لا يـمـكـنُ ذلـكَ، الـكـرونـز لا يـكـونُ فـي كـلِّ الأمعاء، ويكتشفُ بحسب العينةِ التي يتمُّ أخذُها، وهذا معناهُ أن العيناتِ السابقةَ لم تُؤخذْ من المكانِ الذي يوجدُ فيه الكرونز».

عـنـدمـا سـمـعـتُ هـذه الـقـصـةَ والأم تـرويـهـا لـلأبِ اشتطتُ غضباً، كنتُ أريدُ أن أعْلنها ثورةً على هؤلاءِ الأطباء؛ وليسمعِ العالمُ كيفَ ينقضُ الواحدُ منهم كلامَ الآخرِ، وكأنهم يتحدثونَ عن قطّة أو حتى عن جَماد. .

كيفَ يستهزئون أو يُلقونَ الاحتمالاتِ على عواهنها؟

وكيفَ لا يُحاورُ الطَّبيبُ المسؤولُ الطَّبيبَ المسؤول الآخرَ، وكأن هذه الروحَ البشريَّةَ لا قيمةَ لها؟!

عجباً، عجباً. .

إنه لأمرٌ معيبٌ حقاً، فهُمْ حتى صباحِ اليومِ نفسِه

كانوا يقولون إنهم يلتقون بِشكلٍ مستمرٍّ لمناقشةِ أوضاعِ منير، فكيف غابتْ هذه المسألةُ المهمَّة عن أحاديثِهم؟!!

هذا إنْ صدقَ قولُهم أنهم كانوا يناقشونَ الموضوعَ في حواراتٍ دائمة..

إنها مأساةٌ حقيقيَّةٌ أقربُ إلى الخيالِ منها إلى الواقعِ!

وتمَّ حقنُ منير بإبرِ الكورتيزون (مئة مل مرات في اليوم)، غيرَ أن جسدَه الضعيفَ لم يتحمَّل هذه الكميَّةَ كما توقعَ أطباء الباطنيَّة، لكنَّهم تركوه لمصيره.. يريدون معاقبةَ والده لحرصه على ولده..

وبعدَ أيام قليلة من حقن الكورتيزون أصيبَ منير بحال تشنج رهيبة تشبه الصرعَ، ولم يعد يَستَطيع التنفسَ بعدَ أن عضَّ لسانَه الذي أصبحَ لونه أسودَ قاتماً، فتمَّ إسعافُه في الحال بحقنٍ مهدِّئة، ثم نقلَ على عجل إلى العنايةِ المركَّزة، وكانَ هذا الانتقالُ للمرة الثانية..

ومكثَ هذه المرة نحو عشرة أيامٍ. .

ولا يمكنُني وصفُ ما جرى أمامي ـ وتكررَ أكثرَ من مرة ـ من حالة الصرع المخيفة. . فلم يكن هنالك أطباء ليقوموا بإسعافه. . لولا وصولُ طَبِيب الغدد الدكتور عبد العظيم بعدَ قيام الأم بالاتصالِ به مباشرةً؛ حيثُ جاءَ على عجلٍ، علماً أنه ليسَ من الأطباءِ المعنيِّين به مباشرةً في قسمِ الباطنيَّة. ومع ذلكَ، أسرعَ بنفسه وبكلِّ طاقته، ويركضُ نحو قسمِ الأطفال لإحضارِ مهدِّئ خاصٍّ بالأطفالِ لكي يسيطرَ على حالِ الصرعِ التي انتابتْ منير فجأةً. . قبلَ أن ينقلوه مجدَّداً إلى العنايةِ المركَّزة.

وبعدَ أيام عاد إلى غرفته من العناية المركَّزة وكان جسدُه محتقناً بالسوائل، وأصبحَ (كيس الخصيتين) بحجم الكرةِ الطائرة، ولم يعدْ يَستَطيعُ من بعدها الوقوف على قدميه، منذ خروجِه من العنايةِ المركَّزة وحتى موته بعدَ أشهرٍ عدَّة. .

وعلى الرّغْمِ من كلٍّ ذلكَ؛ فإنَّ كبيرَ الأطباء الذي قالوا عنه إنه أفضلُ طَبِيب كرونز في تخصُّصه لم يقمْ بمُتَابعتِهِ وزيارتهِ في العنايةِ المركَّزةِ، ولا بعدَ خروجِه، وكأنَّه أكبرُ من أنْ يزورَ مريضاً يُعتبرُ مسؤولاً عنه في مُسْتَشفى حكومي، لكنَّه لو كانَ في مُسْتَشفَى خاصٍّ فمن المؤكدِ أن تصرُّفه سيكون مغايراً تماماً.

وخرجَ منير من العنايةِ المركَّزةِ بعدَ نحو عشرةِ أيامٍ منهَكاً، ومن بعدِها تابعَ حقن الكورتيزون، لكنْ بنسبةٍ أقل (50 مل 3 ثم 4 مرات يومياً)، وهي نحو نصف الكميَّةِ السابقة.

وأذكرُ أنه عندما تردَّت صحتُه بعدَ حقنِ الكورتيزون وجاءَته حالة تشنجٍ تشبهُ الصرعَ أُعطي دواءً مهدئاً، عندها جاءتِ الدكتورة نبيهة ومعها الدكتور ساجد وهما كبيرا استشاريَّي الباطنيَّة فقالا: «إن جرعةَ الكورتيزون كانتْ كبيرة».

قالتْ لهما الأم: «لماذا إذاً لم تقترحا على الدكتور حمد تحديدَ جرعةٍ أقل؟!».

قالا: «نحنُ لا نتدخلُ في قرارات الدكتور حمد». .

غريبٌ جداً!!

فهما يعلَمان أن منيراً كان حتى ذلكَ الوقت تحتَ إشرافِ أطباء الباطنيَّة.

ومن غرائبِ الأمورِ أيضاً، ولعلَّها من الطرائفِ المبكيةِ المضحكةِ في آن معاً؛ أن الأم والأب اعتقدا أن ولدهما زاد وزنه بعدَ خروجِه من العنايةِ المركَّزةِ. .

وكان الأب يقول ذلكَ للأطباءِ، خاصَّة أن عضلاتِ منير أصبحت تبدو أكبر من السابقِ، وامتلأ الوجه والجسم قليلاً. . فكان الأطباء يحركون رؤوسهم ليوهموه بأن هذا شيءٌ إيجابي، مِن دونِ أنْ يشرحوا للأب والأم المسكينيْن «الجاهلين» بالطبِّ؛ أنها مجرد سوائلَ يجب إخراجُها من الجسمِ.

ومن الأشياءِ الغريبةِ والمؤلمةِ والمدهشةِ معاً؛ أنه وبعدَ عودتِه من العنايةِ المركَّزةِ خرجتْ من فمهِ بضع قطراتٍ من الدمِ مختلطة بلعابِه، فلم تكتملْ فرحتُه بالعودة إلى غرفتِه..

من يصدقُ أن فتى يافعاً مثله كانتْ كلُّ فرحتِه تكمنُ في أن يخرجَ من العناية المركَّزة ويعودَ إلى غرفته في أحدِ أجنحةِ المُسْتَشفَى ليقضيَ أوقاته بين والدَيه، فراراً من ذلكَ المكانِ الموحشِ الذي كان يُبكيه كلَّما مرَّ ذكْره أمامه؟!

المستشفياتُ بِشكلٍ عام مكانٌ يُسببُ الحزن والكآبة، ولعلَّ أكثر الأماكن حزناً فيها: «المشرحة»، حيثُ تسكنُ الأجسادُ بغيرِ أرواحِها قبيلَ نقلِها إلى مقَرها الأخيرِ، ومن بعدها مباشرةً العناية المركَّزة، وربما تكونُ الأخِيرة أشد الأمكنةِ كآبةً من أي مكانٍ آخرَ، لِما تحتويهِ من أناسٍ لا يَستَطيعون الحراكَ..

وقد يقبلُ ذلكَ من مرضى غائبين عنِ الوعي لأنهم لا يُدركون أين هم، أمَّا المريضُ الواعي المدركُ فَيرى هذا المكانَ وكأنَّه كارثةُ الكوارثِ، والمكانُ الذي يصيبُه بالكمدِ، حيثُ تستقرُّ جموعُ المرضى العاجزين أمام سمعِه وبصره، ومنهم من يموتُ فيغطُّونهُ بالأكفانِ ويربطونَه بإحكامٍ..

وفي الحقيقةِ، فإنَّ هذا المكانَ هو من أكثرِ الأمكنةِ التي تثيرُ ألماً مُتَصاعداً في النفسِ، لم أدخلْه قبلَ الآن، ربما بسببِ قصرِ الفترةِ التي عملتُ خلالَها في المُسْتَشفَى، لكنَّني دخلتُه بإرادتي وأنا أتبعُ هذا الفتى المسكينَ، في رحلةِ العذابِ ما بينَ الألم والتَّشْخيصاتِ الخاطئةِ، والقهرِ، والاستهتارِ بحياته..

كأنه كائنٌ طفيلي لا قيمةَ له، ويستحقُّ العقابَ بسببِ ما يبذلُه والداه من جهدٍ ومالٍ وماء وجهٍ للإبقاءِ عليه بينَهما حيّاً يرزقُ، سعيداً سليماً من المرضِ..

ربما من الأجدى على الأمهاتِ والآباء أن يكونوا مثل الأصنامِ ـ صامتين خانعين ـ إزاء ما يَرونَه يحدثُ أمامَ أعينهم من أخطاء مُتَكررةٍ.. فالويلُ لهم إن ناقشوا أو تذمَّروا أو تحدَّثوا عن الأطباءِ أمام أحدٍ، فسيكونُ مصيرُ مريضِهم الإهمالَ، والوجهَ العبوسَ، والمجافاة، وتركَه من حينٍ لآخرَ بلا طَبِيبٍ ولا مُتابَعَة حقيقيَّة ـ وربما ـ امتلأَ جسدُه بالكدَماتِ السوداءِ والزرقاءِ والحمراءِ.. فلا يَحظَى بأيٍّ اهتمامٍ أو مبالاةٍ.. كما حدثَ فعلاً..

وأذكرُ أنهم وبعدَ خروجِ قطراتِ الدم من فمِه، قاموا وعلى الفورِ ومِن دونِ التحققِ منها بإعادته إلى العناية المركَّزة، دونَ التأكدِ من سببِ هذا الدمِ..

ومكثَ في العنايةِ المركَّزةِ ـ التي لم يكن بحاجةٍ إليها ـ من يومِ الأربعاء إلى يوم الأحد، لأنه في نهايةِ الأسبوعِ ـ أي يومي الجمعة والسبت ـ لا يداومُ

الأطباءُ المُتخصِّصون، الذين بإمكانهم أن يقرِّروا بقاءَه فيها أو خروجه منها!!!

وقالتْ طَبِيبةٌ في العنايةِ المركَّزةِ:

«لم تكنْ هناك ضرورةٌ تستدعي عودتَه إلينا، لأن قطراتِ الدم هي بسببِ أنبوبِ الأوكسجين الذي أدَّى إلى جروحٍ بسيطة في مَجرى الهواءِ».

وهل هناكَ بعد هذا ما هو أدلُّ على مدى الاستخفافِ بحياتِه وبحالتِه النفسيَّة؟!

وتذكِّرني هذه الحادثةُ بقصةِ جحا في التراثِ العربي عندما أرادَ أن يكونَ طَبِيباً. تقولُ القصةُ إن جحا زارَ صديقاً له فوجدَه مريضاً يتألمُ من معدتِه، ومعه الطَّبيبُ. وبعدَ أنْ قامَ الطَّبيب بمعاينةِ المَريضِ قالَ لجحا: «الأمرُ بسيط، لكن عليه أن يخففَ طعامَه ليوم أو يومَيْن ويمتنعَ عن أكلِ الكعك». ثم خرجَ الطَّبيبُ، فأسرعَ جحا خلفَه يسألُه مُتَعجباً: «لكن كيف عرفتَ

ذلكَ وبسرعةٍ؟!!». فقالَ الطَّبيبُ: «المسألةُ بسيطة، عندما علمتُ أنه يعاني آلاماً في معدتِه نظرتُ في فمه وتحتَ السرير فرأيتُ بقايا الكعكِ مُتَناثرة..

وبعدَ أيامٍ ذهبَ جحا لزيارةِ صديقٍ له آخرَ وكان أبوه مريضاً.. فدخلَ غرفةَ الأبِ ونظرَ في فمه ثم تحتَ السريرِ حيثُ كانَ الأبُ يضعُ أحذيتَه.. فقالَ جحا لصديقه بصوتٍ منخفضٍ: «الأمر بسيطٌ.. لقد تعلَّمنا في الكتب أن أكلَ الأحذية عادةٌ سيئةٌ ومضرةٌ بالصحة.. لذا أنصحُكَ بأنْ تبعدَ الأحذيةَ من تحت سريرِ أبيكَ». فدُهشَ الصديقُ ووقعَ على الأرضِ مغشياً عليه.

12

مِئَةٌ بِالمِئَة أَمْ صِفْرٌ بِالمِئَة؟!

ـ يا لهذِه المأساةِ! من طَبِيبٍ.. إلى طَبِيبٍ.. إلى طَبِيبٍ.. الكلُّ يرمي الكرةَ في ملعبِ الآخرِ.

ـ أيُّ طَبِيبٍ يليقُ به الثوبُ الأبيضُ يرضَى بأنْ ينقلبَ (180) درجةً مِن دونِ سابقِ إنذارٍ، من النقيضِ إلى النقيضِ، وبهذا الشكلِ السريعِ جدّاً.. وخلالَ سويعاتٍ معدوداتٍ؟؟؟!!!

ـ يوم أمسِ بالتَّحْديدِ، وليسَ قبله، قالَ لها مساعدو الدكتور حمد وبكلِّ ثقةٍ و«أمانة» ونقلاً عن الدكتور مأمون نفسِه وليسَ مأموناً آخرَ: إنه كرونز «مئة بالمئة»، لكنَّهم مختلفونَ بدرجتِه، واليوم يقولُ رئيسُهم

المسؤولُ بكلِّ بساطةٍ: «إنه ليسَ كرونزاً». .

❊ ❊ ❊

استمرَّ منير يُعاني بصمتٍ بالغ وصبرٍ فريد وهو يتحمَّلُ إبر الكورتيزون لنحو شهرٍ كامل، والتقتِ الأم مصادفة بكبيرِ الأطباء الدكتور حمد في بهوِ مركز الجهاز الهضمي فلحقتْ به، لكنَّه تجاهَلها في محاولةٍ منه لعدمِ التحدُّث معها مثل كلِّ مرةٍ. .

لكنَّها أصرَّتْ هذه المرة على الحديثِ معه، وبادرتْه بكلامٍ واضحٍ مختصرٍ وبسؤالٍ بيِّن مباشر: «لا يوجدُ تحسُّن يا دكتور! هل سنستمرُّ في هذا العلاجِ زمناً طويلاً مِن دونِ فائدةٍ على الرّغْمِ مما رأيناهُ من أضرارٍ كثيرة؟ جسدُه أصبحَ ضعيفاً جداً والأطباءُ يقولون إن الكورتيزون لم يؤدِّ إلى أي نتيجةٍ».

«منذُ نحو عشرين سنةً وأنا أعملُ في الطِّب وَمَا رأيتُ كرونزاً مثل هذا». .

قالَ لها ذلكَ مبدياً استغراباً مصطنعاً، مبرِّراً ما فعلَ بهذا الغلامِ الصالحِ ليبعدَ عن نفسِه أي مسؤوليَّة، ويحملَ المريضَ مسؤوليَّةَ مرضه كأنَّها شهادةٌ طبيَّة!!!

كان يحاولُ أن يؤكِّدَ أنه ما زالَ مقتنعاً حتى هذه اللَّحظة أن ما أصابَ منير هو بسببِ الكرونز، كي لا يعترفَ بخطئه وبما فعلَه بحقٍّ هذا الفتى المسكين..

ثم قالَ والأم بين الصدمة والحيرةِ والانفجار المبطَّن بابتسامةِ الجراح:

«سأرسلُ إليك الدكتور جلال، فلديه خبرةٌ في هذا المجال».

يا لهذه المأساة! من طَبِيب.. إلى طَبِيب.. إلى طَبِيب.. الكل يَرمي الكرةَ في ملعب الآخر.

عُدْنا إلى نقطةِ البداية، وإلى التجربةِ الأولى في غرفةِ الطوارئ..

ولم تمضِ ساعاتٌ طويلة على ذلكَ اللقاءِ حتى

حضر الدكتور جلال وقال للأم إنَّ ابنها لم يتحسَّن على الكورتيزون على الرّغْمِ من مرورِ أسابيعَ عدة. .

كأن الأم لم تلاحظْ ذلكَ وتجهلُ حالَ ابنها.

كانتْ مكسورةَ الخاطر والجناح، اضطرَّت أن تنصتَ إليه حتى النِّهاية، وتستمعَ إلى كلامه المكررِ الذي باتَت تحفظُه أكثر من الطَّبيبِ نفسِه من كثرةِ قراءتها ومُتَابعتِها وحفظِها عن ظهرِ قلبٍ لنتائجِ العيناتِ والفحوصاتِ والأدوية التي كانتْ تضرب في جسدِه «خبطَ عشواء». .

لم يهتمَّ الدكتور بحسرةِ الأم، ولا بخاطرِها المكسور، ولا بقلبِها المقهورِ المُتَألم. . بل قالَ لها بكلِّ «براءة» وكأنه اكتشفَ ما لم يكتشفْه الأوائلُ:

«لماذا إذاً لا نعرضُ العينةَ على طَبيبٍ آخرَ؟».

يا سبحان ربي!!!

أنتم مَن رفضتُم ذلكَ بحزمٍ وبشدةٍ منقطعة النظيرِ

منذُ البِدايةِ، وقرَّرتم بِشكلٍ عاجلٍ ومِن دونِ تروٍّ ومِن دونِ التأكدِ من فاعليَّةِ الإبرةِ الخاصَّة بالهرمون، على الرّغْمِ من مظاهرِ التحسنِ التي ظهرتْ في الفترةِ الأخيرةِ على منير قبيلَ بدءِ حقنِ الكورتيزون. .

قرَّرتم فجأةً ومِن دونِ وجهِ حق البدءَ بهذه الحقنِ، وكأنكم أنتم وحدكم أصحاب الحقِّ الأول والأخير بأنْ تَفعلوا بجسدِه ما تشاؤون ومتى تشاؤون؟؟؟!!!

حتى دونَ التأكدِ مما أنتم مقبلون عليه من مصيبةٍ لا توازيها مصيبةٌ، رغم أنكم قُلتم في البداية إنكم متأكدون «مئة في المئة»، ثم يظهرُ بعدَ ذلكَ أنكم كنتم غيرَ مُتَأكّدين!!

بل حتى غير مرجِّحين. . بل أنكرتُم لاحقاً موافقتَكم، واعتبرتُم أن الأمرَ مجردُ تجربة. .

ومنكم من تنصَّل من ذلكَ الرأي، وكأنه يرى من يكلِّمه بلا ذاكرة تَحفظُ، ولا أذن تسمعُ ما قُلتم

وتقولون! وكان كلُّ همكم أن تحصلوا على توقيع والد منير أو أمه عند إجراءِ تجربةٍ ما، لتحمِّلوهما المسؤوليَّة التي أنتم مخطئون فيها، وهما ـ للأسفِ ـ مثل الغريقِ الذي يتمسَّكُ بقشةٍ!!!

فماذا أنتم فاعلون؟؟!!!

وماذا تتوقَّعون أنْ يقولا وأنتم تَطلبون منهما التوقيعَ على أوراقٍ مُتَتاليةٍ تضمنُ ألَّا مسؤوليَّة عليكم، وأنَّ المسؤوليَّةَ الكاملةَ على الوالدَين إذا ما وقَعت مصيبة ما.. وإنكم لا تَتحمَّلون نتائجَ ما أنتم مقدمون عليه، من أخطار تتوقَّعونها؟!!

لا شكَّ أن الأم فكرتْ بكلِّ هذا وهي تستمعُ إلى الدكتور جلال، لكنَّها لم تنبسْ بأي كلمةٍ جارحةٍ ولا حتى خارجة عن حدودِ اللياقةِ..

كان الأملُ يحدوها، ولا يزالُ يسيطرُ على كيانها.. فهي تخشى أن تتَّهمَ هؤلاء الذين أَوصلوا

ابنَها إلى الحافةِ وتركوه يسقطُ.. لكي لا تزدادَ المعاناةُ.. إلا أن البياضَ ثوبٌ لا يليقُ بهم.

واقترحَ الدكتور جلال اسمَ الدكتور مأمون!!!

وبعدَ ثلاثةِ أو أربعة أيامٍ جاءَ الدكتور المعتصم بالله والدكتور ملاك وآخَرون، أخْبروا الأمَّ أن الدكتور مأمون «جزم» أنه كرونز، لكنَّه اختلفَ مع مُتخصّص آخرَ وهو الدكتور سركيس على حدَّة هذا الكرونز، وهم يريدون رأياً ثالثاً من أجلِ تحديد خطَّة جديدةٍ للعلاجِ.

وهنا سألتْهم الأمُّ وفي اللقاء نفسِه ولأكثر من مرة: «هل أنتم مُتَأكِّدون أنه كرونز؟».

كانتْ تريدُ أن تتأكَّدَ من أنهم لا يشكُّون ولو للحظةٍ واحدة بأنه مرضُ السرطان المرعب.

فأجابَ الدكتور ملاك:

«نعم»..

وكرَّرها بكلِّ تأكيدٍ:

«نعم.. نعم»..

بل قالَها بحزم.. بثقة.. بطريقةٍ تثبت في عقلِ السامعِ ولبِّه أنه واثقٌ «جداً جداً» من كلامِه!!!..

لكن!

وبسحرِ ساحرٍ وعملِ عامل انقلبَ الدكتور ملاك على هذه «النَّعم» فجأةً، دونَ سابقِ إنذار!!!

بل لم يكتفِ بذلكَ، فقد أنكرَ مقولتَه هذه بعدَ فترةٍ وجيزةٍ جداً، ولا أقولُ شهوراً ولا أسابيع.. ولا حتى أياماً.. بل سُويعات مَعْدودات، ولم يتورَّع عن القولِ وبكلِّ ثقةٍ، و«مئة بالمئة»، وخلالَ أقل من نصفِ يوم، أنه كان يشكُّ في هذا الاحتمالِ منذُ البِدايةِ، ويعتقدُ أنَّ ما أصابَ منير ليسَ له علاقة بِالكرونز من قريبٍ أو بعيد..

يا سبحان الله!!!

يقولُ إنه استغربَ منذُ البِدايةِ كيف قالوا أنه كرونز!!!

أيُّ طَبِيب يليقُ به الثوب الأبيض يرضى بأن ينقلب (180) درجةً مِن دونِ سابقِ إنذارٍ، من النَّقيض إلى النقيضِ، وبهذا الشكلِ السريع جداً.. وخلالَ سويعاتٍ معدودات؟؟؟!!!

فكيف نثقُ بعدَ اليوم بمثل هذا البياضِ المزيَّف للحقائقِ.. المنكِر للوقائع؟؟؟!!!

وما حدثَ بين هذا الموقفِ الأخير وَمَا قبلَه كان أشدَّ ثقلاً من جبلٍ على قلب بشرٍ!!!

ففي صباحِ اليوم التالي للقاءِ الأم مع الدكتور المعتصم بالله والدكتور ملاك ومَن معهما من أطباء، التقتِ الأم الدكتور حمد كبيرَ الأطباء من جديدٍ في بهوِ المركز، فقالَ لها: إن الدكتور مأمون طَبِيبَ المختبر يؤكِّدُ أن المرضَ ليس كرونزاً، وطلبَ منها أخذَ كلِّ العينات الطِّبِّيِّة مختبراً آخر لمتخصِّصةٍ وتدعى الدكتورة فاطمة، وهي تعملُ في مُسْتَشفَى آخرَ..

وهنا أصيبتِ الأم بصدمةٍ أخرى بالغة.. وحيرةٍ ما بعدها حيرة..

يوم أمسِ بالتَّحْديدِ، وليس قبله، قالَ لها مساعِدو الدكتور حمد وبكلِّ ثقةٍ و«أمانة» ونقلاً عن الدكتور مأمون نفسِه وليس مأموناً آخر: إنه كرونز «مئة بالمئة»، لكنَّهم مختلفون بدرجتِه، واليوم يقولُ رئيسُهم المسؤولُ بكلِّ بساطةٍ: إنه ليس كرونزاً..

ذكَّرته الأم بأنها يوم ظهورِ نتيجة فحصِ العينة وقالوا أنها كرونز، قامتْ وأحضرتْ له نتيجةَ عينة سابقةٍ، وأشارتْ إلى النتيجة بإصبعِها، وهذه النتيجةُ تنفي وجودَ أي دليل على أنه كرونز، لتقطعَ الشكَّ باليقين.. لكنَّه استهزأَ بحركةٍ في يده، مصرّاً على رأيه.. على الرّغْمِ من أنَّه تمتمَ في اللقاء نفسِه أن الكرونز لا يفعلُ بالمريضِ مثل حالةِ منير.. ومع ذلكَ تابعَ خطواتِ الكرونز..

يبدو فعلاً أن كلامَ الليل يَمحوه النهارُ. .

وتابَعَ يقولُ بانشراح مبالغٍ فيه وهدوءٍ نفس يحسدُ عليه: «نحن نشكُّ بوجودِ نوع من نقصِ المناعة لديه».

ها نحنُ عدنا للشكِّ بعدَ اليقين. . وللاحتمالاتِ بعدَ الـ «مئة بالمئة». .

أين كبرياءُ أحسن طَبِيب كرونز في البلادِ. . يبدو أنه نَسِي عدمَ رغبتِه بأن يستشيرَ أبو منير أحداً غيرَه باعتبارِ أنه طَبِيبٌ لامع؟! وها هو الآن ينكرُ وبكلِّ «فخر»، وينقض كلَّ أفعالِه وأقواله السابقةِ بانشراحٍ مريب، وكأنَّ المريضَ الذي أمامَه قطةٌ «عرجاء» أو حيَّةٌ «جرباء»!!!

ربما الحقُّ معك يا سيدي. . ألستَ طَبِيباً «ماهراً» ومن حقِّك قول ما تشاءُ بغير حسابٍ ولا من يحاسَبون؟!

بإمكانكَ يا سيِّدي أن تختمَ كلَّ وصفةٍ طبيَّة بختمٍ يقول: «طَبِيبٌ وأفتخر. . وخَزى اللهُ العيون».

أما أنا فأقولُ لك نيابةً عن كلِّ عمال التَّنظيف: يا سيِّدي إلا تفتخرْ كثيراً.. فأنا أفتخرُ أكثر منك بمكنستي هذه، لأنني صادقٌ معها وبها، وهي تليقُ بي أكثر من لياقةِ ثوبك الأبيضِ بك.. أَأَنتَ الآن تطرحُ احتمالَ المناعة وتطلبُ أخذَ العينة لطَبِيبٍ آخرَ؟! شيءٌ عجيبٌ حقاً..

كنتُ أتكلَّمُ مع نفسي وكأني أخاطبُه وأقولُ: يا دكتور.. ألم يكنْ لديك وقتٌ كافٍ طوال الشهورِ الماضية لكي تطلعَ وتدركَ أن فحصَ المناعة أُجري سابقاً؟؟؟ كيف؟! وأنتَ الطَّبيبُ «الأول» و«الأوحد»، وبلا «شبيهٍ أو نظير» في البلادِ، باعتقادكَ وباعتقادِ من يُجاري أحلامَك..

أَلستَ أنت دكتور الـ«مئة بالمئة»، ومن صرَخَ على الأم وعرقلَ سفرَ ابنِها المريض إلى الخارج يومَ كان بإمكانه أن يسافرَ، وسخرَ منها لأنها تريدُ تسفيرَه

للعلاج، لأنه يظنُّ ـ ربما ـ إذا لم يعالجْه هو؛ فلن يعرفَ أحدٌ غيره ما هو العلاج..

كيفَ تغفلُ على الرّغْمِ من كلِّ هذا عن نتيجةِ فحص سابقٍ بهذه الأهميَّةِ التي تَراها الآن؟؟ وقد طلبَها من قبلكَ طَبِيبٌ شاب ليس بمدير ولا برئيسِ مركز ولا بكبيرٍ للأطباء؟!

ألا تَدري أنه تَمَّ إجراءُ فحص المناعةِ في البداية، عندما طلبَه الدكتور المعتصم باللهِ من العينةِ التي أخذتْ من الأمعاءِ في المنظارِ الأول؟!

إن هذا يشيرُ «مئة بالمئة» إلى أن كبيرَ الأطباء الدكتور حمد لم يكن يقرأُ تفاصيلَ الملفِّ، ويأخذُ القراراتِ جزافاً، ودليل هذا أمرُه باستئنافِ حقن ميوعةِ الدمِ لاحقاً.

ما هذه المفارقاتُ الغريبة والمدهشة؟!

كأنَّ ما نراه ونسمعُه ليس أكثر من مسرحيةٍ ركيكة

البناءِ ضعيفة الإنتاجِ للغاية، لا يعرفُ المخرج ضبط إيقاع الممثِّلين فيها ولا تنظيم حركاتِهم، ولا يعرف كاتبُ النصِّ أن يطورَ المشاهدَ، ويحبكَ الأحداثَ بطريقةٍ فنيَّة ماهرةٍ، ولا ينجحُ في ترتيبها الزَّمني والمنطقي المُتَرابطِ بإحكام، بِشكلٍ يقنعُ معه الممثلين في فصولِها قبل أن يقنعَ المشاهدين لها والمستمعينَ إليها بأنَّ ما يَجري على خشبةِ المسرحِ يمكنُ أن يجريَ في ردهاتِ المُسْتَشفَى وغُرَفه.

وقالَ الدكتور حمد:

«يجبُ أن يجتمعَ طَبِيبُ المناعة الدكتور محمد وطَبِيب الغددِ الدكتور عبد العظيمِ مع الدكتور جلال لبحثِ موضوعِ منير». .

كانَ كما يبدو يحاولُ التنصُّلَ مرةً أخرى من الموضوعِ، فسألتْه الأم برجاءٍ وتوسُّل: «بما أنكَ أنت

كبيرُ الأطباء هنا؛ نرجوكَ أن تستعجلَ الأمر، فحالةُ منير شديدةُ الحرج».

فقالَ لها بكلِّ هدوءٍ وبرود:

«عندما يجدُ الشبابُ وقتاً فسوفَ يجتمعونَ بكلِّ تأكيد».

وهكذا بعدَ نحو شهر اعترفَ الدكتور حمد بأنَّه لم يكن كرونزاً، وطلبَ الذهابَ بالعينات إلى طَبيب آخرَ بعدَ أن كانَ رافضاً ذلكَ، علماً أنه هو نفسه كانَ في البداية مستبعداً أنه كرونز، لكنَّه فجأةً قرَّرَ ذلكَ بعدَ أخذِ عينة من الأمعاءِ وأكدَ ذلكَ بـ«مئة بالمئة»..

أما اجتماعُ «الشباب» فعلى راحتِهم، الأمر لا يستحقُّ العناء.

13

حَسَاسِيَّةُ القَمْحِ

ـ الأطباءُ الذين يُخطئون بحقِّ الناس ولا يقومون بالدَّور المنتظَر منهم؛ همُ الوباء الحقيقي، وهم يعاونون المرضَ على الفتْك بالمريضِ..

ـ كيف يا تُرى تغيَّرت آراؤهم بين ليلةٍ وضحاها؟! لم أفهمْ كيف تبدَّلت قرارتُهم وتوصياتُهم والـ«مئة في المئة» خاصَّتهم في غضونِ ساعات؟!

ـ لم تجدِ الدكتورة سعاد حلّاً سوى أنْ تلقيَ باللائمة على منير لأنَّه لم يستجبْ للعلاج..

❋ ❋ ❋

جاءَ الدكتور ملاك بعدَما تبيَّنوا خطأَهم بأنَّ مرضَ

منير ليس كرونزاً، وقالَ لأمه أنه استغربَ منذُ البِدايةِ كيف قالوا إنه كرونز، ومثله أيضاً الدكتور جاسم، وهناكَ غيرهما أيضاً ممن قالوا لاحقاً أنهم كانوا يشكُّون بأن مرضَ منير ليسَ كرونزاً.. وكلُّهم حاولوا التنصُّل مما أقدموا عليه في هذا التَّشْخيصِ بالذَّات..

ولعلَّ ذلكَ أمرٌ غريبٌ حقاً، وربما قد يكون أغرب من كلِّ ما مضى من أحداثٍ.. كيف يا تُرى تغيَّرت آراؤهم بين ليلةٍ وضُحاها؟!

لم أفهمْ كيف تبدَّلت قرارتُهم وتوصياتُهم والـ«مئة في المئة» خاصَّتهم في غضونِ ساعات؟!

ولماذا لم يَجتمعوا للنِّقاش وطرْح هذه الآراءِ قبل تعريضِه لإجراءِ الكورتيزون على الرّغْمِ من ضعفِ جسدِه وتكرارِ التشخصياتِ الخاطئة؟

ألم يكنِ الأَوْلى لهم أن يَطرحوا هذا الموضوعَ للبحثِ والدراسةِ، أم أنهم مشغولون بأمورٍ أخرى،

وليستِ الأَمراض النَّادرة التي تتطلَّبْ منهم وقتاً وتمحيصاً وتركيزاً.. بأمرٍ مهمٍّ لكي يخصِّصوا له جزءاً من أوقاتِهم «الثمينة»؟! أم أنهم فقط يَتَباهون عندَ السفرِ لمستشفياتٍ خارجيَّةٍ بأنهم يُجرون أبحاثاً مهمَّة؟؟

ألم يكنِ الأَولى لهم أن يُجروا أبحاثاً على مريضٍ يموت بين أيديهم بدلاً من أن يَتركوه يصارعُ المرضَ، وفوقَ المرضِ تشخيصاتهمُ الخاطِئة؟ عجَباً منهم وألْف عجبٍ!!!

كما أنَّهم لم يكتفُوا بالصَّمْتِ، وحبَّذا لو فعلوا، بل أكَّدوا ما لم يتمَّ التأكُّد منه..

وبعدَ ذلكَ قرَّرَ الدكتور جلال أنَّ المرضَ سببُه حساسيَّة القمحِ، وذلكَ بسببِ ارتفاع نتائجِ فحص معيَّن أُجري في السابقِ في قسمِ الباطنيَّة، لكنَّ أطباءَ الباطنيَّةِ في ذلكَ الوقتِ وعندَ صدور نتيجةِ الفحص

استَبعدوا ذلكَ، قائلين: «إنَّ هذا الارتفاعَ المحدودَ لا يعني الإصابة بحساسيةِ القمحِ»..

لكنَّ الدكتور مرعي والدكتور جلال أصرَّا ـ كلّاً على حدةٍ ـ على أن: «ما يحدثُ لمنير سببهُ كلهُ حساسيَّة القمحِ»..

وعند مواجهتِهما برأيِ أطباءِ الباطنيَّة قالا في وقتٍ منفصل أيضاً: «إن حساباتِ أطباءِ الجهازِ الهضمي تختلفُ عن حساباتِ قسم الباطنيَّة».

علماً أن هذا الفحصَ مضى عليه نحو أربعةِ أشهر.. وكما يبدو فإنَّ حساباتِ كلِّ طَبِيبٍ تُبنى على حسابات تختلفُ، وإن كانَ المريض لم يختلفْ..

ونقلَ أحدُ الأطباء عن الدكتورة سعاد ـ التي قالوا إنها أستاذةٌ كبيرةٌ في كليَّة الطِّب وطَبِيبةٌ ماهرةٌ جداً لكنَّها لم تدخلْ يوماً إلى غرفةِ منير ـ القول بأنها شخَّصتْ مرضه على أنه حَساسيَّةُ القمح، ولم تجدِ

الدكتورة سعاد حلّاً سوى أنْ تلقيَ باللائمةِ على منير لأنه لم يستجبْ للعلاج..

علماً أن منيراً لم يخضعْ لأيِّ علاج خاصٍّ بحساسيَّة القمح، باستثناءِ الامتناعِ عن الطعامِ العادي، والاقتصارِ على الموادِّ الخاليةِ من القمحِ، ما زاده نحافةً وتضرُّراً. فعَن أيِّ حساسيَّة تحدثت الدكتورة سعاد وهي في مكانها البعيدِ، تسكنُ برجَها العاجي؟!

وما هي طرقُ التَّشْخيصِ والعلاج الغريبةِ العجيبة المُتَّبعة في هذا المُسْتَشفَى الذي لا طَبِيبَ فيه يُعاين المريضَ ولا علاج يُصيب؟؟؟!!

وكان الدكتور جاسم قد أكَّدَ فيما سبقَ جازماً، وأيضاً «مئة في المئة» أن منيراً ليسَ مُصاباً بحساسيَّة القمحِ. كلها تجارب في تجارب، نتاج أوراقٍ وأقلامٍ وقيل وقال.. كما أخْبرني في أحدِ الأيامِ ممرض يليقُ به اللون الأَبْيض.

وبالتَّالي يستمرُّ مسلسل الأخطاءِ المُتَتالية كنتيجةٍ حتمية لكلِّ هذا الاستهتارِ بحياة الناسِ، والإهمال المستشري مثل السرطان..

وإنَّني لأعتقدُ «جازماً» وبكلِّ ثقةٍ وأمانة و«مئة بالمئة» أن هؤلاءِ الذين يُخطئون بحقِّ المرضى ولا يقومون بالدَّور المنتظرِ منهم؛ همُ الوباءُ الحقيقي، بلْ هم أخطر بكثيرٍ من المرض نفسهِ.. ويشكِّلون عبئاً جسيماً، فهم يُعاونون المرضَ على الفَتكِ بالمريض..

والسؤالُ المهمُّ؛ أين كان أطباءُ الجهاز الهضمي منذُ ذلكَ التاريخِ، ولم يُناقشوا هذا الأمرَ مع أطباءِ الباطنيَّة؟! كما أنَّهم لم يشكِّلوا لجنةً إلا في الأسابيعِ الأخيرة التي سبقتْ وفاته.... كما أنَّها استبعدتْ من عضويتها الدكتور عبد العظيم والدكتور جلال، على الرّغْمِ من أنهما كانا أبرزَ المُتَابعين لحالِ منير..

ولا ندري حقيقةً كيف اجتمعتْ هذه اللجنةُ التي علِمنا أنها اجتمعتْ على «الواقف».

فقدْ قالَ أحدُ الأطباءِ إنَّ الاجتماعَ كانَ «على الواقف». . ولا ندري إنْ كان هذا الوصفُ على سبيل المجازِ أمِ الحقيقة؟! أو ربما على سبيلِ «المزاح»؟!

هلْ كان يقصدُ أنه تمَّ سلقُ الاجتماع «سلقاً»، أم أنه كان اجتماعاً شكليّاً عابراً، ليقالَ إنهم اجتمَعوا «سدّاً للذرائعِ»؟! أو بالأحْرى سدّاً للأفواه! أو تمَّ في سياق لقاءٍ عادي، خاصَّة أنَّ الدكتور حمد قالَ سابقاً: «عندما يجدُ الشبابُ وقتاً فَسوف يجتمعونَ بكلِّ تأكيدٍ».

وكأنَّ حالَ منير ليسَت بهذه الأهميَّةِ البالغةِ ولا الخطورة الشَّديدة، وَمَا دامَ هو في مُسْتَشفَى حكوميٍّ فعليه أن ينتظرَ فراغَ «الشباب» من أعمالهم الخاصَّةِ، لأن وظيفتَهم لا تلزمُهم بشيءٍ مثل هذا، فحياتُه التي انتهتْ سريعاً كما هو مقدَّر لها في اللوحِ

المحفوظ؛ ليسَت جديرةً بلقاءٍ سريع، يناسبُ المستوى الذي يليقُ بهم!!!.. فلا شيء يستوجبُ اللقاء فوراً.. بل على «الراحة» و«المزاج الرائق»، والظُّروف المناسِبة لكلِّ واحدٍ منهم.. فهم عندما يجدونَ وقتاً غيرَ مخصوصٍ لهذهِ الحالِ على الرّغْمِ من خطورتِها لكي يجتمعُوا فيه.. فسوف يَجتمعون؟!

طبعاً باستثناءِ طَبِيب واحدٍ مع أنه كانَ مستعدّاً ومُتَأهِّباً في كلِّ لحظةٍ، وهو الدكتور عبد العظيم.. فهو الطَّبيبُ الذي وضعَ نفسَه في خدمةِ منير في الصباحِ وفي المساءِ، وفي الليلِ وعند الفجرِ، وفي كلِّ الأوقاتِ.. حتى في الوقتِ المخصصِ لعائلتِه في العطلِ والسفرِ والأعيادِ. فكان هو الطَّبيبُ «الطَّبيب» الذي يليقُ به الثوبُ الأبيض بكلِّ استحقاقٍ وجدارةٍ، مع قُبلةٍ على الرأس.

وكم كنتُ أتمنى أن أكونَ مثل هذا الطَّبيبِ

الإنسان، وأن أعودَ إلى قريَتي لأدرسَ من جديدٍ، أجدُّ وأتعب من أجلِ حياةِ الآخرين. . بابتسامةٍ صادقة كابتسامتِه التي تشبهُ ابتسامةَ جدَّتي ذات القلبِ الكبير، التي كانتْ تداوي الناسَ بزيتِها اللَّماع، وبقلبِها المفعمِ بالإحساسِ الصَّادقِ والمشاعر المرهفةِ، استبعَدوه كما استبعَدوا معه الدكتور جلال، وربما أشياء أخْرى لا ندري عنها كانتْ لها قيمَة.

ومن يومِها لم يعُدِ الدكتور جلال يأتي إلى غرفةِ منير، ولم يعدْ يسأل عنه، فيما أَبدى الدكتور عبد العظيم امتعاضه الشَّديد وانزِعاجه البالغ وتحفُّظه الواضِح، لكنَّه وبرجاء من الأمِّ والأب عاودَ المجيء، وصارَ يأتي تطوُّعاً من تلقاءِ نفسِه، حرصاً منه على حياةِ منير أوَّلاً، غير عابئٍ بما كانوا يقولون له، فكأنَّهم يَرون في حرصه وتَفانيه، ما يقللُ من مستوى «الاستعلاء» الذي أَرادوه للطَّبيب على المريضِ.

فهلِ المريضُ وهو في وضعِه يفكُّر أو يتقبل مجرَّد التفكيرِ بأنَّ هناك من يَستعلي عليه؟!

وهل يمكنُ للإنسانِ الواعي الطَّبيعي أن يدوسَ على مشاعرِ مريضٍ ويستخفَّ به وبمرضِه؟!

وكأنَّ مَن يفعلُ ذلكَ بمنأىً عن المرضِ والدَّاء، والموت الحتْمي الأكيد!

وكانتْ توصياتُ الاجتماعِ غريبةً للغاية، وكلُّ ما توصلَ إليه هذا الاجتماع السَّريع و«على الواقف» قرار بسيط؛ فعندَما وجدَ «الشباب» وقتاً قرَّروا وبالإجماعِ: أخذ عينة من النُّخاعِ العظمي للبحثِ عن شيءٍ مفقودٍ، لا أدْري ما هو تماماً!

ويا ليتَه ما كانَ الاجتماع ولم تكنِ العينةُ؛ فقدْ أخذوها من منير وهو في وعيهِ الكاملِ، على الرّغْمِ من حالهِ شديدة الصُّعوبة، والتي «تَصعبُ على الكافر» كما يقولون..

ولا أدْري ما هو السببُ الذي دعاهم لعدمِ تخديرِه ولو موضعياً!!

اعتقدتُ أن هنالكَ أسباباً طبيَّة معينةً، دونَ أن أدْري إن كانَ هذا صحيحاً أم خطأْ!

صراخُه المريرُ كان يهزُّ القلوبَ الطيبةَ الرحيمة.. رأيتُ دموعَ الممرِّضاتِ والممرِّضين وهم يبكونَ بكلِّ ألم، حتى إن إحدَى الممرِّضاتِ لم تقوَ على التَّحمل، فخرجتْ من الغرفةِ التي كانتْ مسرحاً لأخذِ العينة، وهي تجهشُ بالبكاءِ بقلبِ أم نازفٍ..

سجلتْ نفسها في لائحةِ الشرف، في قائمةِ الأسماءِ التي يليقُ الثوب الأبيض بأصحابِها..

والغريبُ العجيبُ أنهم لم يخضعوهُ للتخديرِ الشاملِ، ولا حتى الموضعي كما ظهرَ لي.. فقدْ كانوا «ينخرون» عظم حوضِه كما «ينخر» نقار الخشَب جذْع شجرة..

قضيتُ فترةً طويلةً بعدها أتخيلُ هذا المشهدَ الرهيبَ وأعيدُ تفاصيله.

كنتُ أتألَّم مِن مجردِ التفكيرِ بما حدثَ من شدةِ الهولِ الذي كان يؤكِّدُه صياح هذا الغلامِ، العظيم في صبره وفي تحمُّله، وفي موتِه بعدَ ذلكَ..

وعلى الرّغْمِ من كلٍّ ما عاناهُ بسببِ هذهِ العينةِ؛ فإنَّ العمليَّة برمَّتها كانتْ «مِن دونِ فائدة» و«غير ضروريَّة»، بحسبِ قولِ بعضهم، قبلَ القرارِ وبعده، وقبلَ العمليَّةِ وبعدها.. ومن ذلكَ قولُ الدكتور جلال قبلَ عمليَّة «نخر» العظمِ: «ليس لها فائدة»..

وطلبتِ اللجنةُ في اجتماعِها «الواقفي» نفسِه أو بعده ـ لا أدْري تحديداً ـ إجراءَ بعضِ الفحوصاتِ الخاصَّة بالمعادن، وجاءَ الطَّبيبُ المشرف اليومي وهو الدكتور خليل ليقولَ: «اللجنةُ طلبت إجراءَ هذه الفحوصات».

لكني لم أكنْ مُقتنعاً مثل أمه وأبيه بهذه

الفحوصاتِ الغريبة التي لم يفكر بها أحدٌ إلا عندَ اجتماعِ اللجنة، مع أنني لم أصدقْ أساساً بأن اللجنةَ اجتمعَت فعلياً وتباحثَت، لكنَّهما ظلَّا صامتَين على أملٍ. . لأنَّ حياةَ ابنهما ما تزال معلقةً بين أيديهم. .

والمدهشُ أن الدكتور خليل نفسَه لم يكنْ مُقتنعاً بفحصِ المعادنِ كما قال فيما بعد، لكنَّه لم يصرحْ في حينهِ بل لمحَ بأن الفحصَ لن يأتيَ بجديد. .

وهذا سرُّ «الطَّبيب المدهش» الذي يفعلُ ما لا يرى فائدةَ فيه.

وكانَ التالي أدْهَى وأمرَّ!

فبعدَ يوميْن بالتَّحْديدِ سألتِ الأم الدكتور خليل: «ماذا ستفعلُ اللجنةُ يا دكتور؟».

أجاب الأم المحتارةَ وفي عينيه شكٌّ يؤكِّد عدمَ اقتناعِه بما يقولُ: «اللجنةُ تنتظرُ نتيجة فحوصاتِ المعادن».

قالتْ: «أنت قلتَ سابقاً إن فحوصاتِ المعادنِ ليس لها فائدة، وأنها لن تأتيَ بجديدٍ، والآن كلُّ شيءٍ مُتَوقِّفٌ بانتظارِ النتيجة؟».

فقالَ لها الدكتور خليل هامساً بصوتٍ منخفضٍ خائف من أن يسمعَه أحدٌ: «يا ابنتي! انسي هذا الكلامَ الذي قلتُه.. انسي»..

وهو يقصدُ قولَه: «إن نتيجةَ فحوصاتِ المعادن لن تقدمَ ولن تؤخرَ»..

يريدها بكلِّ صفاء سريرةٍ وطهارة نفسٍ أن تنسَى كلامَه وتحليلاتِه.. ولعلَّه «نسي» أيضاً أن اللهَ يسمعُ ويرى، ويسجلَ كلَّ كلمةٍ، وكلَّ موقف، وكلَّ نقطةِ دم سالتْ من جسدِ منير مِن دونِ وجهِ حقٍّ.. وكلَّ وجعٍ توجَّعَه بسببِهم مِن دونِ فائدة.. ولمجردِ تجارب واهمةٍ، ونتيجة اجتماعٍ «على الواقف»..

14

الدُّكتورُ المُشَخِّصُ عَنْ بُعْدٍ

ـ الدكتور صابر يكتبُ في تويتر أنَّ التَّشْخيصَ يتطلَّبُ معاينةً سريريَّةً؛ وفي المقابل يشخِّصُ حالةَ منير عن بعدٍ ومِن دونِ أن يعرفَ شكلَه.

ـ كان الممرِّضون والممرِّضات يَضِيقون ذرعاً من تكبُّر بعضِ الأطباء، لكنَّ الأبَ والأم لم يكونا مشغولَين بتحليلِ شخصيَّةِ كلِّ طَبِيب بقدرِ انشغالِهما بوضعِ حدٍّ لهذه المأساةِ التي يعيشانها مع ولدهما النبيلِ منير.

ـ يكتبُ على صفحات التَّواصُل الاجْتماعيِّ إن: «من أسرارِ الجمالِ كثرة الابتسامِ». . لكنَّه عندما دخلَ غرفةَ منير كانَ شديدَ الغضبِ والتجهُّم.

❊ ❊ ❊

قبلَ وفاةِ منير بنحو أسبوعين أو ثلاثة ظهرَ الدكتور صابر، ولم نكن قد رأيناهُ قبلَ ذلكَ، على الرّغْمِ من أننا كنَّا نسمعُ باسمه كلَّ يوم تقريباً، وعندما تسألُ أم منير عنه يقولون لها: «إنه يُتابعُ عن بعدٍ».

ويعدُّ الدكتور صابر من كبارِ الأطباءِ في مركزِ الجهاز الهضمي، لكنَّه كما يبدو مشغولٌ على الدَّوام، وليس لديه وقتُ «فراغ» كبير يتيحُ له زيارةَ المرضى في غرفِهم، علماً أن ذلك من المفترضِ مما يقومُ به الأطباءُ المعنيّون الأطباءُ ومن ذوي الأهميَّةِ الكبرى في المركزِ. ومع أن المريضَ الدائمَ الوحيدَ في المركزِ طوالَ شهورٍ عديدة كان منير فقط، ونادراً ما كنَّا نجدُ مرضى غيره في الجناحِ حيثُ كانتْ غرفته، لم نتشرفْ برؤية الدكتور صابر على الإطلاقِ.

وعلى الرّغْمِ من أن منيراً كان المريض الوحيد تقريباً الموجود بصفةٍ دائمةٍ في غرفةٍ مفردةٍ في جناحِ

الرجال بالمركز، فيما تبقى معظمُ الغرف الأخرى ـ مفردة وثنائيَّة ـ خاليةً من المرضى أغلبَ أيام الأسبوع، وأحياناً لأيامٍ عدَّة يكونُ منير المريضَ الوحيد في الجناحِ؛ فإنه لم يسبقْ له الحظَّ أن حَظِيَ بشرفِ استقبالِ الدكتور صابر قبلَ اليوم منذُ شهورٍ خلَتْ، علماً أنه لم يحضرْ من تلقاءِ نفسه، بل بعدَ حديثٍ مسهبٍ مع الدكتور خليل.

وكان الممرِّضون والممرِّضات يضيقون ذرعاً من تكبُّرِ بعض الأطباءِ، لكنَّ الأب والأمَّ لم يكونا مشغولينِ بتحليلِ شخصيَّةِ كلِّ طَبِيبٍ بقدرِ انشغالِهما بوضعِ حد لهذه المأساةِ التي يعيشانِها مع ولدِهما النبيل منير..

وفي يوم ناقشَ الأب موضوعَ الدكتور صابر مع الدكتور خليل، وتساءلَ عن طريقةِ تدخُّله في التَّشْخيصات، وحدَّثه عن الأخطاءِ المُتَكررة، والأدويةِ

غير الصحيحةِ، مشيراً إلى مشاركتِه في الاجتماعِ الخاصِّ بمنير، ومع ذلكَ لا يقومُ بزيارتهِ وفحصهِ مرَّة واحدة. . علماً أن الدكتور صابر يكتبُ دائماً على صفحتِه في موقعِ التَّواصُل الاجْتماعيِّ تويتر أن رؤيةَ المريضِ من الضروراتِ الأساسيَّةِ التي يتطلَّبها التَّشْخيص، وذلكَ للاطلاعِ على حالِه وتطوراتِ مرضِه عن قربٍ.

وامتدَّ الحوارُ حولَ التَّشْخيصات الخاطئةِ التي أصبحتْ عادةً مُتَكرِّرة بِشكلٍ لافتٍ. .

وكانَ الأبُ والأم يقولان إن ذلكَ ناتجٌ عن عدمِ الاطلاعِ المباشرِ على المريضِ. .

فمنذُ متى يُعاينُ الطَّبيبُ ويحلِّل ويستنتجُ ويقرِّر مِن دونِ رؤيةِ المريضِ، ولا حتى مرةً واحدة في غضونِ أشهر عديدةٍ؟!

والدكتور صابر لديه عيادةٌ خاصَّةٌ بعيداً عن

المُسْتَشفَى الحكومي، يستقبلُ مرضاهُ الخصوصيين بابتساماتٍ عريضات، ومن كلماتِه المأثورة:

«عندَ الضرورةِ لا بدَّ من مراجعةِ الطَّبيبِ للمعاينةِ المباشرةِ». .

وهو يقصدُ طبعاً المعاينةَ في تِلكَ العيادةِ الخاصَّة، بينما كان يضنُّ على منير بنظرةٍ شفقةٍ، لأنه نزيلٌ في مُسْتَشفَى حكومي. .

وفيما هو يقولُ على صفحات التَّواصُل الاجْتماعيِّ إن: «من أسرارِ الجمالِ كثرة الابتسامِ». . فإنه مع ذلكَ عندما دخلَ غرفةَ منير كانَ شديدَ الغضب والتجَهم، دخلَ الغرفةَ مقطبَ الجبين، عاقدَ الحاجبَين، واضعاً يدَيه خلفَ ظهره، يمشي واثقَ الخُطى عاليَ الرأس، يلامسُ بأنفه سقفَ الغرفة. . يبحثُ عمَّن تجرَّأ وتحدَّث عنه وعن طريقةِ تعاملِه مع المريضِ.

وكأنَّه ليسَ من حقِّ المريضِ الفقيرِ المقيمِ في

المُسْتَشفَى الحكومي، ولا مِن حقِّ أهلِه، ولا معارفِه، ولا أحبَّائه، ولا الدُّنيا بأجْمعها.. أن يتكلَّموا ويستفسروا.. ولا حتى أنْ يروا بأمِّ العين الطَّبيب الذي يشخِّص المرضَ.. يكفي أن يروهُ عبر تويتر، أو أن يسمعوا باسمِه، فهذا وحده كافٍ تماماً بحقِّ المريض المسكينِ، وربما هذا سرٌّ من أسرارِ الحياة الإنسانيَّة في المستشفياتِ الحكوميَّة!

والمثيرُ للشفقةِ حتى الثمالة أن مَن نلتقي بهم من الممرِّضاتِ والممرِّضين ومن مختلفِ الجنسيَّات كانوا يَشْكون من عبوسِه الدائمِ في وجوهِهم وارتفاعِ صوته عليهم، بينما هو يقولُ في المقابلِ على صفحتِه في تويتر: «الصوتُ الهادئُ أقوى من الصراخِ.. والتهذيبُ يهزمُ الوقاحةَ.. والتواضعُ يحطمُ الغرورَ».

الكلامُ صادقٌ.. أما الأفعالُ فلا تنطبقُ.. والذي لا يعجبُه فإن بابَ المُسْتَشفَى مفتوحٌ على مصراعَيه!

ومن كلامِه المأثورِ أيضاً وأيضاً: «الأخلاقُ هي التخصُّصُ الوحيدُ الذي لا يُدرسُ في الجامعاتِ!».

وهذا صحيحٌ «مئة بالمئة»..

ومن أغربِ ما سمعناهُ قولُ الدكتور صابر نفسِه: «من الصعبِ عليَّ أن أنصحَ المريضَ مِن دونِ معاينةٍ»..

لكنَّه مع ذلكَ ـ وبكلِّ أسفٍ ـ صرحَ بلسانِ نفسِه، واعتقدْنا لوهلةٍ أننا مخطئون، فلعلَّه شخصٌ آخرُ يحملُ نفسَ الاسم، ولدَيه الجسمُ.. لكنَّه ليسَ هو، لأن الكلماتِ كانتْ مغايرةً تماماً لقائلِها، فهو قالَ في مكانٍ آخرَ وبكلِّ «جرأة»، فيما استحَى البعضُ من زملائِه من أن يصرِّحوا قولاً وعلناً مِن دونِ أن يكتُموا تصريحاتِهم فعلاً؛ فقد كان يقرِّرُ ويشخصُ حالَ منير دون معاينةٍ، لأنه عندما يقولُ ذلكَ على (تويتر) يقصدُ المعاينةَ في عيادته الخاصَّة دونَ العامة، وفي المُسْتَشفَى الاستثماري وليس في المُسْتَشفَى الحكومي..

لأن الخاصَّ فيه عصرٌ لجيوبِ المرضى، لكن لا بدَّ من بذلِ أقصى الجهد ولو بالتَّمثيل، أما العمومي ففيه عصرٌ لجيوبِ الحكومة، والأخيرة مضمونةٌ، وستدفعُ في كلِّ الأحوالِ، فلماذا التعبُ ووجعُ الرأس؟ والأفضلُ توفيرُ الجهدِ للرزقِ الآخرِ غير المضمونِ إلا بالمعاينةِ المباشرةِ.. وهكذا ينمو الدخلُ ويزدادُ «الرزق» وتتضاعفُ الثروةُ.. بغضِّ النَّظرِ عن المريضِ والعلاجِ والإنسانيَّةِ جمعاء. وقد يكونُ الشعارُ كما في الأمثالِ الشعبيَّة: «الدينُ ممنوعٌ، والعتبُ مرفوعٌ، والرزقُ على الله»..

أما فيما يتعلَّقُ بـ«الحكومي» فقد قالَ الدكتور صابر بكلِّ «أدب»: «نحنُ مُسْتَشفى حكومي»..

وفي هذا تصريحٌ جريءٌ يبلغُ حداً بعيداً، لأنه يقولُ بذلكَ شكلاً ومضموناً وفعلاً: إن شعارَ «الإنسانيَّة» لا بدَّ وأنْ يسقطَ عندَ مدخلِ المُسْتَشفى الرسمي العام!!!

وهذا الكلامُ لا يقتصرُ على مكانٍ محددٍ، بل يمكنُ أن يتمددَ هذا التصريحُ «الكارثي» لتعمَّ نظريتُه كثيراً من المستشفياتِ القريبةِ والبعيدةِ حولَ العالمِ، إلا مَن رحِم ربي من الأطباءِ العموميين.

وطالما الأمرُ كذلكَ؛ لماذا لم تقلْ هذا الكلامَ منذُ البِدايةِ للأسرةِ المنكوبةِ بكلِّ أبيض لا يليقُ بكم؟؟؟

لو أخبرتَهمُ الحقيقةَ في اللَّحظةِ الأولى، قبل التجريبِ والتدريبِ والترهيب والسعي لحمايةِ «التِّيْم» «team» دون حمايةِ المريض، كنتَ وفرتَ عليهم المعاناةَ والتعبَ، أو بالأحرى «الموت»، وربما كنتَ أفلحتَ في عصْر جيوبهم مقابل عصرِ فكركَ، ولم يكونوا ليعترضوا، لأن الضمائرَ الإنسانيَّةَ عندَ بعض من يرتدي الثوبَ الأبيض في سُبات عميقٍ، لا تصحو أبدانُها ولا «تصفو» أجواؤها إلا عندَ ارتفاعِ الحساباتِ

وسماعِ رنين الدراهمِ وصريرِ القلم على دفترِ الشيكات.

إن تصرُّفاتِ الإنسانِ يجبُ أن تكونَ واحدة، لأن الأخلاقَ لا تخضعُ للبورصة، ولا تتذبذبُ مع تغيُّر المكانِ أو الزمان أو أحوالِ الطقس، سواء أكانَ الإنسانُ (الإنسان) في عملٍ حكومي يتقاضى عليه راتباً مقطوعاً مِن دونِ أن يحاسبَه أحدٌ، أم كانَ في عملٍ خاص يحرصُ على إرضاءِ الزبائن..

والمؤكَّدُ تماماً: أن من يفرقُ في عمله بين مَن يتعاملُ معهم قياساً على ما يحققُه من مردودٍ مادي، فإنه يخفقُ في كسبِ رضا الخالقِ ويفلحُ في كسبِ سخطِ المخلوقين، وإن كانَ حرصُه على إرضاءِ زبائنه أثمرَ في عصر ما تُخفي الجيوبُ، فإنه نجحَ في المقابلِ في كشفِ ما يسترُه من عيوبٍ.

وعندَما جاءَ الدكتور صابر بعدَ اعتراضِ الأم

والأبِ على عدمِ حضورِه طوالَ هذه الفترةِ أمام الدكتور خليل، وبدلاً من قيامِه بالدورِ الذي يجبُ أن يضطلعَ به الطَّبيبُ مع المريضِ، قالَ للأم والأبِ كلاماً خطيراً:

«إن مكانَ منير ليسَ في مركزِ الجهازِ الهضمي بل في جناحِ الباطنيَّة».

من المُؤكَّدِ «مئة في المئة» أنه من الخطأِ باعتقادِه أن يكونَ منير هنا في المركزِ. ثم قالَ موجِّهاً كلامَه إلى الأبِ: «إذا كنتَ تريدُ نشرَ هذا الكلامِ.. فانشرْه»..

في إشارةٍ منه إلى أن إذاعةَ ذلكَ على الملأ أمرٌ لا يهمُّه على الإطلاقِ، وليسَ عندَه أي تحفُّظٍ من نشرِ هذا الكلامِ الخطيرِ، في الصحافةِ وفي الإذاعةِ.. أو في رواية..

لكنَّ السؤالَ الذي يطرحُ نفسَه هنا هو: **لماذا هذا الكلامُ خطيرٌ؟؟؟!!**

أما الجوابُ فيكمنُ في السؤالين التاليين:

أولاً: لماذا إذاً تمَّ نقلُ منير من الباطنيَّة، بعدَ نحو ثلاثة شهورٍ من إقامةٍ مستمرةٍ فيها، إلى مركزِ الجهاز الهضمي وهو لا يَحْتاجُ إلى ذلكَ النقلِ؟؟؟

ثانياً: إذا كان مكانُه المناسبُ هناك ـ وفي وهذا خللٌ كبير ـ كيف يضعون مريضاً في مكانٍ غير مناسبٍ لمرضه طوالَ هذه المدةِ؟؟؟!!!

ولهذا أعتقدُ أنَّ الدكتور حمد وفريقه بعدما ظنُّوا أن مرضه كرونز؛ أرادوا قطفَ «ثمرة الانتصار» على المرض، كما توهَّموا، وعندَما اكتشفَ الدكتور حمد خطأَه التَّشْخيصي، بعدَ إعطائه كميَّةً كبيرة من الكورتيزون لا تتناسبُ مع وضعِه الصحي؛ طلبَ إعادةَ منير مرة أخرى إلى الباطنيَّة، خاصَّة أنه قالَ أمامَ مدير المُسْتَشفَى خلالَ تِلكَ الفترة: «إن خطَئي الوحيدَ هو أنني نقلتُ منيراً من قسم الباطنيَّة».

وهذا يعني أمراً مهمّاً جدّاً وخطيراً، تدلُّ عليه الوقائعُ وهو: أن الدكتور حمد بعدَ أن تبيَّنَ خطأَ تشخيصه، وتردِّي حالةِ منير من الإبرِ التي أمَرَ بها، وطلبَ إعادةَ منير إلى قسم الباطنيَّةِ، رفضَ أطباءُ الباطنيَّة ذلكَ، ولم يقبَلوا إعادتَه إلى هناكَ تحتَ أيِّ اعتبارٍ، على الرّغْمِ من رأيِ الدكتور صابر ومَن معه من الأطباءِ بأن مكانَه الأنسبَ هو قسمُ الباطنيَّة.

وهذه المواقفُ ـ من هنا أو من هناك ـ تبيِّن بكلِّ وضوحٍ لا يرقى إلى أدنى شكٍّ؛ أن أطباءَ الجانبين ـ ذوي العلاقةِ طبعاً ـ كانوا يُريدون التخلُّص من منير، وكأنه أصبحَ بالنِّسبة لهم همّاً كبيراً، وكانَ أطباء الباطنيَّة سعداء بالتخلُّص منه فكيفَ يُعيدونه مجدَّداً إليهم؟! حتى وإن كانتْ حالتُه تستوجبُ ذلكَ؟!

وفي ذلكَ قمةٌ في كلمةٍ لا أستطيع قولها..

وهكذا قرَّر الدكتور حمد أن يدعَ منيراً لمصيرهِ

المحتومِ، بحيثُ لم يدخلْ غرفته مرةً واحدة، كما فعلَ أطباء الباطنيَّة الأمرَ نفسَه، فلم يأتوا لكَي يطمئنّوا عليه بعدَما انتقلَ إلى مركزِ الجهاز الهضمي، وحتى الطَّبيب الذي تابَعَه نحو ثلاثة أشهر لم يتكرَّم بالسؤالِ عنه ولا مرة واحدة ولو عن طريقِ الهاتفِ، وهو الدكتور ساجد الطَّبيبُ نفسُه الذي قالَ لأبي منير سابقاً: «نحنُ لا نتعاطفُ مع المريضِ»..

وهو نفسُه أيضاً الذي قالَ عندَ باب غرفةِ منير للأطباءِ بصوتٍ منخفضٍ معتقداً أننا لم نكنْ نسمعُه: «يا جماعة.. شغِّلوا رؤوسَكم، فلو حدثتْ له أي مُشكِلةٍ فسوفَ تحلُّ علينا كلنا داهيةٌ»..

وهو يعني بذلكَ أنه يخشى على «داهيته» ولا يهمُّه ما يحصلُ ما «دواءٍ» للمريضِ.

ومن جانبهِ كانَ الدكتور خليل يردِّد دائماً:

«إن منيراً بحاجةٍ لتغذيةٍ وريديَّةٍ، لكن الأمرَ يتطلَّبُ مناقشةً مع الفريقِ».

وفي كلِّ مرة يقولُ:

«إن الفريقَ يخافُ من تكرارِ حالهِ السابقةِ التي أدَّت إلى ارتفاعِ الحموضةِ»..

علماً أن ارتفاعَ الحموضةِ كان سببه عَدم تعاونِ أطباءِ التغذيةِ الوريديَّةِ مع أطباءِ الكلى، وهذا بتصريحٍ سابقٍ من الدكتور جاسر طَبِيبِ الكلى.

وفي يومٍ انخفضتْ درجةُ حرارة منير كما انخفضَ ضغطُه، فأصابَهم قلقٌ..

وهذا القلقُ لم يكن على مصير المريض، بل كان القلقُ «على أنفسهم» لخطورة الوضع ـ وهذا ما تبيَّناهُ بوضوح عندَ وفاته ـ فقرَّروا فجأةً مدَّه بالتغذية الوريديَّة بعدما فقد كلَّ قدراته الظاهرة والباطنة.

وهنا عاد الدكتور صابر في زيارة كانتِ الثانية له

والأخيرة، ليس بهدف الاطمئنان على حال منير وإنقاذه مما هو فيه، بل كان هدف الزيارة الضغط على الوالدين للموافقة على نقله إلى العناية المركَّزة بهدف حماية فريقه كما قالَ حرفياً هو بنفسه: «أريد حمايةَ الـ Team». . دون أي اعتبار لحماية منير والحفاظ على حياته.

ولستُ أفهم؛ هل حمايةُ «التيم» في المستشفيات أضحت أهم من حماية المريض؟؟؟!!!. .

وكما قلتُ سابقاً فإن هذا الكلام القديم الجديد شيءٌ عجيبٌ غريب. . وفوق ذلكَ فريد. . علماً أن منيراً كان وقتها في كامل وعيه، وأصرُّوا على نقله، واتهموا أمه وأباه بأنهما «يرفضان نقله إلى المكان الذي يجبُ أن يكون فيه»، حسبما كانوا يشيعون، وكأنه أصبح ثقيلاً على قلوبهم ويجبُ التخلصُ منه بأي طريقة كانت.

ويا حسرة عليهم، فقد جاءَت المفاجأةُ التي هزمتهُم وهزأت بهم جميعاً، لأن الدكتور صابر لم يكن ليتخذ هذا القرار المفاجئ مِن دونِ موافقة كبير الأطباء وتحديداً الدكتور حمد..

كانتِ المفاجأةُ غير السارة لهم أن طَبِيب العناية المركَّزة الذي أتوا به لكي يساندهم في مسعاهم ويدعم مبتغاهم، كان لسوء حظهم من الأطباء النخبة الذين يليقُ بهم الثوبُ الأبيضُ..

فبعدَ أن أجرى الطَّبيبُ «المنقذ» فحصاً شاملاً لمنير؛ رفضَ كلَّ مزاعمهم، وقالَ بكلِّ ثقةٍ وإيمان واحترام واقتناع:

«إن حالَ منير لا تستوجبُ نقله إلى العنايةِ المركَّزة»..

عندَها سقطَت كلُّ أقنعتِهم ومزاعمهم، وتعرَّت محاولتُهم الهادفةُ للتخلُّص منه، بحججٍ واهيةٍ لأنهم

يريدون «حمايةَ الفريق»، بغضِّ النَّظرِ عن مصلحةِ المريضِ الذي يستحقُّ عنايةً حقيقيَّةً كاملة وليسَ عناية مركَّزة لا تناسبُ حالَه، غير أنَّ هذه العنايةَ للأسفِ لا تتوفَّرُ لأمثالِه بسهولةٍ، إلا مَن رَحمَ ربي..

وهنا تذكَّرتُ الموقفَ نفسَه مع الدكتور دحدوح ـ مديرِ المنطقة الصحيَّة والمسؤولِ الأعلى على المُسْتَشفَى ـ عندَما تدخَّلَ شخصياً من أجلِ نقلِ منير إلى العنايةِ المركَّزة، لكن الطَّبيبَ المسؤولَ في العنايةِ المركَّزةِ رفضَ ذلكَ، لأن الرداءَ الأبيضَ يليقُ به أيضاً..

وفي المقابلِ أصرَّ الدكتور دحدوح على تكذيبِ والد منير، زاعماً أنه رفضَ نقلَ ابنِه إلى العناية المركَّزة مؤكداً أنه بحاجةٍ لذلكَ..

وكرَّر موقفهُ على الرّغْمِ من أن والدَ منير سبقَ وفعلَ، لكنَّ منيراً هذه المرة في حالٍ صحيَّة جيدة،

لا تستوجبُ نقله إلى مكانٍ يسببُ له جرحاً غائراً في نفسِه، وبشهادةِ الطَّبيب المسؤولِ الذي أرسلَه الدكتور دحدوح.. لكنَّها تستوجبُ عنايةً حقيقيةً يتطلَّبُها المرضُ نفسُه، لا أن يلقَى وحدَه في العنايةِ المركَّزةِ ليتخلَّص «الفريقُ» منه، لكي يفعلوا به ما يريدون بعيداً عن اطلاعِ الوالدين على ما يجري لولدهما..

وكانَ منير في هذا الوقتِ يبكي مُتَحسِّراً على نفسِه، فقالَتِ الأم للدكتور صابر برجاءٍ واستعطافٍ، وكأنه لا يعلمُ هذه الجملةَ التي تقولُها أم خائفةٌ على ولدها: «إنه طفلٌ وعلينا مراعاة نفسيتِه».

فقالَ الدكتور صابر على مسمعٍ من منير باستهزاءٍ ظاهر للعيان:

«أم منيـــــــــــــر!!!»..

ومطَّ كلمةَ منير مطّاً طويـــــــــــلاً.

ثم قالَ مُتَابعاً كلامَه:

«أنا قبلَ يومين كنتُ حزيناً ولم يحدثْ لي شيء».

وهنا قالَ منير لأبيه وهو مستمرٌّ في البكاءِ والدموعُ تتساقطُ من عينيه:

«يا أبي.. سفِّرني.. أريدُ أن أسافرَ بعيداً عن هذه المُسْتَشفَى»..

فلم ينتظرِ الدكتور صابر ردَّ أبي منير، فاستبقَهُ إلى القولِ بأسلوبٍ ساخر أكثر من السابق:

«كـيـف يـسـفـرُك وأنـتَ عـلـى هـذه الـحـالِ يا منيـــــــــــــــــر!!!»..

ومطَّ الكلامَ من جديد، مِن دونِ مراعاةٍ لمشاعر هذا الغلامِ الصالح النبيل، ومِن دونِ احترامٍ لجرحه النازف الغائرِ، ولاقترابِ ساعته التي كانوا ينتظرونها بفارغِ الصبر، كما كان يبدو جلياً!

وفي اليومِ نفسِه طرحتِ الأم موضوعَ الفيتامين (دي) على الدكتور خليل والدكتور صابر معاً، لأنَّه

وقبلَ يومين أخبرَها الدكتور خليل أن الفيتامين (دي) منخفضٌ عندَ منير، ومن الضروري أن يأخذَ حقنةً من هذا الفيتامين، فسألَ الدكتور صابر الدكتور خليل عن نسبةِ الفيتامين (دي) لدى منير، فأجابَه بأنها «سبع ونصف». .

فقالَ الدكتور صابر:

«أنا معي (9) وأقفُ أمامكم». .

عندَها تدخَّلت طَبِيبةٌ حضرتْ مراتٍ قليلة من بابِ الفضولِ ـ ربما ـ ثم ما لبثتْ أنِ اختفتْ فجأةً كما ظهرتْ فجأةً. . وقالَت:

«معظمُ السكانِ هنا لدَيهم نقصٌ في فيتامين (دي)». .

وهي تقصدُ أن الأمرَ ليسَ بذي أهميَّةٍ تذكرُ.

وبعدَ نحو ساعة أو ساعتين، حضرَ الدكتور عبدُ العظيم فأخبرتهُ الأم بما حدثَ، فقالَ لها:

«إن هذا الكلامَ لا ينطبقُ على حال منير، لأن نقصَ الفيتامين (دي) عندَه سيؤدِّي إلى تضررِ سائرِ الجسمِ من خلالِ تضررِ الفيتاميناتِ الأخرى».

وطلبَ على الفور حقنَهُ بإبرةِ الفيتامين (دي)، ولم يغادرْ غرفةَ منير رغمَ تأخُّر الوقتِ حتى يتأكَّدَ بنفسِه أنه أخذَها مِن دونِ أن تحدثَ له مضاعفاتٌ بسببِ الحالِ الحرجةِ التي يمرُّ بها، والتي تتطلَّبُ عنايةً خاصَّة، لم يكن يحرصُ عليها أشد الحرصِ أحد أكثر مِن الدكتور عبد العظيم.

15

السّنْتْرال لايْن

ـ عَضلُ اليدين والقدَمين والمؤخِّرةِ ذابَ كلياً، وأصبحَ بالإمكان لمسُ عظمِ الحوضِ والكتفينِ، بل يمكنُ رؤيةُ شكلِ العمودِ الفقري من الخلفِ والقفصِ الصدري من الأمامِ!!

ـ أضحى هيكلاً عظمياً كاملاً مع غلالةٍ رقيقةٍ جداً من البشرةِ البيضاءِ المشحونةِ بالكدماتِ من كلِّ جهاتِ الجسمِ!!!

ـ على الرّغْمِ من كلِّ الأخطارِ فإنه لم يكن مسموحاً الاتصالُ بالطَّبيبِ المسؤولِ، وكان الممرِّضون يقولُون دائماً: «إن الاتصالَ به ممنوعٌ وتحتَ أي ظرفٍ كانَ».

ـ العلاجُ من غيرِ تشخيصٍ صحيحٍ تجربةٌ أقربُ إلى الموتِ منها إلى الحياةِ؟!

❋ ❋ ❋

وفي أحدِ الأيامِ انسدَّت إبرةُ السنترال لاين، ولم يتمكَّنِ الممرِّضون في الجناحِ من إيجادِ وريدٍ واضحِ المعالمِ يضعون فيه أنبوبَ التغذيةِ والمحاليلِ نظراً لجفافِ شرايين جسمِه، فطلبوا طَبِيباً من العنايةِ المركَّزة..

وكانَ أطباءُ العنايةِ لا يأتون إلا بعدَ ساعات غالباً؛ لانشغالِهم الشديدِ مع كثرةِ المرضى وقلةِ عددِهم، لكن الطَّبيبَ حضرَ هذه المرةَ سريعاً بسببِ ارتفاعِ البوتاسيوم لخطورتِه على الجسمِ برمتِه، علماً أنه في بعضِ الأحيانِ تكونُ عينةُ الدمِ خاطئة لسحبِها من مكانِ إبرة (البوتاسيوم)، باعتبارِ أن منيراً كان

يحقنُ بالبوتاسيوم عن طريقِ الوريدِ كما كان يتناولُه عن طريقِ الفم مرات عدة يومياً بسببِ انخفاضهِ بالدم.

وكان من الضروري أن يبقى البوتاسيوم عندَ درجةٍ معينةٍ لكي لا تحدثَ أعراضٌ جانبيةٌ كثيرة، وتعتبرُ الآثارُ الجانبيَّة للأدويةِ من أهمِّ أسبابِ فرطِ البوتاسيوم في الدم كما يقولُ الأطباء.. بينما يكونُ من أسبابِ انخفاضِ البوتاسيوم عدم امتصاصِ الجسمِ للطعامِ والغذاء وكذلكَ للأدويةِ التي تؤخذُ عن طريقِ الفم.

وزيادة نسبةِ البوتاسيوم في الدمِ، أخطرُ بكثير، وأشدُّ تأثيراً على جسمِ الإنسانِ من نقصِ البوتاسيوم، خاصَّة أنها تفتقدُ لعوارضَ وإشاراتٍ خاصَّة تساعدُ المريضَ على تداركِ الأمرِ وبدءِ العلاجِ.

وتكمنُ الخطورةُ في تسببِ هذا الارتفاعِ بخللٍ وظيفي في عملِ الأجهزةِ العصبيَّة، كما تسببُ اضطراباً

في دقات القلبِ، ما قد يؤدي إلى نتائجَ خطيرةٍ على رأسِها السكتة القلبيَّة. .

وعلى الرّغْمِ من كلِّ هذه الأخطارِ فإنه لم يسمحْ لأبيه وأمه بالاتصالِ بكبيرِ الأطباءِ عن طريقِ العاملين بالمركزِ، لأنَّ الممرِّضين كانوا يقولُون لهما دائماً إن الاتصالَ به غير مسموح على الإطلاقِ، وتحت أيِّ ظرف كانَ.

وعندَما حضرَ طَبِيبُ العنايةِ، وهذا الطَّبيبُ بطبيعةِ الحالِ لا يعرفُ حالَ منير ولا سجلَّه الطبي، وليسَ عندَه وقتٌ ليطلعَ على ملفِّه ومعرفة حالِه، لكنَّه مِن دونِ أن يكلِّف نفسَه حتى «عناء» الاستفسارِ - إنْ كان للاستفسارِ معاناةٌ - من والدِ منير ووالدتِه أو من الممرِّضين عن ماهيَّة مرضِه، طلبَ منهما على الفورِ مغادرةَ الغرفةِ، ومكثَ معه نحو نصف ساعة، وكان منير يصرخُ خلالَها، وصراخُه يتردَّد في أنحاءِ الجناحِ. .

وبعدَ نحو نصف ساعة خرجَ الطَّبيبُ بعدَ أن رسمَ على جسدِ منير كدماتٍ مُتَفرقةً لا تُحصى، دون أن يتمكَّن من وضعِ إبرةِ السنترال لاين في شريانٍ محددٍ، وقبلَ أن يغادرَ على وجهِ السرعةِ، ودونَ أن يشرحَ للأبَوين المكلومَين ماذا جَرى في الداخل؛ تكلَّمَ الطَّبيبُ كلمتين قصيرتين وسريعتين، وكأنه مقتنعٌ بأن كلامَه من ذهبٍ، وأن خيرَ الكلامِ ما قلَّ ودلَّ، وقالَ بطرفِ لسانه: «الأفضلُ وضعُ إبرة السنترال لاين عن طريقِ قسمِ الأشعة»..

أليسَ في هذا ما يجعلُ الإنسان يبدعُ في أحزانه، وقد رأى ما رآه من جسدٍ مضمخٍ بالكدماتِ الزرقاءِ والسوداءِ، وكأن هذا الغلامَ النبيلَ الصالح المرفهَ خرجَ من حلبةِ مصارعةٍ، ولم يكنْ لقاء عطوفاً مع إنسانٍ يعرفُ ما معنى الألم، بل مع مقاتلٍ محترفٍ، كلُّ همه صبُّ الضرباتِ المتتالياتِ على خصمِه،

وإلحاقُ الهزيمةِ به، وإسقاطُه أرضاً لتحقيقِ الفوزِ بالضربةِ القاضية؟!

توقعتُ أن ينتفضَ الأبُ وأن تنتفضَ الأم.. ظننتُ أنهما بعدَ أن رأيا هذا المشهدَ المروعَ سيطلبان وعلى الفور تشكيلَ لجنة موسعةٍ للتحقيقِ في هذا الحادث المؤسفِ.. وكلُّ ما جرى في السابقِ من أحداثٍ مشتبه بها.. لكنَّ هذا كلَّه لم يحدثْ.. بل تجرعَ الأبُ والأم العلقمَ مثل العادةِ.. من أجلِ هذا الغلامِ الشريف النبيل.

فماذا بإمكانهما أن يفعَلا غير تبادلِ الحديثِ بعيداً عن هؤلاءِ الأطباء.. ووضعِ صورِ هذه الكدماتِ على وسائطِ التَّواصُل الاجْتماعيِّ لكي يُتابعَ الناسُ تفاصيلَ ما كان يحدثُ لـمنير، لكنَّ هذا الأمرَ كانَ يزيدُ من غضبِ الأطباءِ بدلاً من أن يكونَ حافزاً لهم لإنقاذِ هذا الغلامِ من معاناتِه.

ومع كلِّ هذا الذي حدثَ، ما زالَ لدى الأم والأبِ أملٌ بأن يشرقَ يومٌ يأتي فيه من يخبرُهما بأن الأطباءَ أفلحوا في كشفِ ما في ولدهما من ضرٍّ، بعدما عَجزوا عن تشخِيصه، إلا أنهم رفَضوا مع ذلكَ منحَه ما يثبتُ عجزهم عن التَّشْخيص والعلاجِ.

وهل يكونُ العلاجُ من غير تشخيص إلَّا تجربة أقرب إلى المَوت منها إلى الحياةِ؟!

وكأنَّ الإنسانَ بنظرِهم مجردُ لعبةً صغيرة رخِيصة..

وكلَّما طلبَ الوالدان شهادةً أو إفادةً تثبتُ عجزهم عن إنهاءِ معاناة الفتى المسكينِ تأتي الشهادةُ لتقولَ: «أُدخلَ المريضُ إلى المُسْتَشفَى بتاريخ (24 ديسمبر 2014)، ولا يزالُ إلى الآن في المُسْتَشفَى للتشخيصِ والعلاج اللازم»..

وها همُ اليوم أَضافوا إلى ذلكَ ما أَلحقوا به من

كدماتٍ ومشكلاتٍ مُتَتالية. . بحجةٍ واهية قالَها الدكتور صابر من قبلُ: «هذا مُسْتَشفى حكوميٌّ». .

وكأن على المريضِ في المُسْتَشفَى الحكومي أن يقرأَ على نفسه الفاتحَةَ، بل كلَّ سور وآيات الكتبِ السماوية قبل دخولهِ المُسْتَشفَى، لأن من بين الأطباءِ من يفضلُ أن يدخلَ المريضُ المُسْتَشفَى الاستشاري لكي يرفعَ من رصيده البنكيِّ، وهذا الطَّبيبُ هو نفسُه لن يتغيرَ مضموناً وإن تغيَّر شكلاً. . سواء في الحكومي أو في الاستشاري.

الضَّميرُ واحدٌ. . والقلبُ واحدٌ. . والنفسُ الأمارة بالسوء واحدةٌ.

علماً أن الوظيفةَ الحكوميَّة قد تكونُ أفضل بكثيرٍ من الخاص، فضلاً عن أن الحكومةَ علَّمت ودرَّست وكبَّرت وسفرتْ ودربتْ. . لكن الخاص يقطفُ الثمرةَ، ما دامَ راتبُ الحكومة مضموناً وراتبُ الخاصّ

يَحْتاجُ لبعض العرقِ لتحقيقِ مبلغٍ معينٍ من المال وإن كانَ بخساً، بغضِّ النَّظرِ عما إذا كانتِ الخدمةُ التي يؤدِّيها موازية للقيمةِ الحقيقيَّة للسلعة. .

وبالتَّأكيدِ ومِن دونِ أدنى شكٍّ، بل «مئة بالمئة»؛ إن هذا الكلامَ لا ينطبقُ إلا على قلةٍ قليلة، لكنَّه القدرُ المحتومُ.

وبالعودةِ إلى مشهدِ الطَّبيب المسبِّب للكدمات واقتراحِه بأن يتمَّ نقلُ منير إلى قِسمِ الأشعَّةِ، فهل كانَ هذا سوء تدبيرٍ من أطباءِ الجهازِ الهضمي أم جهلاً بموضوعِ الأشعةِ، أو كيف يمكنُ تبريرهُ؟!

ولماذا لم يتمَّ نقلُ منير إلى قِسمِ الأشعَّةِ منذُ البِدايةِ؟؟؟!!!

علماً أن الجميعَ يعرفُ حالَه الصعبة، خاصَّة أن تِلكَ النصف ساعة كانت مجردَ تجربة فاشلةٍ، بل مدمِّرة، لمريضٍ لا يحتملُ التَّجاربَ. .

وبعدَ فترةٍ وجيزةٍ تمَّ نقلُه إلى قِسمِ الأشعَّةِ حيثُ وضعوا له إبرةَ السنترال لاين خلالَ دقائقَ معدودةٍ ومِن دونِ أيِّ ألمٍ يذكرُ، الأمرُ الوحيدُ الذي كان يزعجُه من قِسمِ الأشعةِ هو الانتظارُ لوحده مُدداً مُتَفاوتة، أما هذه المرة فقدِ استغرقَ الانتظارُ نحو نصف ساعة..

فلماذا لم يتمَّ أخذُ هذا الإجراءِ منذُ البِدايةِ دون تعريضِه لكلِّ هذهِ الآلامِ؟!

وأذكرُ هنا أنه في كلِّ مرة كان ينقلُ فيها لإجراءِ أشعةٍ أو فحص ما، كان ينتظرُ أحياناً نحو ساعة، أو ربما أكثر من ذلكَ، على الرّغْمِ من تردِّي صحته، فحالُه كانت تستوجبُ الأولوية وعدم تعريضِه لأي أخطارٍ إضافية ليس لها داعٍ.. ويكفيه ما فيه من آلامٍ وأمراضٍ.

كان منير يخبرُنا بعدَ خروجِه وفي كلِّ مرة أنه كان يتألمُ ويشعرُ ببردٍ شديد لانخفاض الحرارة، وكأنهم

كانوا يزيدون من قوةِ أجهزة التبريدِ لخفضِ حرارة الأجهزة.

وكانَ جسدُه عبارةً عن جلدٍ وعظمٍ، يتأذى من الاستلقاءِ فترةً طويلة على ظهرِه أو على جانبٍ واحدٍ، ولا بدَّ من تقليبِه بين الحينِ والآخر، ولم يكنْ أحدٌ في الداخلِ يساعدُه خلالَ فترة الانتظارِ، وكان يرجوهم لكي يقلِّبوهُ ذات اليمين وذات الشمال، ولا يفعلُ ذلكَ إلا قليلٌ منهم، فيضطرُّ أحياناً إلى طلبِ ذلكَ من عمالِ التنظيفاتِ، إذ لم يكنْ مسموحاً بدخولِ مرافقٍ مع منير..

ومن جهتي حاولتُ الدخولَ في إحدى المراتِ، باعتباري عامل تنظيفاتٍ؛ لكني لم أفلحْ بذلكَ، لأنها منطقةٌ محظورة إلا على عمالٍ محدَّدين.

وفي اليوم التالي كان تبريرُ الدكتور خليل مضحكاً من جوانبَ عدَّة شئنا ذلكَ أم أبينا.

فقدْ قالَ الدكتور خليل بكلِّ ثقةٍ «علميَّة» أنه: «لا بدَّ من التدرُّج.. لم يكن وارداً نقلُ منير إلى قِسمِ الأشعَّةِ إلا بعدَ محاولةِ طَبِيب العناية المركَّزة»..

وأنا أقولُ لهم دونَ أن أتكلّمَ:

تُحاولون ماذا؟!

وهل تبقَّى في منير ما يصلحُ للمحاولاتِ والتَّجارب الخاطئةِ؟!

وفي تِلكَ اللَّحظاتِ الجارحاتِ الصارخات سمعتُ صوتاً من مكانٍ ما..

ربما كانَ صوتُ الضَّمير، أو قد يكونُ قد أتى من كلياتِ الطبِّ، أو من الطِّب نفسِه، فأعجبَني كثيراً هذا الكلام، كأنه يخرجُ من أعماقِ القلب، أو من فمِ الموت؛ لأنَّ الأخير عندَما يأتي يلبسُ موتاه هو أيضاً رداءً أبيضَ ناصعاً..

«أستغربُ كثيراً ممن يُتقنون تلوينَ وجوهِهم بألوانٍ

عديدة كثيرة، ببذخٍ يضاهي بذخهم في اختلاقِ الأكاذيبِ عن محبتِهم وقربِهم منا، ما حاجتُكُم لذلكَ؟ ما دام بإمكانِكم أن تختاروا الأسودَ الغامض بفخامةٍ، أو الأبيض الأنيق بقتامةٍ، فقط كي تُريحونا وتريحوا أنفسَكم من هذهِ الأقنعةِ المزركشة بألوانٍ وأصباغ لا طعمَ لها ولا رائحة، لكنَّها تُخفي خلفها سوادَ قلوبكم لا وجوهكم.. وشتَّان ما بين الاثنينِ.. وحده البياضُ لا يليقُ بكم.. فاعذُروني إن ألبستُكم إيَّاه عفوَ الخاطر.. هو خَطئي الذي لا أنفكُّ أعودُ إليه كلَّ مرة.. مِن دونِ أن أحظَى بفرصةٍ لتعلُّم هذا الدرس الحياتي الأصعبِ»..

ثم حدثتْ مُشكِلةٌ لعلَّها أخطرُ من ذلكَ، بِشكلٍ لا يمكنُ أن يتقبَّلَه عقلٌ ولا منطق، وكيف يتقبلُ الإنسانُ ما لا يمكنُ أن يصدِّق حدوثُه في مكان من المفترضِ أنه المكانُ الذي يرعَى البشر، ويحرصُ على

حياتهم، فيما كنتُ أرَى ما لا يمكنُ لإنسانٍ تصديقه، وكأنَّه يحدثُ في الخيال..

فبعدَ ذلكَ الحدثِ السابقِ بفترةٍ وجيزةٍ خرجتْ إبرةُ السنترال لاين من مكانِها بفعلِ تقلبِ منير المُتَواصلِ، نظراً لأنه لا يَستَطيعُ البقاءَ على نفسِ الجانبِ فترة طويلةً، جراء التقرُّحات التي باتتْ تنخرُ جسدَه النحيلَ جداً.. حيثُ أصبحَ العظمُ مُتَلاصقاً تماماً مع البشرةِ الخارجيَّة مِن دونِ أيِّ فواصلَ من لحمٍ ومن دهنٍ، حتى عضل اليَدَين والقدمَين والمؤخرَة ذابَ كلُّه تماماً، وأصبحَ بالإمكانِ لمسُ عظمِ الحوضِ والكتِفين، بل يمكنُ رؤيةُ شكلِ العمودِ الفقري من الخلفِ والقفصِ الصدري من الأمامِ، فقد أضحى هيكلاً عظمياً كاملاً مع غلالةٍ رقيقة جداً من البشرةِ البيضاءِ المشحونةِ بالكدماتِ من كلِّ جهات الجسم..

أما الإبرةُ فقدِ انزلقت من مكانها، بسببِ تحرُّكِه

وتقلباتِه المستمرة، أو ربما لعدمِ تثبيتِها في مكانها بِشكلٍ صحيح.

ونادَى منير أمَّه ذلكَ الصباح قائلاً لها: «أشعرُ بسائلٍ بارد على جَنبي، يبدو أن الوسادةَ مبلَّلة بالماءِ!!»..

أسرعتِ الأم لتفقدِ مكانِ السنترال لاين، فلاحظتْ أنَّ الشاشَ الأبيضَ على الرقبةِ مبللٌ بِشكلٍ كامل، فطلبتِ الممرِّضين، وعلى الفورِ قاموا بنزعِ الشاشِ ووجدوا أن إبرةَ السنترال لاين خرجتْ من مكانِها، وكان سائلُ التغذية والأملاحِ يصبُّ خارج الوريد. وكان ذلكَ ما بين الساعة التاسعة والعاشرة صباحاً.

فطلبتِ الأم منهم اتخاذَ إجراء فوري عاجلٍ.. لأن وضعَ منير لا يحتملُ البقاءَ مِن دونِ تغذيةٍ وريديَّة ومحاليل، فهو يأخذُ الدواءَ والتغذيةَ من خلالِ السنترال لاين، ونظراً للتجربةِ السابقة؛ خافَ

الممرِّضون القيام بأي عملٍ مبادرة منهم، وقالوا: «يجبُ علينا انتظار وصولِ الأطباءِ».

لكنَّ الأطباءَ لم يأتوا.. وتأخَّر الوقتُ كثيراً، إلى ما بعدِ الظهرِ بقليل، حتى جاءَ الدكتور خليل في موعدِه المعتاد، ولم يشكلْ هذا التطورُ الخطيرُ سبباً مهماً لكي يأتي على الفور، لا هو ولا غيره من الأطباء، بالرغم من أنها حالٌ طارئة عاجلة، وكان على منير الانتظار.. أو الموت.

فقال الدكتور خليل بعدَ أن دخلَ الغرفةَ بهدوء مبالغٍ فيه، ثم رفعَ رجلَه على طاولةٍ جانبية قرب السريرِ، مُتَعذراً بأن قدمَه توجعه، وكأنه هو المريضُ وليس هذا الغلام المسكين.. ثم تحدَّث باطمئنان بالغ وكأنَّ شيئاً لم يحدث:

«لا مُشكِلة.. لا مُشكِلة.. سوفَ نرسلُ طلباً لكي يتمَّ نقلُه إلى الأشعة، حيثُ يمكنُ وضع السنترال لاين

دونَ معاناة، لا نريدُ أن نكررَ ما حدثَ معه في المرةِ السابقة».

وهو يقصدُ الكدمات الكثيرة والبقعَ السوداء والزرقاء التي حولتْ جسدَ منير الأبيضِ إلى لوحة فسيفسائيَّةِ الألوان مع أشكالٍ فنيَّة مرعبة.. جعلتْه يبدو كمصارعٍ ناشئٍ فاشلٍ انهزم في معركة شرسةٍ مع مصارعٍ محترفٍ.

وعدتُ لأتذكَّرَ وجهَ جدَّتي البشوشَ وزيتَها الدافئَ أمامَ هولِ هذه المشاهدِ التي تَترى أمامي..

تذكرتُ جدَّتي التي كنتُ أراها كيف تعاملُ مريضَها، وكأنه ابن لها ما زالَ في المهدِ صبياً.

وطلبَ الممرِّضون من منير عدمَ تناولِ أي طعام وعدمَ الإكثار من السوائلِ، والاكتفاء ببعضِ الماءِ وقليلٍ من السوائل الأخرى، بانتظارِ الانتقالِ إلى قِسمِ الأشعَّةِ، لأنه سيخضعُ لتخديرٍ موضعي..

وبقيَ منير طوالَ النهار مِن دونِ طعامٍ مع قليل من الماءِ. .

وفي المساءِ جاءَ والدُ منير من عملِه بعدَما استنفدَ معظمَ أيام إجازاتِه، فتفاجأَ بأن منيراً لم يتناولِ الطعامَ منذُ الصباح، عندَها سألَ الممرِّضَ المناوبَ عن ذلكَ، فنفَى علمَه بأن منيراً سينقلُ إلى قِسمِ الأشعَّةِ.

وكان منير طوالَ ساعاتِ النهار مِن دونِ تغذية وريديَّة، وفي ذلكَ خطر شديدٌ على حياتِه، فطلبَ أبو منير هذه المرة وبكلِّ إصرارٍ من الممرِّض الاتصالَ فوراً بكبيرِ الأطباء لخطورةِ الأمر، لأن تركَ منير بهذا الوضعِ طوالَ النهارِ أمر يهدِّد حياتَه. .

«أرجو أن تتصلَ بالدكتور حمد فوراً. . فهذه المسألةُ لا يمكنُ السكوت عنها».

الممرِّض: «غير مسموحٍ الاتصالُ به».

«كيف غير مسموح؟ عجيب! ألا ترى أن الولدَ

يكادُ يموتُ من الجوع؟! حتى في هذه الحالِ الشديدة الصعوبةِ!! المرات السابقة كلها كانتْ صعبةً، لكنَّه اليوم في وضعٍ شديدِ الخطورةِ ويهدِّد حياتَه». .

الممرِّضُ كانَ حائراً قلقاً. . لكن ليسَ بيده حيلَة:

«لا أدري ماذا أقولُ لك؟! هذه هي التعليماتُ. . لا يمكنُني الاتصال به في أيِّ ظرف كانَ، سأحاولُ الاتصالَ بالطَّبيبِ المناوب».

«الطَّبيبُ المناوبُ لن يأتيَ إلَّا بعدَ فترةٍ طويلة مثل العادةِ. . وهل سيتحمَّلُ منير البقاءَ مِن دونِ طعامٍ أو شراب أو دواءٍ مدة إضافيَّةً؟! هذا استهتارٌ بحياة إنسان».

توقَّف الممرِّض الطيبُ عن الكلامِ، لا يدري ما يقولُ. . هو يعلمُ أن ما يقولُه الأبُ صحيحٌ مئة بالمئة، وكان شديدَ التعجب!!! كيف لم يتمَّ إخبارُه بأن هناكَ طلباً بنقلِ منير إلى قِسمِ الأشعَّةِ؟؟؟!!!

ظنَّ الممرِّض أن هذا الخطأَ قد يكونُ خطأه هو، أو خطأ زميلٍ له.. أسرعَ إلى ملفِّ منير يبحثُ عن أي طلب أو توقيعٍ لطَبِيب على ورقةٍ يطلبُ فيها ذلكَ.. لكنَّه لم يجدْ دليلاً واحداً يثبتُ كلامَ الأب..

كانَ الممرِّض مُتَأثراً تمامَ التأثر.. هو متأكِّدٌ من صحةِ كلامِ الأبِ، لكنْ ليس في يدِه حيلة، فاقترحَ على الأبِ الملهوفِ على ولدِه أن يذهبَ إلى غرفةِ منير ليطعمَ ابنَه الجائعَ على الفور..

«لكن ماذا لو جاءَ طَبِيبُ الأشعة بعدَ ذلكَ؟ يجبُ أن نتأكَّدَ.. هل ننتظرُ كلَّ هذا الوقتِ ثم نلغي الموضوعَ في اللَّحظاتِ الأخيرة؟! لنتصلَ بالدكتور حمد».

عندَها كررَ الممرِّضُ قولَه السابقَ الذي يفيدُ بأن كبيرَ الأطباءِ يمنعُ عليهم الاتصالَ به في أي ظرفٍ كان، حتى وإن كان المريضُ على حافةِ الموتِ:

«في هذه الحالِ وفي كلِّ الأحوالِ ممنوع الاتصالُ به».

دخلَ الأبُ إلى غرفةِ منير وكان قد أحضرَ له بعضَ الطعام، ثم قامَت الأم بإطعامِ ابنِها المسكينِ الذي كان يتضوَّرُ جوعاً.

وفي هذا الوقتِ لم يقفِ الممرِّضُ الطيب القلب والذي كان التأثرُ بادياً على وجهه مكبَّل اليدين مِن دونِ المبادرةِ إلى شيء إيجابي، ولم يلقِ الموضوعَ في سلةِ الإهمالِ، وكأن الأمرَ لا يَعنيه كما يفعلُ بعضُ الأطباء، باعتبارِ أنه لا شيء يثبتُ كلامَ الأب ولا يوجدُ أي طلبٍ رسمي؛ شفهي أو خطِّي، ولا بدَّ من القيامِ بأيِّ خطوة حتى مِن دونِ وجودِ طلبٍ مكتوبٍ ومختومٍ وموقَّع من الطَّبيبِ المشرف..

لكن وكما قالَ الممرِّضُ؛ فإنَّه من غيرِ المسموحِ الاتصال بكبيرِ الأطباء.

فمنَ الواضحِ البيِّن أن الاتصالَ بالأطباء الأصغر مقاماً هو أيضاً: ممنوعٌ!

فقامَ الممرِّضُ بخطوة جادَّة ومن تلقاءِ نفسِه بالاتصالِ بقسمِ الأشعةِ، دونَ أن يهتمَّ بأنَّه قد يصبحُ موضع مساءلةٍ إداريَّةٍ من مسؤوليه بسببِ هذا التصرُّف الذي بادرَ إليه مِن دونِ الرجوعِ إلى أحدٍ، ولأنه لم يأخذْ إذناً من المسؤولينَ، فهو يعلمُ أكثر من أيِّ شخص آخرَ الآنَ أن وضعَ منير لا يحتملُ السكوت واللامبالاة.. ولا التَّأجيل إلى الغدِ.

«هل وصلَكم طلبٌ بنقلِ منير إلى الأشعةِ من أجلِ السنترال لاين؟»..

يتحدَّث الممرِّضُ مع زميلٍ له على الهاتفِ، ثم ينتظرُ بعض الوقتِ ريثَما يعطيهِ النتيجةَ.. وبعدها يُتابعُ كلامَه:

«نعم.. فهمتُ.. لا يوجدُ أيُّ طلبٍ.. لكن هنا

عندَنا الأمر مُؤكَّد.. أرجوكَ ابحثْ جيداً.. صحيح.. أعرفُ أن قسمَ الأشعةِ المختص لا يعملُ في هذا الوقتِ.. لكنَّها حالٌ طارئة.. ويجبُ القيام بأمرٍ ما.. نعم فهمتُ، ليس عندَك أي تعليماتٍ، مفهوم.. مفهوم.. شكراً لك يا أخي، شكراً».

أدركَ الممرِّض أن قسمَ الأشعة لم يَصلْه أي طلبٍ بخصوصِ منير منذُ الصباح.. ويبدو أنَّ الأطباءَ نسوا ذلكَ ولم يدوِّنوا الطلبَ في الملفِّ.. لكن ربما طلَبوا ذلكَ مباشرةً!!! غير أنه تأكَّدَ من محدِّثه أنه ليسَ عندَه أي طلبٍ مكتوب ـ ولا حتى شفهي ـ يفيدُ بأنه سيتمُّ نقلُ منير للبحثِ عن شريانٍ مناسبٍ لوضعِ الإبرة له من خلالِ الأشعةِ.

وعلى الفورِ بادرَ الممرِّضُ ومن تلقاءِ نفسهِ أيضاً، بالبحثِ عن طَبيبٍ مُتَعاون، فاتصلَ بالدكتورة منار، وهي إحدَى طَبيباتِ المركز، لكن ليسَ لها علاقة مباشرةً

بموضوعِ منير، وبعدَ أنِ استوضحتِ الأمرَ من الممرِّضِ، اتصلَت بنفسِها بالعنايةِ المركَّزة لاتخاذِ إجراءٍ عاجل.. وعلى الرّغْمِ من صعوبةِ الموقفِ، وإلحاح الممرِّضِ ومبادرته المستَعجلة والسَّريعة، فإن هذا الإجراءَ لم يتمَّ إلا بعدَ ساعاتٍ، حيثُ حضرَ طَبيبُ العنايةِ المركَّزة في التاسعة مساءً تقريباً. أي أن منيراً ظلَّ من غيرِ تغذية وريديةٍ وأملاح وأدويةٍ نحو (12) ساعة مُتَواصِلة، غير عابِئين بحالِه شديدَة الصُّعوبة..

وخلالَ أقل من خمسِ دقائقَ فقط؛ تمكَّن الطَّبيب البارعُ من وضعِ الإبرةِ في إصبعِ يدِ منير، على الرّغْمِ مما تسببَ له من ألمٍ بالغ، لكنَّها الضروراتُ التي تبيحُ المحظوراتِ..

قالَتِ الأم لطَبيبِ العنايةِ المركَّزة:

«الدكتور خليل قالَ إنه سيرسلُ بطلبٍ إلى العنايةِ المركَّزة لوضعِ إبرةِ السنترال لاين في قسمِ الأشعةِ»..

سألَها الطَّبيب بكلِّ أدبٍ:

«أي ساعة قالَ ذلكَ؟».

«لا أدري بالتَّحْديدِ.. لكنَّه جاءَ حسب موعدِه المعتادِ بعدَ الظهرِ بقليلٍ».

فقالَ طَبِيبُ العناية المركَّزة مُتَعجِّباً:

«ألا يعلمُ الدكتور خليل أنه لا يوجدُ أشعةً لمثل هذه الحالاتِ في فترة ما بعدَ الظهرِ؟!!! وأن ذلكَ كان يجبُ أن يتمَّ في الصباحِ!!! على كلِّ حال؛ لم يصلْنا أي طلبٍ بشأنِ منير.. وليس عندي أي علمٍ بمثل هذا الطلبِ، لا كتابيّاً ولا شفهيّاً».

وهذا يعني وبكلِّ وضوحٍ ليس فيه أي لبْس: أن الدكتور خليل وأطباءَ الجهاز الهضمي الذين كانوا موجودينَ في ذلكَ الوقت لم يقوموا بالإجراءات اللازمة والخطوات المطلوبة في مثل هذا الوضع..

وأنهم لم يرسلوا طلباً إلى العناية المركَّزة وقسم الأشعة!!

فضلاً عن كونهم تأخَّروا كثيراً منذ الساعة التاسعة صباحاً تقريباً، وهو الوقت الذي تمَّ اكتشافُ خروجِ إبرة السنترال لاين من مكانها.. إلى أن جاؤوا في موعدهم المعتاد، على الرّغْمِ من إخطارهم بما حدثَ في حينه، أو ربما لم يتمَّ إخبارُهم بذلكَ..

وفي اليوم التالي جاءَ الدكتور خليل مِن دونِ أي تبكيرٍ عن الوقتِ الذي يأتي فيه غالباً، وكأن الموضوعَ ليس له أهميَّة، وكانَ همُّه أن يسألَ بكلِّ براءةٍ عمَّا حدثَ يومَ أمس لمجردِ المعرفةِ، دونَ أن تكونَ للمسألة أولويَّةٌ، فقالَتْ له الأم:

«هل من المعقولِ أن يبقَى منير طوالَ النهارِ مِن دونِ طعام؟!!».

فقالَ ببساطةٍ ووداعةٍ: «ما الذي حصلَ؟؟؟»..

وكأن شيئاً لم يحصلْ!..

قرَّر الأبُ الذهابَ إلى مخفرِ الشرطة هذه المرة وتسجيلَ محضر بالواقعةِ، لكن الأم رفضتْ ذلكَ، ومنعتْ أبا منير من الخروجِ، لأنها ما زالتْ حتى تِلكَ اللَّحظةِ مُتمسَّكة بأملٍ ولو ضئيل، بأنهم سيجدون حلّاً لما يُعانيه ابنُها..

والمضحكُ المبكي أيضاً؛ أن إحدَى الممرِّضاتِ طلبتْ من والدِ منير أن يتغاضَى عن هذا الموضوعِ لأنه سيضرُّ بالممرِّضين، علماً أن الأطباءَ هم المسؤولونَ عن ذلكَ، لكن كما يبدو، فقد كانتْ هناك محاولةٌ لإلصاقِ هذا الخطأِ الجسيمِ بالهيئةِ التمريضيَّة..

فسكتَ أبو منير على مضضٍ، وبلعَ الموسى من جديدٍ..

16

مَشَاهِدُ مُؤْلِمَةٌ

ـ نزفَ منير من الصباحِ ولم يأتِ الطَّبيبُ إلَّا في المساءِ.. أكثر من عشرِ ساعاتٍ ودمُ منير يسيلُ بلا حَياء ولا ضَمير.

ـ الطَّبيبُ يمتنعُ عن القيامِ بواجبٍ إنسانيٍّ بسيطٍ بحجةِ أن المريضَ في مُسْتَشفَى حكومي.

ـ تشخصياتٌ خاطئةٌ مُتَكررةٌ وأدويةٌ بلا فائدةٍ، ومع ذلكَ يأتي من يلومُ المريضَ بسببِ أخطائِهم بدلاً من أن يلوموا أنفسَهم.

❀ ❀ ❀

ومن المَشاهِدِ المؤلمةِ أيضاً؛ أنه في يومٍ أصبحَ

منير ينزفُ من ظهرِه جراءَ عمليةِ تغييرٍ لضمادِ أثر قيامِ الممرِّضِ بنزعِ الشريطِ اللاصقِ، وكان ذلكَ في حدودِ العاشرة صباحاً، ولم يتمكَّنِ الممرِّضُ من وقفِ النزيفِ، وحاولَ أكثرَ من مرة، لكنَّ النزيفَ استمرَّ..

وبعدَ أن بدأَ الأبُ والأم بالاعتراضِ هذه المرة أيضاً؛ اتَّصلوا بالعنايةِ المركَّزة، لكنَّ الطَّبيبَ لم يأتِ إلا عندَ الساعة السابعة مساءً، وكل ما فعلَه أنه طلبَ وضعَ كيسِ دمٍ له، وظلَّ ينزفُ طوالَ هذا الوقتِ، وعندَ الساعة العاشرة ليلاً حضرَ ممرضٌ آسيوي، فجلسَ خلفَ منير، وصارَ يضغطُ على الجرحِ النازفِ لنحو ربعِ ساعة مُتَواصلةٍ وهو يجلسُ ملاصقاً لمنير، وبعدَها نزعَ يدَه فإذا بالنزيفِ قد توقَّف.

وأذكرُ مشهداً آخرَ حصلَ قبلَ أسابيعَ قليلةٍ من الموتِ..

كانَ مشهَداً من المشاهدِ المُضحكَةِ والمبكيةِ في آنٍ معاً أيضاً . .

يوم جاءَتْ مسؤولةٌ من التمريضِ إلى غرفة منير تلومُه على عدمِ إحضارِ نتائجِ فحصِ عينات الكرونز من الدكتورة فاطمة التي تعاونتْ مع الأسرةِ المنكوبةِ لكي تظهرَ نتائجَ العيناتِ بأسرعِ وقتٍ ممكن، حيثُ تبيَّن لها خلالَ أيامٍ قليلة أن تشخيصَ الكرونز لم يكنْ صحيحاً، وكانَ الأَبُ قد أخذَ العيناتِ إلى الدكتورة فاطمة وعليه أن يقومَ بإحضارِ النتيجة، مع أن هذا هو دورُ المُسْتَشفَى وليس دوره . .

لكنْ على حدِّ قول الدكتور صابر: «إنه مُسْتَشفَى حكومي» . .

وكان منير في هذا الوقتِ وحده في الغرفةِ مع عمَّته التي حضرتْ لأيامٍ معدوداتٍ من بلدٍ بعيدٍ لكي تطمئنَّ عليه وتبقَى معه فترةً من الوقتِ . .

يا سبحانَ الله!!!

تلومُه وهو العاجزُ عن الحركةِ!

تلومُ عاجزاً على عجزه ولا تلومُ أصحابَ «الهِمم» ذات الشأنِ على تقصيرهم!!! بدلاً من أن تكونَ المبادرةُ من المُسْتَشفَى، وبدلاً من أن يلوموا أنفسَهم على تأخُّرهم أكثر من شهرٍ كاملٍ مع كلِّ ما فعلوه بحقِّ منير!!!

عجباً واللهِ بل ألف عجب.. أن تقومَ هذه المسؤولةُ عوضاً عن تشجيعِ منير بتحطيمِ معنوياته!!!

وكانت مشاعرُه في ذلكَ الوقتِ لا تحتملُ أذيَّةً صغيرة.. ولا أي كلمةٍ جارحةٍ مهما كانت بسيطةً.. كان يبدو مثل غصنٍ رفيع جداً وجافٌّ جداً.. إذا وقفتْ عليه فراشةٌ صغيرة رقيقة فسوفَ ينكسرُ..

وبعدَ دقائقَ من ذلكَ دخلَ والدُه الغرفةَ فوجدَه يبكي بحرقةٍ بالغة، وعلمَ بما حدثَ، فخرجَ فوراً ليعلمَ هذه الممرِّضةَ ما لم تتعلَّمه، ويلقي عليها محاضرةً

كانت تنقصُها عن أهميَّةِ الرأفةِ بالمريضِ، وعدم جرحِه فوق جراحِه التي لا تحتملُ، وأن التمريضَ ليس دواءً وحقنة. .

التمريضُ إحساس بمشاعرِ المريضِ قبلَ أيِّ شيء آخرَ. .

ومن المضحكِ المبكي أيضاً قيامُ مشرفة اجتماعيةٍ تعملُ في المُسْتَشفَى قبلَ وفاةِ منير بأيامٍ بالاتصالِ بأبيه قائلةً له: إن مسؤولاً ما ـ لم تحدِّد من هو ـ أبلغَها أن والدَ منير تركَ ابنَه في المُسْتَشفَى ولا يريدُ تسلمَه وإعادتَه إلى منزلِه. .

في الحقيقةِ؛ أنا لم أرَ في حياتي أغربَ من هذا الاتصالِ ومن هذا الكلامِ!!!

هل يمكنُ لهذا الأبِ الذي يجاهدُ بكلِّ قوةٍ وصبر ومجازفة من أجلِ ابنه المريضِ أن يتخلَّى عنه ويتركَه في هذه اللَّحظاتِ الحرجة؟؟!!

وهل يمكنُ أن يتخلَّى أبٌ محبٌّ عن أغلى غواليهِ ويتركَه في المُسْتَشفَى وهو يصارِعُ كلَّ يوم لكي يشفَى ويعودَ إلى المنزلِ سليماً معافىً؟!

ويأتي هذا الاتصالُ بعدَ نحو سبعةِ شهور من إقامةٍ مُتَواصلة. .

والسببُ كما تراءى لي؛ أنه في اليومِ السابقِ رأى والدُ منير لوحةً كبيرة عندَ مدخلِ المُسْتَشفَى خاصَّة بالأخصائيين الاجتماعيين والنفسيين؛ تقولُ اللوحةُ أن قسمَهم العاملَ في مختلفِ أجنحةِ المُسْتَشفَى، يقومُ على أهدافٍ إنسانيَّة نبيلة، وعلى رأسِها زيارة المرضى والاهتمام بمشاعِرهم والتَّخفيف عنهم نفسياً. .

صورَ والدُ منير اللوحةَ بهاتفه النقالِ ثم وضعَ الصورةَ على تويتر، معلِّقاً عليها بالقولِ إن ابنَه قضَى في المُسْتَشفَى سبعةَ شهور مُتَتاليةٍ مِن دونِ أن يزورَه في يومٍ ما أحدٌ من هذا القسمِ. .

ويبدو أن الردَّ جاءَ سريعاً جداً. . ومِن دونِ أي تلكُّؤ. . مع أن صورةً واحدة ومهمَّةً جداً كما كانوا يعتقدون وهي صورة الغاليوم، استنفدتْ من الوقتِ شهراً كاملاً، ثم أجريت، وكانت نتائجُها مِن دونِ أي فائدة تُذكر. .

أما شعورُهم بالانزعاجِ فلم يتحمَّلوه يوماً واحداً! لكن على منير ألا ينزعجَ، ولا يحقَّ له أن ينزعجَ. . وعلى أهلِه أن يلتزِموا الصَّمْتَ. . حتى الموت.

وعوضاً عن القيامِ بدورِهم وزيارةِ منير باعتبارِه المريض الوحيد المُقيم لمدةِ سبعةِ أشهرٍ متواصلةٍ ما بين الباطنيَّةِ والجهازِ الهضمي؛ قامتِ الموظفةُ بالاتصالِ بأبيه طالبةً منه إخراجَ ابنِه من المُسْتَشفى. .

وقالَتْ له: إن مسؤولاً ما طلبَ منها ذلكَ بحجةِ أن والدَ منير لا يريد تسلمَ ابنِه وإعادتَه إلى بيته، وذكرتْ أن سببَ ذلكَ قد يكونُ وجودُ إعاقة عندَ الولدِ

المريضِ، وأنه لا يَستَطيعُ الحركةَ، وعرضتْ عليه توفيرَ سريرٍ طبيٍّ له في المنزلِ إذا كانَ الأبُ لا يَستَطيعُ تأمينَ هذا السريرِ..

فسألَها الأبُ أن تخبرَه باسمِ المسؤولِ الذي طلبَ منها ذلكَ لكي يعرفَ منه من أين جاءَ بهذه المعلوماتِ، ومَن هو الطَّبيبُ الذي أخبرَه بكلٍّ هذه الوقائعِ المغلوطةِ؟! لكنَّها رفضتْ ذلكَ تماماً..

عندَها تمنَّى عليها أن تقومَ بزيارةِ منير لتطَّلعَ بنفسِها وعن قربٍ على حقيقةِ ما قيلَ لها، فتتبيَّن الواقعَ بدلاً من الصورةِ المشوهةِ التي نقلتْ إليها لأهدافٍ غير شريفةٍ.. لكن.. ومع أنها لا تبعدُ عن غرفةِ منير سوى مسافة خطواتٍ قليلة جداً؛ فإنها لم تقمْ بهذه الزيارةِ.. وطبعاً لم يحاسبْ أحدٌ هذا ولا ذاك..

أما أنا الإنسانُ المسكينُ الفقيرُ.. فلو أخطأتُ في تنظيف غرفة.. أو تركتُ منديلاً ورقياً على الأرضِ،

أو في زاويةٍ، أو ممر أنا المسؤولُ عنه، ولم أنتبهْ إلى وجودِه، ستقومُ الدنيا ولن تقعدَ، وسوفَ يصورُه الناسُ في هواتفِهم النقالَةِ، وينشرونَه على تويتر وفايسبوك.. وغير ذلكَ من مواقعِ التَّواصُلِ الاجْتماعيِّ، أما أن نفعلَ كلَّ هذا السوءِ بطفلٍ صغير؛ فلا بأس..

مسألَةٌ فيها نظرٌ..

وعلى حدِّ قولِ أحدِهم فإن: «مثل هذه الأخطاءِ موجودةٌ في كلِّ مستشفياتِ العالمِ».

يا سيِّدي لتكنْ موجودة في كلِّ العالمِ.. فهل معنى ذلكَ أنه من الضروري أن تسمحَ بها وتقبلَ بأن تكونَ موجودة عندَك؟!!! وهل وجودُها في بلادٍ ما مبرِّرٌ لتسكتَ عنها في ديارِكَ وتعتبرَها أمراً عادياً مقبولاً؟

وهل هذا الغلامُ المسكين الذي ليس لديه عائِلة كَبيرة تنصرُه، ولا مسؤولٌ يحميهِ، ولا قبيلة قويَّة تدافعُ

عنه.. هل من الضروريِّ أن نلقيَه في شراكِ الأخطاءِ الطبيَّةِ.. بل بالأحرى الإهمال الطِّبي اللامَسؤول؟!

وذكَّرَتْني قصةُ هذه الموظفةِ والمعلوماتُ الخطأُ التي وصلتْها، بالمعلوماتِ التي أدلَى بها مرةً مديرُ المُسْتَشفَى للصحافةِ بشأنِ منير، وقالَ إنه شابٌّ جامعي، ويدرسُ خارجَ البلادِ، مع أنه كانَ في الصفِّ العاشرِ، وَمَا زال صغيراً في السنِّ.. وبدلاً منْ أن يحققَ المديرُ مع مصدرِ معلوماتِه الخاطئةِ، نفَى كلامَه الذي كانَ مسجَّلاً ومكتوباً..

فإذا كانَ مديرُ المُسْتَشفَى يعتمدُ على مصادرَ خاطئةٍ.. فماذا نقولُ بعدَ ذلكَ؟!!!

17

حِكَايَةُ الطَّبيبِ الأَلْمَانِيِّ

ـ رفضَ الأطباءُ الاستجابةَ لطلبِ الطَّبيبِ الألماني ولم يسهِّلوا عمليَّةَ سحبِ الدمِ.

ـ استأذنَ أبو منير الأطباءَ لإحضارِ ممرضٍ خارجي لكي يتمَّ أخذُ عينةِ الدمِ ونقلها إلى ألمانيا، لكنَّ الأطباءَ المشرفين رفضوا دونَ مبررٍ بالرغمِ من احتمالِ تعرضِ منير للخطرِ الشديدِ.

ـ قام طَبِيبٌ بعملياتِ غرزٍ لأبرٍ عديدةٍ حتى أصبحَ جسمُ منير مثل المنخلِ من كثرةِ الثقوبِ، لكنَّه من شدةِ تألمِه لم يعدْ يتألَّم.

ـ «لا تضعِ الإبرةَ في إصبعي الصغيرِ هذا ولا في

الإبهامِ، ولا في قَدمي هذه، حاولْ في يدي.. لا تحاولْ في إصبعي.. فذلكَ مؤلمٌ جداً».

❊ ❊ ❊

ما زلتُ أذكرُ أيضاً حوادثَ كثيرةً مشابهة، تشهدُ هي أيضاً بأمورٍ عدة، تتطلعُ إلى من يحمُل هذه القضيَّةَ إلى كلِّ المحافلِ الإنسانيَّة في العالمِ..

ومثل ذلكَ أمورٌ لا أستطيعُ شرحَها ولا تفسيرها ولا تبريرَها، ولا أجدُ لها وصفاً مهذَّباً.. ولا حتى وصفاً بربرياً.

ومن مجرياتِ تِلكَ الوقائعِ المؤلمةِ أن أبا منير اتصلَ في أحدِ الأيامِ بطَبِيبٍ في ألمانيا، مُتخصِّصٍ بالجهاز الهضمي، فاقترحَ عليه الطَّبيبُ الألماني بعدَ أن أرسلَ له كلَّ نتائجِ الفحوصاتِ الطبيَّة السابقةِ أن يجريَ فحصاً معيناً.

طلبَ أبو منير من الأطباءِ في جناح الجهازِ

الهضمي ذلكَ، علماً أن هذا الفحصَ غير مُتَوفرٍ في المُسْتَشفَى، ويُجرى خارج البلادِ على حسابِ المريضِ وليسَ على حسابِ المُسْتَشفَى، لكنَّهم رفَضوا مِن دونِ أي تبريرٍ، سوى أن الفحصَ هذا ليسَ له ضرورةٌ ولا أهميَّة له تُذكرُ، بحسبِ رأيهم.

وكأنَّ كلَّ الفحوصاتِ والتَّجاربِ السابقةِ التي أجريتموها يا سادة والتَّشْخيصاتِ الكثيرةِ، وصورِ الأشعةِ، والمناظيرِ العلويةِ والسفليَّة، والأدويةِ التي ملأتُم بها جسدَه المسكين، وغيرها من «الأنشطة» الكثيرةِ التي أقدمتُم عليها؛ كانت كلها ضروريَّةً؟؟؟!!!

إنَّ أمرَكم ـ بالفعلِ ـ غريبٌ.. إلى أيِّ مدرسةٍ بالطب تَنتمون؟!

استأذنَ أبو منير الأطباءَ لإحضارِ ممرضٍ من مختبرٍ خارجي ما داموا لا يريدون المساعدةَ في ذلكَ، لكي يتمَّ أخذُ عينةِ الدم ونقلُها إلى ألمانيا، لكن

الأطباءَ المشرفين رفَضوا، على الرّغْمِ من أن كلَّ التكلفةِ كانت عليه، علماً أن كثيراً من الفحوصاتِ كان يتمُّ تقاضي تكاليفِها، لأن الضمانَ الصحي السنوي لا يُغطي كاملَ التكاليف.

فقامَ الأب بالاتصالِ بمختبرٍ مُتخصِّصٍ لإرسالِ ممرضٍ يأخذُ عينةَ الدم بنفسِه وعلى مسؤوليَّةِ الأبِ، وعندَما جاءَ الممرِّضُ لم يسمحوا له بأخذِ عينةِ الدمِ، لأنَّ عيناتِ الدمِ يتمُّ أخذُها من السنترال لاين الموضوع في رقبةِ منير بسببِ ضعفِ شرايينِ الجسمِ.

ورفضَ الأطباءُ ـ بإصرار ـ معاونةَ الممرِّضِ الخاص بالمختبرِ الخارجي، ولم يسمحوا للممرضين العاملِين بالمركزِ بمساعدتِه لأخذِ العينةِ المطلوبةِ، فقرَّرَ الممرِّضُ القيامَ برحلةِ عذابٍ وتعذيبٍ إضافيَّة بحثاً عن شريانٍ يمكنُ أخذ العينةِ منه..

لكنَّ اللهَ سبحانَه قدَّرَ وقتَها أن يسهِّلَ الأمر عليه،

فوفقه لكشفِ شريانٍ مناسب بوقتٍ قصيرٍ بمساعدةِ ممرضٍ من المركزِ يليقُ به الأبيضُ، أقدمَ على ذلكَ بمبادرةٍ منه، على الرّغْمِ من موقفِ الأطباءِ، معرضاً نفسه للمساءلةِ، إيماناً منه بأنَّ منيراً يستحقُّ المجازفةَ والتَّضحيةَ.

وعلى الرّغْمِ من أن نتيجةَ الفحص التي وصلَت بعدَ نحو أسبوعٍ لم تقدمْ جديداً؛ فإنها كانتْ محاولةً جديرةً بالاهتمامِ، وبدلاً من أن يثني الأطباءُ على المحاولةِ ـ التي وإن لم تنفعْ فإنها لم تضرَّ مثل كثيرٍ من محاولاتهم الفاشلةِ ـ كانتِ السخريةُ واضحةً من الدكتور خليل الذي قالَ باستهزاءٍ: «نتيجةُ الفحصِ هذه تصبِّح علينا».

ومن الذكرياتِ المؤلمةِ المريرةِ أيضاً أنهم ـ قبلَ وفاةِ منير بيومٍ واحدٍ سبقَ نقله في آخرِ انتقالٍ له من غرفتِه إلى العنايةِ المركَّزةِ حيثُ فارقَ الحياةَ ـ أرادوا

سحبَ عينةٍ دمٍ من السنترال لاين، لكنَّ الممرِّضةَ المسؤولةَ ظنَّت بعدَ محاولةٍ واحدة فاشلةٍ أن السنترال لاين انسدَّ، فطلبتْ طَبيباً من العنايةِ المركَّزة..

وعندَما جاءَ الطَّبيبُ قامَ بعملياتِ غرزٍ لأبرٍ عديدةٍ، حتى أصبحَ جسمُ منير مثل المنخلِ من كثرةِ الثقوبِ، لكنَّه من شدَّةِ تألُّمه لم يعدْ يتألَّم.

فبعدَ أن كثرتِ النصالُ عليه أصبحَ الألمُ أمراً عادياً، لكنَّه كانَ يتحدَّثُ مع الممرِّضِ بكلِّ هدوءٍ واحترامٍ مُتَحمِّلاً كلَّ الأوجاعِ الظاهرةِ والباطنةِ التي ينوءُ بحملِها الرجلُ القوي الكبير الضخم، فكيف ونحنُ أمامَ غلام صغير في ربيعِ العمر؟!

«لا تضعِ الإبرةَ في إصبعي الصَّغير هذا ولا في الإبْهام، ولا في قَدَمي هذه، حاولْ في يَدي.. لا تحاولْ في إصبعي.. فذلكَ مؤلمٌ جداً»..

وصارَ الطَّبيبُ يتنقلُ في إبرتِه مصطنعاً الثقوبَ والغرزَ في جوانبَ مُتَفرقةٍ من جسمه..

وكم صعب هذا المَشْهد المؤلم!!!

منير يتجلَّدُ مُتَسلحاً بالصبرِ والإيمانِ.. ينظرُ إلى أبيه تارةً وإلى أمه تارةً أخرى.. وأنا واقفٌ بينهم أحاولُ أن أكلِّمه بكلِّ حبٍّ لكي أخففَ عنه الألمَ..

منير لم يعدْ بالنِّسبةِ لي مجرد مريضٍ، وأنا لم أعدْ بالنِّسبةِ إليه مجرَّد عاملِ تنظيفاتٍ.. أحببتُه بكلِّ صدقٍ، وكانَ يقبلُ هذا الحبَّ الذي تملَّكَ قلبي.. لذا كنتُ أحاولُ التخفيفَ عنه ما استطعتُ إلى ذلكَ سبيلاً..

لكنَّ الألمَ ظلَّ في ذلكَ اليومِ يعصرُ قلبَه.. كما كانَ يعصرُ قلبي.

لم نكُنْ ندْري ما الذي يحدثُ في داخلِه من تغييراتٍ..

لم نكُنْ ندْري أن الدمَ بدأَ يتدفَّقُ من شعيراتِ

الجسمِ الداخليَّةِ مُتَسللاً إلى الأعضاءِ المختلفةِ ومنها الرِّئة والأمعاء.. وكل أنحاءِ الجسمِ.. مُعلناً عن اقترابِ ساعةِ الحياةِ من نهايتِها..

كانَ ينظرُ بألمٍ.. مُتَحسِّراً على نفسِه.. وعلى حياتِه التي انتهتْ..

ومن شدَّةِ الهولِ.. والحالِ الصعبةِ التي بلغَها، تذكَّرتُ جملةً قالَها لي مرةً في لحظةِ ضعفٍ من اللَّحظاتِ الحرجةِ: «لو كانَ بإمكانِهم قَتلي فلْيفعلوا.. فذلكَ أفضلُ لي ولهم.. لم أعدْ أستطيعُ أن أتحمَّلَ».

وبعدَ نحو ساعة يئسَ الطَّبيبُ من إمكانيَّةِ إيجادِ شريانٍ يأخذُ منه عينةَ الدمِ، ومنير صامتٌ صابرٌ ولم يكن يدري أن حياتَه على هذه الأرضِ ستنتهي بعدَ ساعاتٍ معدودة.. كانتْ لديه رغبةٌ بالبقاءِ من أجلِ والدَين سخَّرا حياتَهما من أجلهِ..

وفي هذا الوقتِ العصيبِ، وقفَ طَبِيبُ الكلى

خارجَ الغرفةِ مُتَحدِّثاً لإحدى الزائراتِ، قائلاً لها: «إن دمَ منير أصبحَ مثل العصيرِ».

وكانتْ أم منير في تِلكَ اللَّحظاتِ مشغولةً مع ابنها داخلَ الغرفةِ، ولم تسمعْ هذه الجملةَ المؤلمةَ.. كما أنَّ الطَّبيبَ لم يجرؤ على البوحِ بذلكَ، وفضلَ الانسحابَ والذهابَ مِن دونِ أن يخبرَها بحقيقةِ الدم الذي تحولَ إلى «عصير»..

وكتمَتِ الزائرة أنفاسَها وخرجَت هي أيضاً على الفور والدموعُ تغمرُ عَينيها..

مضَت في طريقها كالرصاصَة تخترقُ حاجزَ البلاغة التي تعجزُ عنها كلُّ الكلماتِ.. بل كلُّ قواميسِ اللغة؟!

وكانَ الأملُ ما زالَ يتدفقُ في قلبِ أم منير. فقالَتْ متوسِّلةً لطَبيبِ العنايةِ المركَّزةِ الذي قطعَ الأملَ بعدَما جاهدَ بكلِّ صدقٍ من أجلِ هذا الطفلِ المسكين..

«حاولْ من جديدٍ.. أرجوكَ.. لا بدَّ من وجودِ وسيلةٍ ما».

فقالَ لها بصوتٍ مرتجفٍ:

«واللهِ لا أدري ماذا أقولُ لك يا أم منير.. لقد ملأنا جسدَه ثقوباً دونَ فائدةٍ.. لا أعرفُ.. لا أعرفُ..».

كانَ يتمالكُ نفسَه بقوةٍ فائقةٍ ليخفيَ دمعةَ حزنٍ يخفقُ بها قلبُه الأبيضُ. يحاولُ أن يمنعَها لكي لا تخرجَ من عينيه فتسقطَ حارَّةً بين يَدي منير..

عندَها.. وقبلَ أن يخرجَ الطَّبيبُ من الغرفةِ، قالَت أم منير بقلبِها لا بلسانِها، وكأنَّها طلقتها الأخيرة:

«لماذا لا تحاولُ من السنترال لاين؟؟!!».

فقالَ لها بصوتٍ يائسٍ حزينٍ يشعرُ باللوعةِ الواضحةِ حيالَ ما يحدثُ لهذا الغلامِ المسكينِ:

«الممرِّضةُ قالَت إنَّ ذلكَ غير ممكنٍ».

فعادتِ الأم لتقولَ برجاءٍ وأملٍ وهي تدعو اللهَ بكلِّ إيمانٍ، ومَن أكملُ قدرةً على الدعاءِ لطفلٍ من أمِّه؟؟؟.. وهل في الدنيا قلبٌ أحنُّ على الإنسانِ من قلبِ أم؟! ومَن أصدقُ منها دعاءً لولدِها عندَ المِحَن، وكم مِن أم ضحَّت بنفسِها من أجلِ ولدها:

«حاولْ.. جزاكَ اللهُ خيراً.. وسمِّ اللهَ».

وما أن وضعَ الطَّبيبُ الإبرةَ في السنترال لاين وسمَّى اللهَ الرحمنَ الرحيمَ وسحبَ ساعدَها حتى تدفقَ الدمُ وملأَ الأنبوبَ بالعينةِ المطلوبةِ.

«اللهُ أكبر.. الله أكبر»..

صاحتِ الأم بفرحٍ.

إن قلبَ الأم عندَما تدعو لولدِها أقربُ إلى الله من أيِّ بشر يدعو له..

وفي هذه اللَّحظةِ تذكَّرتُ جدَّتي عندَ وفاةِ والدي..

تذكرتُها كيف كانتْ تدعو اللهَ بكلِّ إيمانٍ أن ينقذَ ولَدَها من الموت. .

لم تنمْ جدَّتي في الليالي المظلمةِ الأخيرةِ التي سبقتْ موتَ أبي إلا نادراً. . كانتْ تسهرُ الليالي الطوالَ وتقضي ساعاتِها في تلاوةِ القرآنِ والتهجدِ. . والدعاءِ قياماً وقعوداً. . ترجو اللهَ أن يستجيبَ لدعائِها. . لكن القدرَ لا مفرَّ من وقوعِه. .

نظرَ الطَّبيبُ إلى الأم بكلِّ أسفٍ وأسى وحيرة. . كانتْ حمرة الخجلِ على وجنتَيه مثل احمرارِ الدمِ الذي تدفقَ من السنترال لاين بقدرةِ قادر. . رسمَ في عَينيه كلَّ اعتذارٍ ممكن يليقُ به وله كلَّ بياضٍ في الكون. .

وكان لسانُ حاله يقولُ:

«سامِحْنا يا منير، لقد ثَقَبنا في كلِّ جسدِك ثقوباً كثيرة، فلم تبقَ فيه زاويةٌ لا تشهدُ على ما ألحقْنا بك من آلام وأضرارٍ لا تُحصى ولا تعدُّ، وكان الأمرُ لو

تمهَّلْنا وفكَّرنا وحاولْنا لا يتطلبُ سوى محاولةٍ بسيطةٍ جداً، بدلاً من هذا القهرِ الذي فعلناهُ عن جهلٍ مرةً وعن إهمالٍ مُتَعمَّد مرةً أخرى، فيما كنَّا نعتقدُ أن ما نفعلُه بطولةً».

وبعدَها لم تتكلَّمِ الأم كلمةً واحدةً..

كانَ منير في هذه الأثناءِ مُتَأمِّلاً بأسى.. ناظراً بحسرةٍ.. بلا تعليق واحدٍ.. وصمتُه يقولُ:

«لماذا تَفعلون بي كلَّ هذا!!!

أيُّ ظلم أوقعتُه عليكم وأيُّ جرمٍ اقترفتُه وأجرمتُه بحقِّكم حتى تفعلوا بي هذا؟؟؟

ألا تخافون اللهَ!

أليسَ عندَكم أبناء!!

فكِّروا بأولادكم.. بأحفادِكم.. بأنفسِكم.. أتظنُّون أنكم بمنأى عمَّا يجري لي!

أتعتقدون أن ما أصابَني لن يصيبَكم؟؟؟ أنتم لستُم أفضل حالاً مني.. وكما تُدينُ فسوفَ تُدانُ».

وكانتِ الأم ومعها الأبُ لا يدريانِ أنَّ الأجلَ المحتومَ قد دَنا واقتربَ.. وأن الموتَ حانَ موعدُه، وأن الملائكةَ حضرتْ لتأخذَ معها روحَ الصبي الطاهرِ النقي.. كان الموعدُ المقدَّر منقذاً له من هذا القهرِ الذي غلبَه بكلِّ صفاقةٍ حتى القبر.

ولعلَّ ما اكتشفَه أبو منير في اليومِ التالي لوفاةِ ولدِه عندَما تمَّ نقلُه إلى المغسلِ ليتمَّ غسلُه وتكفينُه والصلاةُ عليه كارثةَ الكوارثِ، فبعدَ إزالةِ أربطةِ المُسْتَشفَى التي عُقدت في العنايةِ المركَّزةِ، وبعدَ غسلِ جسدِه الطاهر، اكتشفَ الأبُ ومَن معه أن هناكَ جرحاً كبيراً في جانبِ الخاصرةِ..

يبدو أن أطباءَ العنايةِ المركَّزة قاموا بعملِ شقٍّ في الخاصرة لأمرٍ ما، مِن دونِ أن يبلغوا أهلَ المريضِ

بـذلـكَ، ومِـن دونِ أنْ يـأخـذوا الأذنَ مـنـهـم. . ولـم يخبروهم حتى بعدَ وفاةِ منير، ولولا أن اكتشفَ الأبُ ذلكَ بنفسِه لم يعرفْ أحدٌ ما حدثَ، وتمَّ طمسُ معالم هذه القضيَّةِ. .

فما معنى هذا الجرحِ الكبيرِ؟؟؟

وما الهدفُ منه!!!

لـم يـحـصـلِ الأبُ عـلـى جوابٍ بـالـرغـمِ مـن كـلِّ المحاولاتِ التي بذلَها؟؟؟!!

18

أَبِي وَزَيْتُ جَدَّتِي

ـ كانَ يتألمُ ولا تخرجُ من فمهِ الآهاتُ.. فشاركتُه ألمهُ، وعندَما أدمنتُ صنوفَ الألمِ؛ فاجأني ورحلَ.. رأيتُ في شدةِ تحمُّلهِ ما رأيتُ من شدةِ تحمُّلِ أبي..

ـ أثارَ هَمي وجذَبني نحوَه كالمغناطيسِ «بمعزلٍ» عن كلِّ المرضى الذين رأيتُهم منذُ أنْ باشرتُ عملِي في هذه المُسْتَشفَى الواسعةِ.

ـ كانَ البعضُ لا يريدُ أن يوجعَ رأسَه بالتفكيرِ والبحثِ والتدقيقِ.. الأمورُ بسيطةٌ؛ يجربُ التَّشْخيصَ ويجربُ الدواءَ، فإذا نجحَ الأمرُ وأصابَ الدواءُ الداءَ فـ«شكراً»، وإذا لم ينفعْ وفاقمَ الدواءُ الداءَ فـ«عذراً».. لكنَّهم مع ذلكَ كابروا ولم يعتذروا..

ـ الأمُّ لا ترضى أن يكونَ ابنُها حقلَ تجارب لمن قالَ بلسانِه، وبفعلِه قبلَ لسانه: «إن الطَّبيبَ لا يتأثرُ بالمريضِ، وليسَ في الأمرِ أي علاقةٍ إنسانيَّةٍ يتأثرُ بها».

ـ سبعةُ شهورٍ كاملة مضتْ وهو مسجونٌ في المُسْتَشفَى.. تركوهُ ينزفُ دماً من كلِّ مكانٍ.. اعتبروه رجلاً مسنّاً مقبلاً على الموتِ لا محالة.

❊ ❊ ❊

أذكرُ وجهَ جدَّتي يومَ كانَ أبي مريضاً موجعَ القلبِ باكياً.. وجهاً ليسَ هو الوجهُ الذي نشأنا عليه، وجهاً هرمَ فجأةً مِن دونِ مقدماتٍ، ومِن دونِ إنذارٍ.

كانتْ تتوهَّج مثل نارٍ مشتعلةٍ، في موقدٍ خشبي ملتهبٍ، في ليلة شتاءٍ بارد مثلجٍ..

لم يكنْ عندَنا سوى قليلٍ من الزيت النقي لتفركَ به جسدَه، وهذا النوعُ من الزيتِ غالي الثمنِ على من هُم

في مثلِ حالي، وعندَنا كانَ الزيتُ إلى جانبِ بعضِ الأعشابِ التقليديَّةِ «الدواء السحري» الأهمَّ - تقريباً - لكثير الأمراضِ والأعراضِ المرضيَّة التي كانتْ جدَّتي تشخصُها على طريقتِها . .

إذا تألمَ بطنٌ دعتْكه بالزيتِ، وإذا تساقطَ شعرُ رأسٍ نثرتْ بعضَ الزيتِ على منابتِه، وإذا تألمتْ أذنٌ، وتيبَّستْ مفاصلُ، والتهبتْ لوزٌ، وانخفضتْ حرارةٌ؛ بادرتْ جدَّتي نحو إناءِ الزيتِ . .

تارةً تَستخدمُه بارداً . . وتارةً دافئاً . . وفي بعضِ الأحيانِ حاراً .

ترى لو كانتْ جدَّتي مَعي هل كانتْ ستبادرُ إلى علاجِ هذا الفتى الطيبِ بقطراتٍ من زيتِ زيتونِها الأخضرِ اللامعِ، أم ستدعُه حيثُ هو يتألَّم، على سريرِهِ الأبيضِ الناصعِ؛ وتتركهُ تحتَ رحمةِ السماعاتِ المرفهةِ بدلالٍ وسخاءٍ، والمدلاةِ بزهو وخيلاء؟

الفتى الصغيرُ كان يتألمُ ولا تخرجُ من فمه الآهاتُ.. كان يتألمُ بشدة لكن بصبرٍ أشد.. فشاركتهُ ألَمه، وعندَما أدمنْت صنوفَ الألمِ؛ فاجأني ورحلَ.. رأيتُ في شدةِ تحملِه ما رأيتُ من شدةِ تحملِ أبي.. فأثارَ همِّي وجذبَني نحوه كالمغناطيس «بمعزلٍ» عن كلِّ المرضى الذين رأيتُهم منذُ أن باشرتُ عملي في هذه المُسْتَشفَى الواسِعَة.

صحيحٌ أن أبي لم يكنْ صغيراً مثله، لكنَّه لم يكنْ عجوزاً.. كان شاباً لم يتجاوزِ الأربعيَن من عمرِه القصيرِ، لكن المرضَ المجهولَ دهمَه وقضَى عليه، ولم ينفعْ طبُّ جدَّتي ولا دواؤها، وَمَا تحمله من حكاياتٍ كثيرةٍ ترويها على مدى عمرها الطويلِ.

وكثيرٌ من الناسِ يلهثون وراءَ حكاياتِ جدَّتي وَمَا يشبهُ حكاياتِها.

وهذا من طبيعةِ النفسِ البشريَّةِ منذُ القدمِ.

وكثيرٌ من حكاياتِ الناسِ، القديمة منها أو الجديدة، قد تكونُ مفعمةً بالإحساسِ الدافئِ العطوفِ المقترنِ بالعطاءِ، أو تكونُ بما تحتويه من أحداثٍ مُتَتاليةٍ ومواقف مُتَباينةٍ محفزةٍ للأنفسِ التواقةِ نحو المجدِ، أو حتى مثيرة لهمومِ قلوبٍ مهمومةٍ في أعماقِها . .

ومنها ما يكونُ عكس ذلكَ.

ويسعى هؤلاءِ الناسُ وراءَ تِلكَ الحكاياتِ المصاغةِ بدقةٍ وعناية بالغتينِ، فيما تبدو كأنَّها عقدٌ من اللؤلؤ المنثورِ. . أو بستان عامر بالزهورِ.

يعيشون تفاصيلَ حروفِها وكلماتِها وفقراتِها وفصولها بشغفٍ نادر، ونهمٍ لا يفترُ، يدورون في فلَكها حتى تصبحَ جزءاً منهم، ثم ينصرفونَ عنها وقد أصبحوا جزءاً منها.

بل إن بعضَهم يتأثَّرون بالقصةِ التي تُروى عليهم إلى حدٍّ لا يطاقُ، فإذا كانتْ شخصيَّةُ البطل «المؤثر»

طاغيةً على كلِّ ما في القصةِ من تفاصيلَ. فهم يتقمَّصونه؛ عندَما يشعرُ بسعادة غامرةٍ تنعكسُ عليهم سعادة مماثِلة، وإذا أمسى حزيناً مهموماً بائساً؛ يشعرون بالحزنِ والبؤسِ، فلا يتكلَّمون إلا لضرورةٍ، وإذا تكلَّموا ربما وضَعوا الأشياءَ في غيرِ مواضعِها.

وإذا أضحَى البطلُ «المؤثر» شجاعاً قوياً منتصراً، تشتعلُ في نفوسِ هؤلاءِ القراءِ أو المشاهدين المستسلمينَ إزاء ما يَرونه ويسمعونَه أو يقرؤونَه؛ الشجاعةُ والقوةُ والاستبسالُ، حتى الإحساس بالنصرِ المُتَوهمِ بحدوثِه.. وهلمَّ جراً.

أما أنا فلمْ أكنْ مثل كثيرٍ من هؤلاءِ الناسِ، لأن تِلكَ النوعيَّةَ من القصصِ لم تكنْ تؤثرُ في نفسي على الإطلاقِ، لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ، بل إني كنتُ لا أحبُّ سماعَ القصصِ ولا الحكاياتِ التي تكذبُ أكثر مما تصدقُ مثل بعضِ الناسِ، لأني أعتقدُ أن

معظمَ القصصِ ـ بل ربما كلَّ تِلكَ القصصِ ـ خياليَّةٌ، وتفاصيلَها من نسجِ خيالِ الكاتبِ، وليستْ من الواقعِ في شيءٍ. لذا أفضلُ سماعَ القصصِ المؤلفةِ والمبتكرةِ التي لا تشعرُني بأنها مختلَقةٌ لهدفٍ ما.

وحتى وإن كانتِ القصةُ أصلها من الواقعِ، فمعَ مرورِ الأيامِ والسنين، تكثرُ الإضافاتُ والتحسيناتُ الخياليَّةُ، بما تقتضيه المصلحةُ أو رغبةُ الراوي. ثم ينمو الخيالُ وينمو كلَّما انتشرتِ القصةُ أكثرَ فأكثرَ، وتداولَها الناسُ بِشكلٍ أوسع عدداً ونصّاً.

حتى تتزاحمَ الحقائقُ مع التخيلاتِ، فتسقط بعضُ الحقائق من القصةِ تباعاً، وتسكن الإضافاتُ مكانها، فلا يتبقَّى فيها مع مرورِ الأيامِ والسنين والأجيالِ غير ما صنعَه الخيالُ والابتداعاتُ المنسوجةُ من أوهامٍ وأحلامٍ.

أما المعضلةُ الكبرى فتكمنُ في أن أقواماً كثيرين

من زمنٍ مضى ورحلَ عنَّا، أو يمضي راهناً وَمَا زلنا نَحيا فيه، أو سيأتي لاحقاً ثم يمضي كما مضى غيره، يصدِّقون تفاصيلَ القصصِ المزوقةِ والمزوَّرةِ، المرصوصةِ على أسسٍ وقواعدَ من الحقيقةِ، ثم يأتي الخيالُ الجامحُ القائمُ على الأهواءِ والغاياتِ الباعثةِ على الشفقةِ ليزيدَ عليها، ثم مع مرورِ الأيامِ تسقطُ الحقيقةُ منها، فلا يتبقَّى فيها غير خيالاتٍ مصطنعة، وربما قليل من حقيقةٍ.

والمثيرُ للغرابةِ القصوى ـ أو ربما للشفقةِ ـ أن بعضَ من يبتدعُ مثل تِلكَ القصصِ، أو يخترعُ ما فيها من خرافاتٍ بعيدةٍ عن الواقعِ، يخضعُ لها ويقتنعُ بها بعدَ حينٍ، إما بالتكرارِ أو بالإصرارِ. . أو بالرضوخِ غيرِ المبررِ. فيظنُّ واهماً ثم جازماً أنها من الحقيقةِ بلا ريبٍ ولا شكَّ في ذلكَ، مع أنه هو نفسُه، وبيديه تحديداً، هو من وضعَ خرافاتِها ونسخَ خيالاتِها. . وهذا لعمري أكثرُ غرابةً من أي شيءٍ آخرَ.

وكنتُ من قبلُ أشكِّك في كلِّ القصصِ التي تردُ من الماضي، لما أرى فيها من مبالغاتٍ لا تحصى ولا تعدُّ، وحواراتٌ تنقل بالتفصيلِ، مع أنَّ الأحداثَ قد تكونُ جرت بين اثنينِ لا ثالثَ لهما، بينما الأمورُ التي حدثتْ أمامي جعلتْني أعيدُ النظرَ والتفكيرَ.

لكني رأيتُ بعيني هاتين، وسمعتُ بأذني واقعاً عجباً، كان ما فيه أغْرَب من خيالٍ وأبعد من واقعٍ، فصرتُ أتمنى لو بقيتْ ظنوني حولَ الإضافاتِ الخياليَّةِ على حالِها، بدلاً من أن تنعكسَ الصورةُ فيزاحم الواقِع الخَيال، حتى يبدو الواقعُ وكأنَّه وهمٌ أو غير حقيقيٍّ، ومن الصعوبةِ ـ بل يكادُ يكونُ من المستحيلِ ـ تصديقُه . .

فكانتْ حكايةٌ قريبةٌ إلى خيالٍ، ويكادُ سامعٌ لا يصدق تفاصيلَها.

وخاصَّةً هؤلاء الذين لم يجرِّبوا من قبلُ مثلي

الطِّبَّ الحديث ولا الأطباءَ أصحابَ الشهادات، أو ربما جربوا لكن بشيءٍ من السطحيَّةِ، مِن دونِ حاجةٍ كبيرةٍ لشفقةِ طَبِيبٍ أو لهمته التي تتطلَّبُها الحالاتُ المستعصيةُ الشديدة الصعوبة.. وربما لا تكونُ حالةً مستعصيةً.

ولنكنْ أكثرَ دقةً، لأنها مستعصيةٌ على الطَّبيبِ المعالج لا على الطبِّ، فيدعي المعالجُ صاحبَ الشهادةِ «استعصاءها»، حتى يضمنَ نجاتَه عندَما يموتُ المريضُ بـ«هبوطٍ في الدورةِ الدمويَّة»، على اعتبارِ أنه «الأجَل المحْتوم»، و«البَقاء للهِ»، و«إنا للهِ وإنا إليهِ راجِعون»..

وكانَ البعضُ لا يريدُ أن يوجعَ رأسَه بالتفكيرِ والبحثِ والتَّدقيقِ.. الأُمورُ بَسيطةٌ؛ يجرِّبُ التَّشْخيصَ ويجرِّبُ الدواءَ، فإذا نجَحَ الأمرُ وأصابَ الدَّواءُ الداءَ فـ «شكراً»، وإذا لم ينْفعْ وفاقمَ الدَّواءُ الداءَ

فـ«عُـذراً». . هـذا إذا طَـلـبـوا الـعـفـوَ. . لـكـن الـكـبـرَ والاستعلاءَ منعَهم فلم يعتذروا!!!

وفي الحقيقة؛ ليسَ مطلوباً من الطَّبيبِ ضمان النتائجِ، ومسؤوليته كما يقولُون تقتصرُ على بذلِ الجهدِ، و«الأعمارُ بيدِ الله». .

هذا في القانونِ، أما قلبُ الأم فلا يفهمُ بموادِّ القانونِ ولا بالدساتيرِ ولا بالبروتوكولاتِ، قلبُ الأم يفهمُ أن على الطَّبيبِ أن يؤديَ دورَه ما دامَ قد قرَّرَ أن يكونَ طَبِيباً وأن يرتديَ الثوبَ الأبيض، فهذا الثوبُ يفرضُ على صاحبِهِ مسؤولياتٍ جساماً، وليستِ المسألَةُ مجرد شهادةٍ وحرف مع نقطةٍ يضافُ إلى الاسم، كما أنَّها ليستْ محاولات وتجارب يقومُ بها.

وبكلِّ وضوحٍ بيِّن للمبصرين، فإن الأم لا تَرضَى أن يكونَ ابنُها حقْلَ تَجارب ليسَ أكْثر، لمَنْ قالَ بلِسانهِ، وبفِعلهِ قبلَ لسانِهِ: «إنَّ الطَّبيبَ لا يتأثرُ

بالمريضِ، وليسَ في الأمرِ أي علاقَةٍ إنسانيَّةٍ يتأثَّرُ بها».

صحيحٌ أني عاملٌ بسيطٌ جاهلٌ، لكنَّني ذهبتُ إلى المدرسة لسنوات عديدةٍ، وماتَ أبي وأنا طفلٌ صغير، وعملتُ مبكراً جداً.. ثم سافرتُ للعمل في هذا المُسْتَشفَى قبل دخولِ منير إليها بأسابيعَ قليلةٍ.. وكانتْ أول مرةٍ ألتقي فيها بالأطباءِ الحقيقيينَ وجهاً لوجهٍ.. ففي بلْدتي النائيَّةِ البعيدةِ لا توجدُ مستشفياتٌ ولا أطباء.. إلا أنَّني إنسانٌ أشعُر وأفكرُ وأتعاطفُ مع أصحابِ الحاجاتِ، وكأنَّ قدَري وقدرَ الناسِ أمثالي أن يشعروا بآلامِ بعضهم.

أما مكنسةُ التنظيفِ التي أحملُها بعصاها الطويلةِ، فهي تفهمني وأفهمُها، ربما أكثر من كثيرٍ من البشرِ، لا أدري تماماً كم عمرُها. عندَما قدمتُ للعملِ هنا أعطوني مكنسةً قديمة، لكنَّني أحببتُها، وتعودتُ

عليها، وأشعرُ أنها هي أيضاً تحبُّني، وتحنُّ عليَّ كما أحنُّ عليها..

عندَما أُمسكُ بها أشعرُ بحنانها البالغِ نحوي أكثر من شعوري بحنان كثير من البشرِ.. فأبادلُها الحنانَ والحبَّ نفسَه، وهل هنالكَ أجملُ من أن يحبَّ الإنسانُ عملَه وأشياءَه التي ترتبطُ بالعملِ. وفي الحقيقةِ؛ فإنَّ معظمَ أصدقائي العمالِ أكثر تعاطفاً مع المرضَى من كثيرٍ من الناسِ، وقد رأيتُ ذلكَ بنفسي، وخاصَّةً مع تجربةِ منير، هذه التجربةُ القاسيةُ التي نقلتْه من الدنيا إلى الآخرةِ، إلى مكانٍ أفضلَ من مكانِنا وزماننا، ومخلوقاتٍ أفضل من كثيرٍ من المخلوقاتِ التي نضطرُّ مرغمين على التعايشِ معها.

صحيحٌ أنه نصيبُه وقدرهُ، وأن عمرَ الإنسانِ بيدِ خالقهِ، ولا يَستَطيعُ أحدٌ مهما أوتي من سلطةٍ أو ثروةٍ أن يقدمَ أو يؤخرَ ساعةً من عمرهِ المحدَّد، فكلُّ أمرٍ

مقدَّر ومكتوب من قبلِ ولادتِه، بل منذُ الأزلِ، ونعرفُ هذه الأمورَ كلها ولا نشكُّ فيها على الإطلاق؛ لكنَّ الطَّبيبَ الممتنعَ عن أداءِ واجبه على أتمِّ وجهٍ؛ يشبه عاملَ النظافةِ الذي لا ينظفُ الممراتِ جيداً. . بل يقومُ بعمله ببلادةٍ ودونِ مبالاةٍ. فتتجمعُ الأوساخُ بِشكلٍ مُتَدرِّج، عندَما لا يزيلُ طبقةً بسيطةً من الغبارِ الملتصقِ بالبلاطِ، ثم تأتي طبقةٌ فوقَها، وطبقةٌ أخرى فوقها، ومع الأيامِ تتكدَّس الطبقاتُ حتى يتغيرَ لونُ البلاط، وتتشكلُ طبقةٌ صلبةٌ لا يزيلُها التنظيفُ اليدوي العادي البسيطُ، وتَحتاجُ إلى مزيلاتٍ كيماويةٍ شديدةِ المفعولِ، وإلى آلةِ تنظيفٍ خاصَّة بجليِ البلاطِ لإزالةِ الأوساخِ المُتَراكمةِ التي تعجزُ عن إزالتها أسالَيبُ التنظيفِ التقليديَّةِ.

لكن الحقيقةَ ـ كما رأينا ـ قد تكونُ أغرب من الخيالِ.

والقصصُ الواقعيَّةُ فيها من الدهشةِ ما قد يتغلَّبُ على الدهشةِ التي تصيبُ المغرمين بالقصصِ الخياليَّةِ.

وكثيرةٌ هي القصصُ والحكاياتُ التي لا يمكنُ تصديقُها بسهولة، وحتى من يراها حقيقة على أرض الواقع يظنُّ أنه يحلمُ. . وربما رأى الإنسانُ أحداثاً لا يخبرُ بها، وقد يخبرُ بأحداث من نسجِ خياله بنفسِه.

ومع ذلكَ تبقى القصصُ المحكيَّةُ راسخة في ذاكرةِ الناس، يرويها الكبارُ للصغارِ، وتتناقلُها الأممُ أجيالاً وراء أجيالٍ، وربما تكونُ معظمُ القصصِ أقرب إلى الخيالِ منها إلى الواقعِ، لكنَّ التَّجاربَ التي نَحياها كلَّ يوم تدهشُنا أحياناً بوقائعَ كانتْ بالأمسِ خيالاً.

ولطالَما سمعَ الناسُ عن أمورٍ غريبةٍ، لا يمكنُ أن تخطرَ على بالِ أحدٍ ببساطةٍ، وعن أحداثٍ عجيبةٍ لا ينسجُها إلا فكر واسِع ونفس غارِقَة في الأحلامِ البعيدةِ عن الواقعِ.

وفي أحيانٍ عدةٍ نسمعُ عن قصصٍ حدثتْ في التاريخِ وقد نظنُّ أصحابَها أسطورةً من الأساطيرِ، أو خلقاً من غيرِ البشرِ من غرابةِ الأحداثِ التي تصادفُهم، لكن تِلكَ القصص على الرّغْمِ من كلٍّ ما تثيرهُ من استغرابٍ؛ فإنها تظلُّ مرتبطةً بالواقعِ مثيرةً للجدلِ.

وهناك من يؤمنُ بأنَّ وراءَ الواقعِ شيئاً أبعدَ من الحقيقةِ وأوسع من الخيالِ، وأنَّ وراءَ كلِّ خيالٍ طرفاً من الواقعِ.

هي أشياء لا تسقطُ مع المطرِ، ولا تنبعُ مع الماءِ، ولا تثمرُ مع الزهرِ، ولا تنبتُ مع العشبِ.

أشياء فوقَ العقلِ أو التوهُّم.. فوق الرُّؤى والأحلام.

ومع ذلكَ يظلُّ الناسُ يسعون جاهدين لاقتناصِ الأملِ والحياةِ من وراءِ الواقعِ.

فما أضيق العيشِ لولا فسحةُ الأملِ.

سبعةُ شهور كاملة مضتْ وهو مسجونٌ في المُسْتَشفَى، كانَ يتألمُ بصمتٍ، وكنتُ أتلوَّى على جمرِ اللهبِ من جراحهِ ودموعه النازفةِ. كانَ لشهورٍ طويلةٍ بحالٍ يمكن إنقاذُه منها، لكنَّهم تركوهُ ينزفُ دماً من كلِّ مكانٍ.. وعاملوه وكأنه رجلٌ مسنٌّ مقبلٌ على الموتِ لا محالة.

وحتى الطَّبيب المشرِف لم يدخلْ غرفتَه سوى مرة واحدةً طوالَ شهورٍ، وكانوا يقولُون: «إنه يُتابعُ عن بعدُ».

قد لا يصدقُ كثيرٌ من الناسِ بسهولةٍ أنني منذُ جئتُ للعملِ في المُسْتَشفَى أتعاملُ مع مكنسةِ التنظيفِ بكلِّ احترامٍ، لأنَّ مهمَّتي خطيرة، أو هكذا اعتقدتُ أنا على الأقلِّ.. كنتُ أحرصُ على تنظيفِ الزوايا الرطبةِ المعتمةِ والأماكنِ المخفيَّة أكثر من الأسطحِ الظاهرةِ للعيانِ، لأنني أومنُ بأن تِلكَ الأماكنَ بيئةٌ خصبةٌ

لتكاثرِ الجراثيمِ المضرَّة، وكنتُ أقومُ برشِّ المبيدات بالقدرِ المسموحِ باستخدامِه، وأمسحها بكلِّ اهتمامٍ حتى لا يتبقَّى في المكانِ الموكلِ إليَّ تنظيفه أيَّةَ جراثيمَ. .

كنتُ وَمَا زلتُ أدركُ أن المريض ضعيفُ المناعة، جاءَ إلى المُسْتَشفَى حاملاً لمرضٍ ما، ومن غيرِ المقبولِ أن يكونَ المُسْتَشفَى مكاناً لكي ننقلَ إليه مرضاً آخرَ، ومن الأمانةِ أن لا أتركَ زاويةً مهما كانتْ مخفيةً مِن دونِ أن أنظفَها تنظيفاً تاماً، وأن أتأكَّدَ من نظافتِها. .

آمنتُ بأن مهنتي كعاملِ تنظيفاتٍ لا تقل أهميَّةً عن مهنةِ الأطباءِ الشرفاءِ، إذا كانَ الطَّبيبُ استشارياً مُتخصِّصاً فأنا أيضاً يجبُ أن أكونَ منظِّفاً استشارياً مُتخصِّصاً.

وكانَ بعضُ من أعملُ معهم يَطلبون منِّي أن أضعَ

كميةً قليلةً من الموادِّ المنظِّفةِ في دلوِ الماءِ للتوفيرِ، ولم أكنْ أعترضُ على الإطلاقِ.. من حيثُ الشكل طبعاً.. أما مِن حيثُ المضمون والتَّطبيق فكنتُ أفعلُ ما يجبُ أن أفعلَه.

صحيحٌ أنني لا أضعُ سماعةَ طَبِيب ولا أتَباهى بها بينَ الممراتِ وبينَ أسرةِ المرضى، كما يفعلُ كثيرٌ منهم.. لكنَّني فخورٌ بعملي وبمكنَستي التي أحملُها، وعندَما أذهبُ للعملِ أضعُها على كتفي.. تماماً كما يفعلُ الطَّبيبُ عندَما يضعُ السماعاتِ ويُدليها رافعاً رأسَه ونافخاً صدرَه، مفتخراً بها، يتهادَى مُتَبختراً في غرفِ المرضى.. مُتَناسياً أن الصحةَ تاجٌ على رؤوسِ الأصحاءِ لا يراها إلا المرضى، كما كانَ يرددُ الفتى الصغيرُ منير، وكما كتبَ مرةً على صفحتِه في الفايسبوك.

وحبذا لو كانَ جميعُهم يستعملُها!!! فقد كان

بينهم من يتركُ الأمرَ في معظمِ الأحيانِ للممرضين مِن دونِ أن يضعَ يدَه على جسدِ المريضِ.. وإذا أرادَ على الأقلِّ أن يبديَ بعضَ الاهتمامِ كانَ يضعُ السماعاتِ على المريضِ، ويظهرُ اهتماماً بما يسمعُ.. مع أنني رأيتُ مرة طَبيباً يضعُ قرصَ السماعةِ على ظهرِ المريضِ وصدره مِن دونِ أن يضعَ السماعاتِ في أذنيه..

مشهدٌ مضحكٌ أليسَ كذلكَ؟!

غير أن الذي أضْحكَني كثيراً قولُه بعدَ ذلكَ: «لا بأسَ.. لا بأس.. الأمورُ طيبةٌ».

فعن أيَّةِ أمورٍ طيبةٍ تتحدثُ يا دكتور؟! الظاهرُ من الأمرِ كما يبدو أنكَ لا تسمعُ ولا تبصرُ..

كنتُ من خلفه كمَن يشاهدُ فيلماً هزلياً مضحكاً.. أتساءلُ بدهشةٍ: هل ما رأيتُ هو حقيقةٌ أم خيالٌ!

وكما أسلفتُ في سابقِ القول: «إنَّ في الحقائقِ

ـ أحياناً ـ وفي تفاصيلِها ما هو أغرب من القصصِ الخياليَّةِ».

وبعدَ هذه التجربة المريرةِ، لم يعدِ البقاءُ في هذا المكانِ مُتَاحاً، بل ينطوي على كثيرٍ من الجنونِ، فكيف يمكنُ أن أبقَى واستمرَّ بهذا الجرحِ المفتوحِ الدَّامي بعدَ أن شاهدتُ ولمستُ وعشتُ تفاصيلَ كلِّ هذه المعاناةِ المؤلمةِ؟! كما أنَّ هناك الكثيرَ من الناسِ قد يكونونَ بحاجةٍ لي، أكثر من حاجَتي إلى ما تدرُّه عليَّ مكنسةُ التنظيفِ من دراهمَ معدوداتٍ.

كان لا بدَّ من أنْ أتخذَ قراراً حاسماً «مئة بالمئة». لم يكنْ أمامي سوى أن ألملمَ أحزاني، وأجمع ما تناثرَ مني، ثم أعود من حيثُ أتيتُ. أعودُ إلى ذلكَ المكانِ الجميلِ الذي جئتُ منه.

قرَّرتُ التخلُّصَ من مكنستي وثيابي ومن مهنةِ «التنظيف»، على الرّغْمِ من أهميَّتها بالنِّسبةِ لي وبالنِّسبةِ

للآخرين، لكن من سيتأثرُ بغيابِ عاملِ تنظيفاتٍ مثلي؟!

قرَّرتُ العودةَ إلى جدتي.. وإلى زيتِ جدتي.. وإلى ابتسامةِ جدتي.. وإلى السلامِ والطمأنينةِ والمحبةِ.

لقد فهمتُ معنى ما تقدِّم جدتي.. والأشياءِ العظيمةِ التي كانتْ تخصِّصها للآخرينَ.. فليسَ السرُّ في الزيت، بل في تِلكَ الابتسامات التي توزِّعها بغيرِ حسابٍ، ودونَ أن تضعَ ابتسامتَها على فاتورةِ الحسابِ.

لم يكن قراري بأنْ أشغلَ نفسي بالعملِ مع جدَّتي في مساعدةِ المرضى على الشفاءِ هروباً من ذكرى منير، بل كانَ هو الذكرى نفسَها، والعنوانُ الوحيدُ لكلِّ التغييرِ الذي حدثَ في حياتي.

ومنذُ عودتي شغلَني زيتُ جدَّتي عن كلِّ شيء آخرَ..

فكنتُ يديها اللتين تحملان أباريقَ الزيتِ أينما مضتْ، وكنتُ عينيها اللتين تبصرُ بهما وتنقلان لها التفاصيلَ الدقيقةَ التي تعجزُ عن رؤيتها لضعفِ بصرِها، وكانتْ هي ابتسامتي التي تشبهُ ابتسامةَ منير الذي لم تفارقْه الابتسامةُ كما لم يفارقْهُ الأملُ.. حتى آخر لحظةٍ من لحظاتِ الحياةِ.

وبعدَ وفاةِ جدتي؛ كان زيتُها ضوءَ سراجي في عتمةِ طريقي.

لأني عندَما عدتُ إلى قريتي كنتُ عازماً على أمرٍ خطيرٍ؛ قرَّرتُ أن أعودَ إلى الدراسةِ، ومُتابَعَة الطريقِ من أجلِ منير وأمثالِه.. فدرستُ بكلِّ جهدٍ، كنتُ أدرسُ في الليلِ وأعملُ في النهارِ مع جدتي.

علَّمتني جدَّتي كلَّ شيءٍ عن مهنة الطِّب الشعبي، وعن سرِّ العلاجِ بالزيت..

تعلَّمت منها أن هذا السرَّ يكمنُ في الابتسامِ للناسِ وليسَ في الزيتِ نفسِه.

ومشيتُ على طريقها أعملُ معها في النهارِ وأدرسُ في الليلِ، حتى أنهيتُ المدرسةَ بعدَ أعوامٍ قليلةٍ بتفوُّقٍ، وحصلتُ على منحةٍ في الجامعة. كانَ هدفي مُتابَعَة الدراسةِ. انتقلتُ إلى العاصمةِ، وكان الطِّب هو التخصُّص الذي أسْعى إليه.. وتحديداً في الجهازِ الهضمي.. صرتُ أواصلُ الدراسةَ في الليلِ والنهارِ، وأبحثُ في تفاصيلِ الأمورِ. أردتُ أن أكونَ طَبِيباً.. يليقُ بي الثوبُ الأبيضُ.

كانتْ شهادةُ تخرُّجي تحيةً لروحِ ذاك الغلامِ الجميلِ الذي كانَ في عذابه وموتِه؛ قصَّة غيَّرتْ حياتي.

أخبرتُ كلَّ الناس في قريتي وفي جامعتي بقصَّة منير.. حتى أصبحتْ هذه القصةُ عنواناً للصبرِ والثورةِ على من لا يليقُ بهم الثوبُ الأبيضُ..

رحمَ اللهُ منير..

الغلام الصالح النبيل.

(ليست النهاية)

المحتوى

الإهداء 5

1 ـ نِهَايَةُ عَامٍ حَزِينٍ 7

2 ـ صُوْرَةُ الغَاليُوم 45

3 ـ مُنِيرٌ وَقِصَّةُ البُلْبُلِ الغِرِّيْدِ 59

4 ـ صَرخَاتٌ واسْتِغَاثَةٌ 76

5 ـ الطَّبيبُ الشَّهْمُ 87

6 ـ قَلْبُ الأُمِّ قَلْبُ أُمَّةٍ 97

7 ـ الاغْتِرَابُ حَالَةٌ مَأْسَاوِيَّةٌ 111

8 ـ الغُلامُ الصَّغِيْرُ في جَنَاحِ المُسِنِّيْنَ 127

9 ـ الطَّبيبُ العَادِيُّ والطَّبيبُ الرَّائِعُ 147

10 ـ مُشْكِلاتٌ مُتَتالِيَةٌ 154

11 ـ تَشْخِيصُ كرُونز 167

12 ـ مِئَةٌ بِالمِئَة أَمْ صِفْرٌ بِالمِئَة؟! 182
13 ـ حَسَاسِيَّةُ القَمْحِ 197
14 ـ الدُّكتورُ المُشَخِّصُ عَنْ بُعْدٍ 211
15 ـ السّنْتْرال لايْن 233
16 ـ مَشَاهِدُ مُؤْلِمَةٌ 260
17 ـ حِكَايَةُ الطَّبيبِ الأَلْمَانِيِّ 270
18 ـ أَبِي وَزَيْتُ جَدَّتِي 285
المحتوى 311